



خيري شلبي

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن :
مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ١٧٠ ليرة – لبنان ٥٠٠٠ ليرة – الأردن ٢ دينار – الكويت ١,٥ دينار – السعودية ١٥ ريالا – البحرين ١,٥ دينار – قطر ١٥ ريالا – دبي / أبوظبي ١٥ درهما – سلطنة عمان ١,٥ ريال

العدد ٦٠٤
إبريل ١٩٩٩ ● ذو الحجة ١٤١٩ هـ
No - 604- APR - 1999

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

الاشتراكات :

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٣٥ دولارا – امريكا واوروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا – باقى دول العالم ٦٠ دولار .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال – ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة – القاهرة – الرقم البريدى ١١٥١١ – تلغرافيا : المصور – القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

منامات

عم أحمد السماك

بقلم
خيرى شلبى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

حلمى التونى

شجرتان

رأيتني في ميدان السوق واقفا ، مرتكنا بكوعي على حديدة سور مسجد قايتباي . كنت سأمانا لحد الشعور بالفراغ والقرف ، لا أكاد أجد ما أفعله ، مع أنني في العادة لا وقت عندي لمثل هذا الشعور . قلت في عقل بالي : لعله الحر الشديد لم تنفع معه المراوح فطردني من البيت بحثا عن نسمة هواء رباني في هذه البحيرة المشهورة بهوائها النقي الغزير ؛ وكان في اعتقادي أنني بمجرد أن أستنشق هذه النسمة فسأفطن في الحال وأعرف ما هو العمل الذي من المفروض أن أعمله الآن ؟ ..

لكن يظهر أن الهواء قد امتنع ، إحترق ، حبسته الشمس في صندوق من القيظ . لم يكن الوقت موعد صلاة ، وصديقي الأستاذ لم يأت بعد إلى قهوة الغول وإلا كان زماني الآن جالسا معه . وها هي ذي المقهى تصفر من شدة الفراغ ؛ الشمس تكتسح رصيفها كله تفرش عليه قيظها المشدود . لو قلت عقلي ودخلت القهوة لشرب واحد شاي وحجر شيشة فإنني لن أخرج منها إلا مشويا ..

كان بصري منصبا على رصيف المقهى . الولد محمود نصبجي القهوة يملأ جردل الماء ويدلقه على الرصيف ثم يذهب ليملأه فما يكاد يعود حتى يجد أن الماء قد اختفى أثره تماما عن الرصيف وظهر الرصف كما هو كالحا ناشفا متقيحا بلون الملح . في غمرة إشفاقي على محمود فوجئت بشجرتين جديدتين متجاورتين على الرصيف وطولهما يزيد قليلا عن قامة صبي إندهشت ، قلت في عقل بالي: متى زرع الغول هاتين الشجرتين يا ترى ؟! فأنا أجئ إلى المقهى كل يوم بعد صلاة العصر ، ولم أر هاتين الشجرتين من قبل أبداء سيما وأنني والأستاذ من هواة القعدة على الرصيف بمجرد زوال الشمس بعد انتهاء وربيتها اليومية . وكان لابد أن ألاحظ وجود هاتين الشجرتين من لحظة غرسهما لأنني من هواة زراعة الأشجار وأفهم فيها جيدا ..

لكن شيئا أشد غرابة ما لبث أن ظهر على الشجرتين فجمدنى فى وقفتى من شدة الذهول . فقد لاحظت أن إحدى هاتين الشجرتين عفية وأفرعها مفروشة وباسقة أما الأخرى فهزيلة نحيلة مرضانة . ليس هذا ما أذهلنى ؛ إنما الذى أذهلنى فعلا هو هذا الهواء العاصف الذى راح يهب على هذه الشجرة وحدها !! . إن الهواء من حولى متجمد تماما ، وحتى الشجرة العفية – التى لا يفصلها عن أختها سوى ذراع واحد – تقف متصلبة متيبسة الفروع بل والأوراق كأنها مجرد تمثال من الجبس الملون . كما أننى فى وقفتى أشعر أن أنفى يستنشق صهدا خالصا .. فمن أين يأتى هذا الهـواء القوى لهذه الشجرة وحدها بالذات ؟! ودون بقية المخلوقات ؟! .

قلت فى عقل بالى : لابد أن يكون جذرها تحت الأرض ممســوكا بيد عابثة تطوحها هكذا ؛ ولابد أنه يريد أن يتعتعها ويلفظها . ثم أقشعر بدنى إذ تذكرت إخوتنا الملائكة العائشين تحت الأرض . لكن أمر الشجرة شغلنى .

إقتحمت الرصيف بوجل كأننى أدوس فوق قصدير ملتهب . خرمت على الشجرتين . حزنت أشد الحزن على هذه الشجرة إذ إنها من نوع لا يقل أصالة وكرم أصل عن زميلتها الراسخة بل إنها – حسب خصائص نوعها – أشد استعدادا للخصوبة والنماء والإتساع وغزارة العطاء إن ثمرا فثمر وإن ظلا فظل . أول علة أصابت هذه الشجرة المسكينة هى هذا الحوض الحجرى الملآن عن آخره بمياه قذرة ، فكثرة الماء تقتل طفولة الأشجار وتميت صباها فتبقى العمر كله عليلة. وفى الحوض بطة وأوزة بأولادها تتبادلن جذب الشجرة ودفعها من هنا إلى هناك ضربا بالمناقير الحادة أو لطشا بالمؤخرات والأجنحة ..

شعرت أن الشجرة تكاد تبكى ، تنظر لى فى استرحام لعلى أخلصها من هذا الهوان ؛ وها هى ذى تترنح كأنها تجض وتموت فلابد إذن من تخليصها من عذاب هذا العبث . بيدى أمسكت البطة ورميتها ، ثم الأوزة ، ثم اصطدت عيالها وأنا أفكر فى طوق من الحديد بطولها وفى عود راسخ يسندها إلى أن تثبت أقدامها فى الأرض . ثم إننى صرت أزعق مناديا فى فجيعة :

– «الشجرة ! ستقع ! ستموت ! تعالى يا محمود وشف . كيف نعالجها معا !».

جاء محمود فاشخا حنكه الطويل الكبير بابتسامة غير مبتسمة وإن تمددت وغاصت تحت خديه المتكورين . قال فى برود كأنه يأسف على ما أصابنى من جنون :

– «مالك يا عم أحمد ؟! فيه إيه ؟!»

– «الشجرة يا محمود !»

– «مالها الشجرة ؟!»

– «ستموت ! سيأكل البط جذرها ! ويكسر الهواء جذعها وفروعها !»

– «هواء ؟! تقول هواء ؟! أين هو هذا الهواء يا عم أحمد ؟! . نحن فى عرض نسمة هواء حتى لو اقتلعتنا نحن أنفسنا من الأرض !»

– «يا ولدى شف كيف تتمايل بقوة حيث إن فروعها أثقل من قوامها النحيل بسبب هذه المياه الكثيرة !»

هز كتفيه بلا مبالاة :

– «ركبها عفريت ! ماذا أفعل لها أنا ؟!»

– «إربطها ! تدق عودا أو خشبة فى الأرض بحذائها ثم تربطهما معا بحبل متين فتمنعها من الإنكسار !»

– «ومن منا فيه روح يفعل هذا ؟ الواحد خلقه ضاق من الحر ! لا أحد يطيق نفسه ! أرش على الرصيف بحر النيل كله ويبقى ناشفا !!»

تركته وقفلت عائدا إلى بيتى أفكر فى كيفية استقضاء سيخ من الحديد أو نبوت . لكن صوت ولدى محمد اقتحمنى مناديا :

– «الفلوس يا آبا ! آبا ! يا آبا ! حبل إيه وسيخ إيه أقول لك خذ الفلوس !»

فتحت عينى . كنت لا أزال نائما على سريرى ، وولدى محمد يقف ممسكا بقرطاس من ورق الأسمنت مبروما على بتاع الناس . استغربت أن يجئ هو بالفلوس ، بعد برهة فطنت إلى أن ولدى صابر منذ أن تزوج زيجته الثانية قد

انفصل عنا بيتا ومعيشة وسوقا ، أصبح يتسوق لوحده ويفرش لوحده . ثم فطنت إلى أنني كنت قد تعبت في السوق وقت الظهيرة من شدة الحر ومناكفة زبائن يوم الإثنين الكحيانة ماركة كيلو وكيلو ونصف ، فتركت الفرش لمحمد ولد عمه وجئت لآخذ تعسيلة سريعة تصلب حيلى .

كان أول شئ فعلته فور خروجى من البيت أن توجهت إلى المقهى ، فعاينت الرصيف من أقصاه إلي أقصاه بدقة ، فلم أر فوقه من شجر إلا هذه الشجرة العجوز العتيقة التى يجلس تحتها الأستاذ لصق كشك صندويتشات الحواوشى فى أقصى الرصيف قرب حنفية الصدقة فى وسط الميدان . مع ذلك لم أقلق من جهة هذا المنام رغم أنه من منامات فترة العصر التى لابد أن يكون لها – كمنامات الفجر – رصيد فى الحياة يصرف لى بعد وقت يقصر أو يطول . ويخيل لى يا بو العم أن المنام فى كثير من الحالات لابد أن يتخمر أو يتحمض فى غرفة مظلمة من غرف الدماغ الكثيرة فإذا هو بعد حين قد استوى أمامى صورة حية ناطقة فى واقع الحياة ؛ كأن المنام هو «البروفة» التى يجريها الممثلون فى الكواليس قبل عرضها على الجمهور فى يوم معلوم . ساعات يابو العم يخيل لى أيضا أن المنام بمثابة كمبيالة يتعين علىَّ تسديدها فى وقت محدد لست أعرفه إلا حين الأمر بالدفع أو الحبس ؛ فى هذه اللحظة فحسب أتذكر تفاصيل الدين الذى حررت بموجبه هذه الكمبيالة أو تلك ؛ الكمبيالة هى الدين ، والسداد هو حالتى لحظة الدفع القاسية .

فى تلك الآونة – منذ أكثر من عشرين عاما يا بو العم – كانت علاقتى بصديقى الأستاذ قد بدأت من جانبى قبل أن يشعر بى هو ، فصرت أنتظر اللحظة المناسبة – التى كانت على وشك – لاختيار القنطرة الآمنة التى يعبرها كلانا إلى الآخر لنبقى على بر واحد معا . ويشاء السميع العليم أننى فى عصر اليوم التالى للرؤيا جاءت القنطرة وحدها ممدودة راسخة تستحمل الدوس بقوة .

ففى الشهور الكثيرة الماضية كان قد لفت نظرى منظر أستاذ وقور يتخذ من قهوة الغول محله المختار ، يلبس أكثر من نظارة طبية ، واحدة على عينيه وأخرى

معلقة فى رقبته بسلسلة . فى الشــتاء يقعــد داخل القهوة . وفى الصيف عند الظهيرة يقعــد فى البكية الخارجية المحصورة بين القــهوة والرصيف يعلو عنها الرصيف بأربـع درجات من سلم حجرى ، ونى :لعصارى والأصائل يقتعد الرصيف ، وهو فى كل قعداته يحتل ترابيزة وحــده ، فيضـع حقــيبته الكبيرة كحقائب السفر إلا أنها محشوة بالكتب والأدوات الكتــابية ، على كرسى بجواره. يفرد على الترابيـــزة أوراقا ودفاتر وكتبا ومجلات وصحفاً ؛ وهو على الدوام مندمج فى قراءة وكتابة وبنفس الحميمـية والاستغراق يشـرب الشــيشة والقــهوة بغيـر انقــطاع ولا توقف .

أعجبنى منظره . تخيلته من كبار الحكام الذين لهم فى منطقة قايتباى مسئوليات وأشغال . فلما قيل لى أنه صحافى وكاتب مشهور إنبهرت به ، وكنت طوال عمرى أتمنى أن أقابل صحافيا أو كاتبا لكى أتعرف عليه وأصاحبه لعله ينفعل بقصة حياتى ويكتبها ؛ تلك التى ثقل حملها على أكتافى وأصبحت أتمنى لو يعرفها كل الناس ليتعظوا ويأخذوا العبرة من قاطع طريق وحرامى سابق هداه الله أعظم هداية وبوده تفطين الناس إلى كيفية العراك مع الشر وهزيمته . لهذا أمسيت أذهب إلى مقهى الغول أصيل كل يوم فأطلب الشيشة والحجارة العشرة ، وأقعد قبالة الأستاذ ؛ أمزمز فى الحجارة على مهل ؛ أتفرج على الأستاذ بانبهار وغبطة ، وهو يقرأ ، وهو يفكر متجهما عاقدا حاجبيه ، وهو ينخرط فى الكتابة ؛ حتى صرت أعتقد أن حركة قلمه على الورق ينتــج عنــها كلام مكتوب على صدرى أنا ، إنه يكتب فوق صدرى لا فوق ورق ، ويمتح من صدرى لا من دماغه ؛ صرت أعشق صوت خرخشة قلمه على الورق ؛ أغتبط من سرعة جريانه ؛ أندهش كيف يستطيع المخ أن يضخ فى القلم كلاما يكتبه بهذه السرعة فى غير توقف اللهم إلا للإمساك بفنجان القهوة أو عدل وضـع مبسـم الشيشـة أو تغيير الصفحة أو استبدال القلم . أغبطنى تصرفه مع مبسم الشيشة حتى لا يلخمه ويعطله ؛ لو كان الود ودى لرضيت بأن أمسك له مبسـم الشيشـة بيدى طوال الوقت حتى لا تتعطل يده عن الكتابة ؛ إلا أنه يدخل ركبه تحت رخامة الترابيزة فيحتضن اللى

بين فخذيه ، ويميل على الورق فيحشر مبسم الشيشة بين حافة الرخامة وصدره ثم يواصل الكتابة بيديه ، يد تكتب ويد تسند الورق ..

-أصبحت أغار عليه من زبائن المقهى الفضوليين ؛ أبعدهم عنه بقدر الإمكان إذا كنت أعرفهم ؛ ما أن أرى أحدهم متجها إلى الكرسى الملاصق لترابيزته حتى أغمز له بعينى غمزة معناها أن يستذوق ويترك الأستاذ فى حاله . وإذا ارتفع صوت الراديو على الآخر كما يحلو للناس الطرش أن يرفعوه فإننى أهمس فى أذن مصطفى الجرسون راجيا إياه أن يخفض صوت الراديو حتى لا يغلوش على الأستاذ ..

أصبحت أصاب بالكآبة إذا لاحظت أن الأستاذ قد تعطل عن الكتابة ، إذ أراه شاردا مهموما ؛ فيوجعنى قلبى . أتخيل لو أننى قمت إليه بلطف وسربت له قطعة أفيون تعدل مزاجه فكيف يكون الأمر ؟ هـل يقبلها شـاكرا ؟ هـل يزجرنى ويرفضها ؟ طب لماذا لا أحاول ؟ ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة على التنفيذ . أما منظره وهو غارق فى القراءة فقد كان يسرنى جدا ، إذ تنبسط ملامحه وتتهدل عضلات وجهه وتغرق فى وداعة طفولية تتقلب عليها ألوان من الدهشة والفرح والغضب ، وأحيانا يبتسم ، أحيانا أخرى يستغرق فى ضحك مكتوم عميق . أقول فى عقل بالى آه لو أن ما يقرأه ينتقل فى الحال إلى رأسى أنا الآخر ؛ ما أحوجنى إلى مثل هذه القراءة ؛ ما أشد ما ظلمت نفسى يوم هربت من الكتاب لأشتغل خطافا ثم سماكا . نفسيتى تحب القراءة ولكن لما كنت أجهل فك الخط إلا بعض حروف قليلة فقد صارت هوايتى قراءة الناس . نعم يا بو العم ، قراءة الناس علم لا يجيده إلا ولد ابن سوق مثلى صاع ولف وداخ وتعرى وعرف أن كل واحد من ولاد آدم كتاب مفتوح ينتظر من يقرأه ، وأنا أبدأ قراءة البنى آدم بالنظر فى مفردات وجهه – (ومفردات هذه كلمة سمعتها من قعدة الأستاذ وأعجبتنى) – فأعرف إن كان قد غسل شعره أم لا ؟ إن كان قد نام فى بيته اليومى أم فى بيت عابر ؟ أم فى الخلاء ؟ أعرف إن كان قد غير ولو شيئا واحدا من هـدومه ؟! إن كان جعانا أم شبعانا ؟ إن كان زعلانا أم المسألة ضيق خلق لقلة النوم ؟ إن كان

الزعل بسبب زوجته وعياله أم بسبب الشغل أم بهموم ديون أم بمشاريع غير موفقة ؟ إن كان واقعا فى الحب لشوشته أم لا تزال تناوشه صبية من الصبايا ؟ إن كان محبا لزوجته أم يعيش معها حفاظا على العشرة الطويلة ؟ إن كان أمينا ذا ضمير أم ابن فرطوس بلا مبدأ ؟ إن كان عطوفا أم قاسى القلب ؟ ابن ناس أم شبعة بعد جوعة ؟ أصيلا أم خسيسا ؟ ضرسا فى مهنته أم لابس مزيكه ؟ ..

وهكذا قرأت الأستاذ جيدا ، من الجلدة للجلدة كما يقول لرفاقه . وقد تأكدت من صحة قراءتى له منذ أن واظبت على المجئ إلى المقهى لأشرب حجرين لزوم التمسية قبل النوم، فأجد قعدة الأستاذ قد اتسعت ، صار منظرها فرجة تسر الناظرين ، فيها وجوه نعرفها معرفة جيدة إذ هم من الممثلين الذين يظهرون كثيرا فى التليفزيون ، ووجوه نعرفها بالشبه ونعرف أنها مهمة لكننا لا نعرف من هى بالضبط ، فيها صحافيون وكتاب ومخرجون وممثلون وشعراء . كل هؤلاء لابد أن يجتمعوا على ترابيزة الأستاذ كل ليلة . قد يغيب أحدهم يوما ، لكن القعدة تظهر فيها كل ليلة وجوه جديدة وأسماء جديدة كبيرة غليظة نقرأها كثيرا فى الجرانين فننخض . كانوا يتكلمون والأستاذ يسمع ، أو ينصتون والأستاذ يتكلم ، يلقى عليهم شعرا لفؤاد بن الحداد الذى أوقعنى فى غرامه ولم أكن أعرف أنه هو نفسه مسحراتى الإذاعة . ندوة كبيرة يابو العم ، أبقى متعلقا بها أسمع بل أشرب كل كلمة فيها بمزاج أعلى من مزاجى فى شرب الحجر ؛ حجر ماذا يا بو العم ؟ هذا الكلام هو أعلى حجارة تعدل المزاج ، تنيره ، تبنيه . الناس الهربيبس ينظرون لى ويضحكون بشدة ، فأنتبه إلى أننى منذ وضعت النار على الحجر والمبسم فى يدى بقيت سارحا جاحظ العينين مفتوح الفم مبهـورا بما أسمعه من كلام يلعلط ويخلب لبى ؛ أو أنتبه إلى أننى وضعت النار فوق حجر سبق احتـراقه ؛ وقد أصب النار فوق لا حجر فتتسال على ملابسى وحذائى ، فأكون أول الضاحكين على نفسى ؛ وأضيق لأن قطعة النار حرقت جلبابى الصوف الذى اتقمع به ، خاصة أننى بت أهتـم بمظهرى وعياقتى اهتـماما كبيرا فألبس أشـياء ثمينة غالية .

شف يا بو العم سأقولها لك كلمة حكمة خذها من رجل أمي ولكنه مجرب ؛ إن أعجبتك ضعها حلقا في أذنيك يكرمك الله وتكون من الفالحين ؛ وإن لم تعجبك إرمها خلف ظهرك فتكون من الخاسرين والعياذ بالله . كلمتي هي : المعرفة - وليست القناعة وحدها - كنز لا يفنى . فمن كثرة استماعي لكلام هؤلاء الأساتيذ - حتى وإن لم أفهمه كله - أخذت كنزا كبيرا جدا ؛ أعطاني الإحساس بنفسي ، بآدميتي ، إنسانيتي . أصبحت متأكدا أن الأفكار التي كثيرا ما راودتني حول هذا الأمر أو ذاك إتضح أنها صحيحة فأنا إذن أفهم وإن كنت أميا ؛ وإذن فالفهم والمعرفة ليسا قاصرين على من يقرأون في الكتب والصحف . الأهم من ذلك يابو العم أنني اكتشفت الكلام ، لغة الكلام ، طريقة الكلام ، معنى الكلام ، معنى الكلام يابو العم أنك حين تتعلم كلمات جديدة من ناس موزونين مهمين فاعلم أنك بهذه الكلمات تعلمت كيف تتحرر من قيد من القيود ، كيف تعبر عن الذي تريده ، كيف تطلب حقك ، كيف تعرّض شكواك ، كيف تقنع خصمك .

أشياء كثيرة لا حصر لها تعلمتها وعرفتها وأنا جالس أتفرج على صحبة الأستاذ ، حتى ظهر الأستاذ في نظري كشجرة كبيرة وارفة الظلال طلعت لي في طريق ملئ بالصهد والعرق والضلال .

أحيانا كنت أفكر جديا في اقتحام الأستاذ وتعريفه بنفسي لنصبح أصدقاء . لكن سوق الحياة عامة ، وسوق السمك بخاصة ، علمني أن اقتحام الناس لا يعجل بالصداقة بل قد يؤجلها ويؤخرها وربما ينفيها تماما ، لأن شكة لحظة الإقتحام على بساطة فعلها تترك في النفس بؤرة وجع وفي العين سحابة ظل ، يظل من اقتحمته وفرضت نفسك عليه في حاجة لأن يعرفك جيدا قبل أن يسلس لك قياد نفسك طائعا مختارا ؛ لأنك اقتحمته - (على فكرة كلمة اقتحمته هذه وكلمات كبيرة كثيرة غيرها لم أكن أعرفها قبل معرفة الأستاذ) - هجمت عليه كقاطع طريق ، وأنا أعلم الناس بما يتركه قطع الطريق في الناس من شعفة قد تورث الموت .

علمنى سوق الحياة أيضا أن الطيور – حقا – على أشكالها تقع ، وما دمت أنا قد وقعت على ورقة فى فرع فى شجرة الأستاذ فلا داعى لأن أتعجل الوصول إليه شخصيا وإلا وقعت من حالق .

خرجت مرة من صلاة العصر فى جامع قايتباى إلى رصيف قهوة الفول الشهير بأمريكا – أمريكا ، لأستروح نسمات الأصيل . وأنا من عادتى أن أنظر فى الأرض كثيرا حين أمشى ، ربما لأنى قاطع طريق سابق تعودت أن أقص الأثر ؛ وربما لأنى حكيم أقدر لرجلى – كما سمعت الأستاذ يقول – قبل الخطو موضعها . عينى لمحت على الرصيف شيئا يبرق فيه أصالة وشخصية . إنحزت إليه ، إنحنيت فالتقطته ، فإذا هو لفظ الجلالة مصنوعا من الذهب يبدو أنه وقع من سلسلة كانت تعلقها امرأة فى رقبتها . رأيت الدمغة بارزة فى ركن منه . فتحت محفظتى وخبأته فى جيبها السحرى الصغير ، ناويا أن أظل أسبوعا كاملا فى حالة انتباه لكل من يبحث عن شئ ضائع لعلنى أعثر على صاحب هذه القطعة فأعطيها له ؛ فإذا لم أجده فإنها تصبح من رزقى .

وذات أصيل تال خرجت من صلاة العصر فى يوم يقطر فيه النهار عذوبة خريفية مع أنه ينتهى بسرعة ؛ لكن رصيف القهوة يسبح فى الظل والطراوة . رأيت الأستاذ فارشًا ترابيزته لصق كشك الصاندويتشات بتاع إبراهيم الحواوشى فى أقصى الرصيف . كان منشغلا فى الكتابة ، والمعلم إبراهيم الغول صاحب القهوة يرص له حجر الشيشة ..

– «سلام عليكم» .

– «أهلا عم أحمد» .

هكذا رد إبراهيم الغول . أما الأستاذ فقد رفع رأسه فى شئ شبيه بالتوتر ، وتمتم :

– «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته !»

وانكب على الكتابة . فسحبت كرسيا وزحفت به قليلا بحيث أكون معهما ووحدى فى نفس الوقت . جاءتنى الشيشة مع الحجارة فالشاى ، وبقيت فى

انتظار النار . ثم لاحظت أن المعلم الغول قد التحم مع الأستاذ فى حوار مسموع ؛ فهمت من كلامه على الطاير أن الغول قد ضاع منه شئ ما ، وأن الأستاذ يشككه فى العثور عليه مادام قد مر على ضياعه بضعة أيام خصوصا وأن نمم الناس خربت هذه الأيام وأصبحت تفضل السرقة فما بالك إن وجدت شيئا على الأرض ؟! ..

ملت برأسى نحوهما مناديا :

- «عم تتكلم يا معلم إبراهيم ؟ ضاعت منك حاجة ؟!»

إعتدل إبراهيم ، صار يشرح لى ملوحا بذراعيه ورأسه وكتفيه كعادته إذا تكلم:

- «بنت بنتى ربنا يخلى لك عندنا هذه الأيام ! أعطتنى سلسلتها الذهب مقطومة وقالت يا جدى إعطها لصايغ من صحابك يلحمها ! نويت أن أغيرها لها بواحدة جديدة كبيرة ! وضعتها فى جيبى ! الله أعلم إن كنت سحبت من الجيب شيئا فسحبها معه أم أننى وضعتها فى ثنية الصديرى ظنا أنه الجيب ! المهم أننى لم أجدها ! أصبحت فى ورطة !»

فتحت محفظتى ، سحبت لفظ الجلالة منها وقربته من إبراهيم .

- «تشبه هذه ؟!»

فأضئ وجهه وامتلأ بالدم والإشراق ، وصاح :

- «الله يعمر بيتك يا عم أحمد ! هى دى ! بس ناقصة السلسلة !»

- «لم أجد غير هذه ! هناك أمام المبولة !»

- «بس بس بس ! مضبوط ! توضأت فى المبولة وأثناء خروجى نزعت المنديل من جيب الصديرى لأنشف وجهى ولابد أن المنديل سحبها معه ! الحمد لله على كل حال !»

وإذا بالأستاذ يرفع عينيه عن الورق ويرسل لى نظراته المتأملة من فوق عدستى النظارة النصف كم ، أقصد النصف عدسة . طالت نظراته كأنه يريد أن يحفظ شكلى عن ظهر قلب ، وأخيرا أشار لى بيده قائلا :

– «تعالى هنا يا راجل أنت !»

وأشار إلى كرسى بجواره :

– «قاعد لوحدك بعيد ليه ؟ ضم !»

وقال إبراهيم وهو يوسع لى :

– «تعالى يا عم أحمد !»

وإذا به يقوم عن كرسيه مشيرا لى أن أجلس عليه ، ملوحا بيديه وذراعيه وكتفيه ورأسه ، بما معناه أننى يجب أن أجلس مطرحه لأقوم بنفس المهمة للأستاذ . وحين قال الأستاذ : ضم ، كانت هى الضمة ؛ من لحظتها لم ننفصل مطلقا طوال ما يقرب من عشرين عاما ؛ نلتقى يوميا على القهوة من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب ، ومن بعد صلاة العشاء إلى قرب منتصف الليل .

حب الأستاذ سكن قلبى من جواه ، عشش فيه ، أصبح الأستاذ كأنه أنا وقد تثقفت ؛ كما أصبحت أنا هو ، فى السوق أتكلم مع الزبائن كما يتكلم هو مع رفاقه على الترابيزة ؛ كما أنه كان كثيرا ما يشرفنى فى السوق ليقف معى على الفرش ليفك الاشتباكات بينى وبين الزبائن ، ولا يأنف من مساعدتى فى صنع القراطيس من ورق الأسمنت ؛ فيصير منظره مفرحا يبهج القلب الحزين ، إلا أننى أظل طول الوقت حاملا هم بذلته النظيفة ، أكاد أحنى ظهرى لأجعلها دكة يقعد فوقها بدلا من الدكة الخشبية الزفرة المغبرة المليئة برؤوس مسامير خبيثة .

كل أصدقاء الأستاذ أصبحوا أصدقائى وحبايبى . فى الأول كانوا يتحرجون عندما أشترك فى الحديث ، ويعتقلون ابتساماتهم الساخرة فى أحناكهم المدرية ، وعيونهم تقول إننى فى نظرهم واحد بتاع سمك صعيدى قحف ، فيتأهبون للضحك فى انتظار ما سأفوه به ، لكنهم حينما لاحظوا أن الأستاذ يعاملنى بندية واحترام أصبحوا يفعلون مثله . ثم أصبحوا يكبدون أنفسهم مشقة الخوض فى حارة العجوز سيرا على الأقدام للسهر معى فى بيتى ؛ فى كل وفى غير مناسبة .

فجأة يا بو العم اكتشفت إننى صرت مثقفا ؛ أتكلم فيما يتكلمون فيه ، وبنفس المفردات التى تعلمتها منهم واستجليت لى معانيها على أيديهم . كلام فى

السياسة وفى الشعر والتمثيل والإخراج والروايات ، وفى كافة أمور الحياة . كان الأستاذ – الله يكرمه – قد أحسن فى تقديمى لهم وفرض شخصيتى على مجلسهم . الحق لله كان يصفنى بأوصاف تبهرنى ، وتعرفنى بنفسى ، من قبيل أننى رجل شفاف ، متكلم ، عندى معرفة إنســانية كبيرة ، عندى تجارب عميقة فى الحياة ، عندى خيال خصيب ، عندى تصور ســـليم وشبه دقيق للأشياء والأحداث غير المرئية ، عندى استعداد فطرى لتحليل الوقائع التاريخية والمسائل السياسية المعقدة التى قد يعجز دونها بعض المثقفين ، عندى إحساس صوفى صادق حيث جاءتنى التوبة على كبر فكانت عميقة مكثفة مسحت كل ذنوب الماضى، عندى قدرة على الحكى الشيق والتعبير عما أقصده ببساطة وبلاغة شعبية موجزة ، عنــدى وعندى وعندى كل ذلك وصفنى به الأستاذ لأصـدقائه ليلة بعد ليلة حتى طلعت فى دماغى وأصبحت أؤلف شعرا على نسق أشعار ابن الحداد ، بل امتثلت لولدى محمد كى يعلمنى فك الخط لأقرأ الجرنان ؛ وأصبح عندى كراسة أدسها تحت المخدة لأخط فيها ما يطرأ على بالى عند الشروع فى النوم ؛ وكلها مواويل فى حب الأستاذ وصحبته .

طوال شهر رمضان من كل عام يختار الأستاذ مجموعة كتب فى التصوف أو فى التاريخ الإسلامى أو فى تفسير القرآن ؛ ثم ننزوى معا فى ركن قصى على الرصيف ما بين العصر والمغرب ، فيقرأ الأستاذ وأنا أستمع بشغف كبير . صدقنى يابو العم أن هذه الكتب ليست صعبة الفهم أبداً وإن كانت ذات لغة مجعلصة غليظة صادمة . أنا لم أدرس اللغة أى نعم ، ولكننى قد أنست لهذه المفردات صاحبتها وصاحبتنى صادقتها فصادقتنى من كثرة ما قرأت بها القرآن الكريم فى الصلوات واستمعت إليها على حناجر الشيخ رفعت والشيخ مصطفى اسماعيل والشيخ عبد الباسط وغيرهم وهى حناجر حين تقرأ لابد أن يفهم عنها حتى الحمار . ثم إننى من شدة حبى لأن أعرف وأفهم صرت أعرف وأفهم كل المعانى بالسليقة وحين يراجعنى الأستاذ فيما فهمته مما سمعته وألخص له ما وصلنى كان ينبهر ويفرح لأننى فهمت «لب» الموضوع .

بفضل الأستاذ وصحبته استطيع أن أحدثك عن أبى حيان التوحيدى ومحيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى والجاحظ والقلقشندى وابن تغرى بردى وابن إياس ، وأن أكلمك عن المسرح والمسرحيات ، والسينما والأفلام وأسباب الكساد المحيق بالاثنين ، أن أكلمك عن الأزمة الإقتصادية ، عن جورياتشوف الجدع العترة ولد الفتوات المغامر أبو مخ طاقق مع الأسف لأنه جاء يكحلها فعماها ،، صرت أنا والأستاذ كيانا واحدا فكرا برأسين ملتحمين يتبادلان اللقاح ، هو يصب فى رأسى فكرا وعلما وثقافة ، وأنا أضخ فى قلبه سوق منشية ناصر بكامله ، وحارة العجوز والصعيد الجوانى .

ولأن الأيام لا تترك الواقف واقفا ولا القاعد قاعداً فإنها أخذت الأستاذ منى مرة واحدة ، فى موال طويل ، من شقة آيلة للسقوط فى المعادى ، إلى شقة شعبية من شقق الحكومة فى مدينة السلام البعيدة إلى بنت فى الثانوية العامة ولابد من بقائه فى مواجهتها على الدوام حتى لا تغفل عن المذاكرة ، إلى واحد فى الإعدادية، وآخر فى الإبتدائية ، إلى زوجة أرهقت وباتت فى احتياج لمعاونته . سيارته الفولكس الخنفساء القديمة ثقل الحمل عليها من ماسبيرو إلى المعادى إلى مدينة السلام إلى قايتباى ، فأصبحت تسير يوما وتتبطل عشرا : أخلت ببرنامج الأستاذ كان الله فى عونه لا يجىء إلى قايتباى سوى مرة أو مرتين فى الأسبوع ، وعلى الطاير ، لا يكاد يرانى . بصراحة لم أكن علمت بهذه التفاصيل ؛ وفى ظنى أن الأستاذ حكاها لى ذات مرة ولكن يظهر أنى كنت مسطولا سطلاً ثقيلا فلم أحسن الاستماع بل نسيت حتى ما استمعت إليه .

ترك الأستاذ فى حياتى فراغا قاتلا ، أفقدنى توازنى والله يابو العم ، صرت كالتائه منه طفل صغير يبحث عنه ؛ أو كأننى ذلك الطفل نفسه ضاع فى متاهة لا يعرفها . الدنيا كما تعلم يابو العم دنيئة ، مليئة بالردىء كما هى مليئة بالجيد .

الرداءة – قاتلها الله ونجانا منها – جرثومة سريعة التكاثر أنشط من الصوت والضوء معا ؛ يكفى أن يمر على القعدة شخص ردىء لتجد أن رائحته – على الأقل – قد انتشرت فى جميع الأنوف كالأوانى المستطرقة ؛ فما بالك لو جلس معنا ، لو اندمج فينا ؟ لابد طبعا أن يتسرب العطب إلى كثير من نفوسنا ؛ ليس فى البقع التى لاصقته أو لامسته فحسب ؛ بل فى جميع أنحاء النفس ..

فجأة يفيق الواحد منا بعد حين فيجد نفسه يتصرف مثل فلان الفلانى ، تصرفات نتنه ، صار يفكر بطريقته ، يتكلم بألفاظه .

نعم يابو العم ؛ السوقية أشد الأمراض فتكا وانتشارا . والمصيبة أنك لا تعرف كيف تتقيها ، تتحاشاها ، تتلاشاها ، تتجنبها ؛ لأنك لست تذهب إليها فى كل الأحوال ، إنما هى ، فى كل الأحوال ، تزحف عليك من حواليك ، تتسرب ، تتسلل فى صورة جميلة براقة أحيانا ؛ فى خفة ظل أحيانا كثيرة لأن السوقية دائما أبدا خفيفة الظل ، فى قناع من الأهمية الزائفة تارة ، فى سبيكة من الإدعاء المتقن تارة أخرى ؛ فى ولد لطيف خدوم يبدو وديعا طيبا غلبانا ؛ فى واحدة تجيد رسم المقهورة المظلومة المحتاجة للمساندة حفاظا على شرفها ؛ فى رجل ناعم جلياط يريد أن يعيش سفلقة فيتطوع بتقديم الخدمات المجانية أول الأمر ثم يختص بها بعد ذلك من يدفع أكثر من يملك القوة والنفوذ ليتحول بعد ذلك إلى جرثومة تخرب بنيان عمارة كاملة . هذه الصور كلها يابو العم هى السوس الذى يأكل الصداقات ويخرب العلاقات الطيبة ثم يندار على نفوس أصحابها فينخبها من الداخل من الأساس حتى لا يبقى فيها متسع لنبض حياة .

مثل هذا السوس يابو العم دخل فى قعدتنا لا ندرى كيف . فعيب قعدة أمثالنا من الأصفياء الطيبين أنها مفتوحة إلى حد كبير . تسرب إليها لون معين من الناس على شىء من الثقافة والموهبة لكنهم ليسوا من الأصفياء ولا من الطيبين ،

يعنى من فصيلة السوس . الواحد منهم دائم الكلام فى المبادىء وهو بلا مبدأ أصلا . نفوسهم خراب فى خراب . إذا اختلى بك أحدهم وقتا ولو قصيراً سوّد الدنيا كلها فى وجهك وزرع الشك فى نفسك تجاه كل شىء باسم الثقافة والتحليل النفسى والطبقى والماركسى ومثل هذا الكلام الخنفشارى الذى كان الأستاذ يكرهه ولا يعطيه أى انتباه .

فى الأيام التى غابها الأستاذ عنى – وما أطولها – صرت أسهر وحدى فى البيت أشاهد برامج التليفزيون مع حجرين على الشيشة ؛ فما أن تنتهى نشرة التاسعة حتى أدخل سريرى لأغرق فى النوم . الأصدقاء الأصفياء الطيبون كانوا يمرون على المقهى فلا يجدون الأستاذ فينصرفون ؛ فإن قابلتهم صدفة دعوتهم إلى بيتى لعمل الواجب معهم ؛ وفى العادة يأتون على استحياء . أما السوس الذين يلتصقون بهم أينما ذهبوا فإن جرأتهم فى الاقتحام لا مثيل لها ؛ يطرقون بابى فى أوائل الليل وأواسطه ؛ فلا أجد مفرا من استقبالهم لكنهم قساة لا يراعون ظروف نومى وصحوى مبكرا للمسواق . يجلسون معى لساعات طويلة . لا حديث لنا سوى الأستاذ . لا أعرف لماذا هو دائما محور الحديث : الأستاذ قال ؛ الأستاذ كتب ؛ الأستاذ نشر ؛ الأستاذ باعك ياعم أحمد وفرط فى صداقتك ؛ أخذ منك ما يريد وزبلك فى صفيحة القمامة ؛ الأستاذ – على فكرة – يحتقرنا كلنا ؛ يضحك علينا ليستفيد منا ؛ يضعنا فى قصصه ورواياته ومقالاته ويكسب من ورائنا ؛ الأستاذ بخيل جدا ؛ لا بل ونتن ؛ لقد فعل وفعل وفعل ! .. أما علمت ؟ .. يوه .. أما سمعت ؟ ياه .. هات أذنك ..إلخ إلخ .

السوس الذين يجيئون عادة مع قدامى الأصدقاء هم البادئون دائما بالنخرية ، وبتنشيط القعدة بفتح مواضيع موروبة خبيثة تفتح الشهية للنميمة ، وليس أشهى عندنا نحن المصريين أبناء هذه الأيام من حديث النميمة بجميع أنواعه على جميع

مستوياته منذ أن حرم علينا الكلام فى السياسة ودبت فى أوصالنا جراثيم الخوف والتوجس من بعضنا البعض ..

السوس يابو العم ليسوا بالضرورة الأتباع الجرابيع الإمعات المطيباتية العاملين بأكلهم وشربهم ؛ بل كثيرا ما أفاجأ بهم فى مراكز كبيرة جداً ؛ بأسماء ضخمة تهز الأذن بوقعها الرهيب . شخصيات من المفروض أنها محترمة ونظيفة وكبيرة على صغائر الأمور أفاجأ بهم يابو العم سوسا خبيثا مؤلما ، سوسا مثقفا يابو العم ؛ ليس كالسوس البدائى الغشيم يبدأ الإختراق من السطح فيحفر لنفسه مجرى فى العظم وصولاً إلى لب اللب ؛ لا يابو العم هو سوس مثقف فنان ينذب فى قلب اللب دفعة واحدة كأنه يستخدم الليزر فى شحنك ضد صديق أو ضد بلد ؛ بكلمة واحدة أو كلمتين تتشوه فى نظرى صورة صديق عزيز كالأستاذ . بكلمة أو كلمتين تهتز ثقتى فى أشياء كثيرة راسخة . فأنا فى النهاية أقل من أقلهم ثقافة وفهلوة وتلويعا وتأويلا وغمزا ولعبا بالبيض والحجر . لا يابو العم فأنا صعيدى واضح ودوغرى ولا أعرف شيئا من هذه المواهب الشيطانية .

يخيفنى السوس الصغير أكثر . أما السوس الكبير فقد تمرست به فصرت أحذره وأحصن نفسى ضد قوته الكاسحة بأن أسد أذنى عما يقولون إذا جاءت سيرة الأستاذ ؛ على عكس ما كان يحدث من قبل حين كنت أبتهج إذا جاءت سيرته ، على رأى أم كلثوم ولما أشوف حد يحبك يحلالى أجيب سيرتك وياه ؛ لكن جسمى كش منهم ومن مرافقيهم المتجددين باستمرار . مع ذلك كنت أستقبلهم فى بيتى . عقلى الصعيدى ليس غبيا كما تتصورون ؛ كثيرا ما قال لى : خل بالك يأحمد فهؤلاء الولد يستكردونك كل هدفهم أن تسقيهم حجرين . ولكى يعملوا بشربهم فإنهم يشتمون الأستاذ لصالحك ظنا منهم أن شتيمة الأستاذ ترضيك ! .. فكنت أرد على عقلى قائلا : لا يابو العم ليس هذا يرضينى إنما أنا أستمع إليهم لسبب مهم ، هو أننى أريد أن أفهم – من خلال كلامهم – حقيقة ما إذا كان

الأستاذ قد استفاد منى أم لا ؛ فإن كان قد استفاد حقا كما يقولون فإننى حينئذ يجب أن أفرح بنفسى لأننى رجل مفيد لكبار القوم المستنيرين المقتحين . فيقول عقلى : وهل تراك فهمت وفرحت ؟ فأقول له : لا يابو العم ! كلامهم فى الأول كان يفرحنى ويرضى غرورى ! لكننى أصبحت أحتقر كلامهم عندما شعرت وفطنت إلى أن المقصود هو تشويه صورة الأستاذ وليس تمجيدى ! فأنا مجرد عصا يمسكونها ليضربوا بها ظهر الأستاذ لأنهم يغارون من نجاحه الذى حققه – كما أفهمنى ذات يوم – بعيدا عن الأحزاب والتنظيمات السياسية التى تلمع كتابها وتمجدهم ليل نهار على الفاضى والمليان . ولا تنس – أنا أقول لعقلى – أن هؤلاء الولدان كانوا ينجحون فى الضحك على عقلى بوسائل يصعب على مثلى مقاومتها، كان يدخلون علىّ بكاميرات التليفزيون أو ميكرفونات الإذاعة أو مصورى الصحف ومعهم مذيعات ومحررات ويتحدثون معى باعتبارى مصدرا من المصادر التى يستقى منها الأستاذ بعض إلهاماته ، وشيئاً فشيئاً يدخلون فى تفاصيل محرجة إذ أشعر أنهم يجرجروننى بصنعة لطافة لكى أتهم الأستاذ صراحة بأنه سرقنى وتاجر بحياتى . تحت تأثير الحجرين كنت أسترسل فى الكلام ولكن بعيداً عن الإتهامات ؛ أحكى لهم نفس الحكايات التى كنت أحكيها للأستاذ عن حياتى حيث كان يأخذ منها بعض الملامح لينتيها فى بحر أوسع من قنواتى ؛ وكنت أشعر أن هذه الحكايات لم تترك فيهم ما تركته فى الأستاذ من أثر ؛ إما لأنهم لا يملكون عقل الأستاذ وبالتالى لم يفهموا منها ما فهمه هو ، وإما لأن حكاياتى فى الأصل قديمة وغير مثيرة ؛ لكننى كنت على ثقة من أن الأستاذ هو الوحيد الذى يتذوق حكاياتى ويتأثر بها لأن قلبه مفتوح على قلبى ولأنه داخ فى الحياة مثلى وجرب ما جربته من آلام وتشرد . الأكادة يابو العم أن طائفة من السوس الصغير الذى يعيش على الفضائح وما يسمى بالخبطات الصحفية المثيرة جاءونى ذات ليلة ومعهم شخص مهوش الشعر لم أسترح لعينيه الواسعتين الصفيقتين ؛ طويل رفيع

لكن كرشه ممدود أمامه كقدرة العرقسوس ؛ قالوا لى أنه كاتب مشهور واسمه .. اسمه .. اسمه .. حاجة فيها الزبير أو شىء من هذا القبيل أشار إلى واحد معه لم أكن رأيته من قبل ، وقال إنه محام وإنه على استعداد لأن يرفع باسمى قضية ضد الاستاذ . اغتظت منه ، واحتقرته ، ولولا أنه ضيف فى بيتى لطردته شر طردة ، لكننى قلت له ساخرا : كم من الأموال تظن أن المحكمة تحكم لى بها ؟ عشرين ألفا ؟ خمسين ؟ مائة ؟ لقد صرفنا أنا والأستاذ أضعاف هذا المبلغ على دماغنا وحده فى لحظات سعادة ووئام . فى نفس الليلة حضر الممثل محمود ، الوحيد الذى ينافسنى فى حب الأستاذ ، والوحيد الذى أحترم كلامه وأصدقه كله؛ قال لى فى نبرة صدق وإخلاص :

– «ياعم احمد ! هؤلاء الخبثاء يعيشونك فى وهم ولسوف تخسر صديقك الوحيد الذى يحبك ويحترمك بصدق وصفاء لا يعرفه هؤلاء ! إن حكاياتك التى حكيتها للأستاذ لا تقدم ولا تؤخر بالنسبة له ! إن الحكايات على قفا من يشيل : ملقاة على قارعة الطريق ! وأى رجل مجرب مثلك وما أكثرهم فى الحياة يستطيع أن يحكى للأستاذ ولغيره مئات من حكايات أعمق وأهم من حكاياتك الطريفة ! والأستاذ بالتأكيد يعرف الكثيرين غيرك ويستمع إليهم مثلما يستمع إليك ويأخذ منهم مثلما يأخذ منك ومن غيرك ! إن العبرة ياعم أحمد ليست بالحكايات ولا بالتجارب ولكن بالقدرة على كتابتها واستخلاص المفيد منها !! وكونك حكيت للأستاذ بعض الحكايات وصاغ من بعضها بعض المشاهد أو القصص أو حتى الروايات لا يعطيك أى حق عنده ! لأنك أنت نفسك بكل حكاياتك ! أنت وغيرك من الناس مجرد مادة خام تدخل فى معمله فيصهرها كلها ويضيف إليها كيماويات فنية ثم يصبها فى قصص وروايات ومسرحيات ! وأتحداك أن تضع يدك على شىء منها وتقول هذا أنا ! لأنه حتى لو أراد أن يكتب قصة حياتك كما حدثت وباسمك المدون فى شهادة الميلاد فلن تجىء القصة قصتك فى النهاية ! لابد أن

تختلف اختلافا كبيرا !! بل أن الأستاذ نفسه لو كتب قصة حياته هو نفسه كما حدثت له فلابد أن تختلف القصة عن الأصل الواقعى لأن الخيال يتدخل فيضيف ويحذف ويبتكر تبعا للمغزى المراد توصيله !! هذا هو الفن ياعم أحمد كما نتعلمه فى الأكاديميات والمعاهد ! والفنان الحق هو من يملك القدرة على إعادة صياغة الواقع فى صورة مختلفة عن الأصل تكون أكثر تعبيرا عن الواقع ! الدليل على ذلك ياعم أحمد أنك حكيت حكاياتك هذه كلها عشرات المئات من المرات أمامهم جميعا ولا تزال تحكيها هى نفسها فهل كتبها واحد منهم أو حتى استفاد بها فى عمل فنى كما فعل الأستاذ ؟! . إنهم يحقدون على الأستاذ ويلعبون بك باعتبارك الطرف الأضعف أما الأستاذ فلا يقتربون منه إلا لكى يسمعوه كلامك الذى سجلوه عليك ويتخذون منك مادة للضحك والسخرية !! . إعقل ياعم أحمد ولا تخسر الأستاذ بالمجان ! ثم إنك لابد أن تفهم أن الأستاذ ليس عضوا بمجلس الشعب لكى تطلب منه خدمات كأن يذهب معك إلى قسم الشرطة مثلا أو إلى رئاسة الحى أو أى جهة يكون لك فيها مصلحة ! ، أنت لا يجب أن تزعل منه إذا لم يفعل لك شيئا من هذا لأنه بكل بساطة لا يستطيع أن يكون وسيطا فى مثل هذه الأمور كما أنه لا يضمن أن من سيذهب إليه سيعطيه حقه من الاحترام الواجب وينفذ له ما يطلب !!» .

كلام الولد محمود عشش في نافوخي يابو العم ؛ فهمته واستطعمته فوجدته عين العقل . شعرت بأننى محقوق للأستاذ شعرت باشتياق شديد إليه . منامات كثيرة جدا رأيتها فى فترة غيابه وأريد أن أحكيها له قبل أن تتبخر من دماغى ؛ لأجد لديه دائما أبدا تفسيرات مقنعة لها ، وأجد فى تفسيراته تلك تنوير النفس وفهما لما لم أكن أفهمه فى نفسى من قبل . إشتقت إليه والله يابو العم ففى حضوره توسيع لمداركى وعينى وأما فى غيبته فلا حكى ولا كلام ولا حياة ولا أى شىء سوى الشعور بالوحدة والكآبة ؛ وما بقى من العمر لا يسمح بصداقات

جديدة متينة كصداقة الأستاذ الذى منحنى موهبة الحضور بين المثقفين أعاد صياغتى صيّتنى أدخلنى التاريخ أنا وحرمى وعيالى وأهلى فى حين أكل منى السوس ما أكل ونخرب فى كل جانب من جوانب علاقتى الطيبة وخرب فى قلبى مناطق وأصاب نفسى بالكثير من العطب .

أفقت من هذه الهلوسة مع نفسى فوجدتنى قاعدا على رصيف مقهى الغول ؛ فى نفس المربع الذى كان يهواه الأستاذ ، ظهرى لكشك الحواوشى ووجهى فى اتجـــــاه الدحديرة تحت القبوة الأثرية التى يجىء منها الأصدقاء راكبين أو راجلين ..

الوقت كان أصيلا ، وقد استسلمت للوهم اللذيذ بأن الأستاذ لابد آت كعادته فى مثل هذا الوقت . كل سيارة فولكس بيضاء تطل من تحت البوابة تنفض قلبى نفضا فى انتظار أن تركن السيارة بحذاء الرصيف وينزل منها الأستاذ لينصب القعدة ويهل الصحاب والأحباب كلما أقبل المساء . ورغم تأكدى من أن الأستاذ قد انقطع عن المجىء إلى القهوة إلا فى زيارات خاطفة متباعدة بعد أن ضاق بعشرة السوس وطفش من أكلانه ونخريته ؛ فإننى مع ذلك كنت على يقين بأنه لابد أن يعاود المجىء فى يوم من الأيام لنستأنف سيرتنا الأولى خاصة أن هذا المكان بأهله بروحه قد بات جزءاً من ميراثه وكل حاضره . كذلك أنا واثق بأنه لن يفرط فى صداقتى مطلقا وهذا ما يتأكد لى يوما بعد يوم .

الآن فحسب تبين لى أننى تطوحت كثيرا وترنحت بعيداً عنه بفعل سم السمامين الناقصين حتى كادت تأكلنى الذئاب . قلت فى عقل بالى : أنت الذى أهملت أمر العلاقة وتخيلت أن صحبة السوس البراق تغنيك عن صحبة الأستاذ وكان يجب أن تقدر ظروفه وتسأل عنه بدلا من أن تضع ساقا على ساق وتنتظر أن يجيئك لحد عندك مثلما يفعل السوس ممن لا هدف لهم سوى البحث عن قعدة آمنة وحجرين بالمجان .

إنهمرت فى الحال دموعى يابو العم . تركتها تفعل مشتهاها حتى شعرت بأن قلبى قد ارتوى جيداً من نهر الدموع فلم يترك دمعة إلا شربها لدرجة أننى حين مددت المنديل لأجفف به عينى لم أجد فيهما ثمة من دموع . لكن الصفو فى عينى كان رائقا . صارت نظراتى تتنقل بحرية كأننى كنت محبوسا فى قمقم كئيب عفن الرائحة وطلعت منه لتوى . لكن نظراتى ما لبثت حتى تجمدت . إنتفض قلبى كعصفور أصابته نبلة . نشف ريقى كأن الدماء كلها قد انسحبت من عروقى . تشككت فى صحوى ؛ مررت كفى على عينى وفتحتها من جديد لأرى نفس ما رأيت . صفقت طالبا محمود النصبجى ليوافينى بحجر على الشيشة وكوب شاى..

إلى أن جاءنى ما طلبت كنت لا أزال أحملق فيما رأيت مسلوب الإرادة غير قادر على الإفصاح . لقد رأيت الشجرتين اللتين سبق أن رأيتهما فى المنام منذ سنوات طويلة مضت ، فى نفس المكان فى أعلى الرصيف على تخوم الحارة الفاصلة بين المقهى ودكان سيد النجار . نفس الطول ، نفس النوع ، نفس الوضع: واحدة عفية طالعة عريضة الفروع فصيحة مشرقة راسخة فى الأرض بقوة .. أما الأخرى فطويلة مهزولة هفتانة خفيفة الشخصية تتمايل – وجعاً لا طرباً – إذا مر بها النسيم فما بالك لو عصفت بها ريح . كان من الواضح أن جذرها غير متمكن من أمه الأرض جيدا ، وأنها مصابة بعطب ما . ياسبحان الله ، نفس المنظر الذى شاهدته فى المنام يتكرر بحذافيره حيث الشجرة الطويلة تكاد تنكسر من شدة الميل هنا وهناك ..

بما أننى أفهم فى الزرع وفى الشجر بوجه خاص عرفت فى الحال محنة هذه الشجرة : لقد تلقت كمية هائلة جدا من المياه القذرة وهى بعد لم تتجذر فى الأرض ؛ فالإغراق كالجفاف كلاهما يميت الشجر بالذات . سوء حظ هذه الشجرة أنها فى ملقف ؛ لأنها أقرب إلى الجالسين على الرصيف من الأخرى بمقدار

معقول . من هنا جاءتها النكبة ؛ ما يتبقى فى الدلو من ماء الرش يدلقه الولد فوقها فيتجمع الماء القذر فى الحوض المصنوع لها من حجارة الرصيف ؛ إذا أراد زبون تغيير ماء الشيشة يدلق ما فيها من ماء مصتن فى الحوض ؛ إضافة إلى أعقاب السجائر . على أن أكبر نكبة منيت بها هذه الشجرة كما يبدو لى هى أن جذرها لابد أن يكون قد اصطدم بفراغ تحته خاصة أن هناك سراديب قديمة تحت هذه الدحديرة إضافة إلى بئر قيل إنه كان مخصصا لساقية مسجد قايتباى لزوم الوضوء ..

ناديت محمود النصبجى وسألته :

– «متى زرعتم هاتين الشجرتين يامحمود ؟! »

– «من شهور طويلة ياعم أحمد !» .

– «عجبا ! لكنى لم أرهما من قبل أبدا !» .

– «سلامة الشوف ياعم أحمد !» .

من شدة حزنى على هذه الشجرة وتعاطفى معها طقت الصورة فى دماغى فأطلقت صرخة مدوية كانت أشبه بالموسيقى التصويرية للقطة سينمائية ذات دلالة عميقة . هذه الصورة التى طقت فى دماغى يابو العم هى أن هذه الشجرة المشرقة الراسخة قد تشابهت فى نظرى مع الأستاذ: ضاربة إلى القصر مثله ، ملآنة مثله، منسقة محبوكة مهندمة من تلقاء ذاتها ضاحكة الوجه مثله . وبناء عليه يابو العم فإننى أكون هذه الشجرة الثانية التى تسلط عليها السوس البشرى فأغرقها بمياه عطنة مليئة بالأقذار حتى تقزز جذرها وصارت قريبة من الذبول . حقا يابو العم ما أشبهنا كلانا بهاتين الشجرتين زرعتا على أرض الصداقة والمحبة وتسلط الناس على واحدة منهما فزعزعوها ..

قلت فى عقل بالى : هذا هو الإلهام بعينه . لقد هيأ الله لى هذه الشجرة فى المنام وفى الصحو لكى ينبهنى ، بل يحذرنى بأننى يمكن أن أصير مثلها إذا بقيت

أتلقى سموم السوس وأهمل فى الاتصال بالأستاذ . انتفضت واقفاً ؛ لقد قررت أن أفرض عنايتى على هذه الشجرة . وفى الحال قال لى عقلى : بل إن شجرة الصداقة هى الأولى بالرعاية ياتخين المخ ! قلت : وجب ! قال : ثبت جذرك فى أرض الصداقة ! لقد نخرب السوس تحت جذرك فزعزعوك ! ولكن بمجرد اتصالك بالأستاذ تعود الأرض القديمة تحت قدميك .

وفيما كنت أغادر المقهى كنت موزعاً بين رغبتين ملحتين تطلبان التنفيذ الفورى: أن أبحث عن صلابة أربط فيها الشجرة لتمنعها من التهاوى ؛ وأن أستوقف سيارة أذهب بها لزيارة الأستاذ فى بيته الذى بدا لى - لأول مرة - أقرب مما كنت أتصور .

الرجل الطائر

كأننى لا أزال صبيا فى حوالى السادسة عشرة من عمرى ؛ وكأننى لم أخرج من بلدتنا كوم سعيد ، ولم أرحل إلى أسيوط ثم إلى القاهرة لأصير سماكا مشهوراً . رأيتنى قادما من سرحة غامضة لعلها واحدة من سرحاتى بين الغيطان والأجران لسرقة شيء من المحاصيل يأكل منها إخوتى . إذا بى أمام عشة مبنية بالطوب الأحمر كدار لماكينة مياه تحفظها ويبيت فيها خفير . هذه الماكينة بالذات كان يحرسها أبى منذ عدة سنوات قبل موته ؛ وفى هذه العشة كنت أقضى الليل معه . أعرف العشة جيدا ولكن ما كل هذه الأملة التى صارت فيها ؟ لقد غفقت بالأسمنت والمونة وتلونت بيوية الزيت الحمراء وارتفعت جدرانها وأحيطت بعناقيد من اللمبات الكهربية الساطعة– مع أن بلدتنا لم تدخلها الكهرباء – فصارت العشة غارقة فى بحر من الضوء الخلاب ؛ فلابد أن شيئا مهماً وجليلا يحدث فيها الآن ؛ لابد أن أشوفه . درت حولها لأنحشر بين الداخلين من الباب ، فإذا على الباب خفير نظامى بلبدة ذات نحاسة صفراء والبندقية معلقة فى كتفه . حملقت فى وجهه فإذا هو أحمد أبو ضيف أحد أصهارنا فمتى أصبح خفيرا نظاميا وعهدى به رجل مخريشاتى ابن ليل ممن نقلدهم أنا وصبيان حارتنا ؟! كان ممسكا بالخيزرانة يطارد بها العيال . نالتنى عصاه من بعيد بلسعة خفيفة . غافلته وتسللت إلى الجدار الخلفى الملاصق للزراعة . أخذت أدحرج قطعا من الحجارة الكبيرة حتى تمكنت من وضع حجرين فوق بعضهما . أتيت بدلو مخروم القعر ، قلبته فوق الحجر ، رصصت فوقه قوالب طوب كانت مرمية ، تسلقت كل هذا ؛ شببت على أطراف أصابع قدمى ؛ مددت ذراعى عن آخرهما فطالت يداى حافة الجدار ؛ قبضت عليها جيدا ؛ نترت جسدى لأعلى نترة قوية ؛ عافرت بساقى حتى صرت باركا فوق الجدار ، لأفاجأ بما لم أحسب حسابه : للعشة سقف مصبوب بالبُتُنْ . فى نفس اللحظة رأيت أحمد أبو ضيف واقفا تحت الجدار هاتفا فى تحذير عائلى :

– «جدك الحاج محمد جاى حيقتلك إنت حر بقى !!» .

هو الآخر لم أحسب حساب كرباجه الذى يشرخ جلدى كلما وقعت تحت يديه . ركبنى الرعب ؛ إنكمشت على نفسى مستوحيا منظر القطة حينما تتجمع على نفسها لتلقى بنفسها من عل ؛ لكن جدى الحاج محمد ظهر بالفعل خارجا من حارتنا متجها نحونا وصار من الواضح أنه رآنى . بطنى سابت ، ما دريت إلا وشبح طائر فى السماء كطائرة تريد أن تقع فوقى . رفعت رأسى إليها مرعوبا ؛ فإذا هى رجل ضخم الجثة كفيل . كالرجل الذى يظهر على الشاشة فى الأفلام الأجنبية ويسمونه طرزان ؛ يفرد ذراعيه كجناحين . هبط بجوارى قائلا : «إركب!» طاوعته فى الحال ، ركبت فوق ظهره مطوقا عنقه الغليظ بذراعى . طار بى فى السماء ؛ صار يعلو ، يعلو ، يعلو ؛ حتى اختفت دور بلدتنا والأرض كلها لم يعد تحتنا وفوقنا إلا سماء فى سماء . الفزع من فوقى ومن تحتى وأنا أصرخ : فى عرضك أنزلنى فى أى مكان . صاح بى : تبطل شقاوة ؟ قلت : تبت ؛ فدفع بعنقه إلى الوراء فانفك تطويقى فصرت معلقا فى الهواء كخرقة تطوحها الرياح فى كل اتجاه . كان هبوطى بطيئا أول الأمر ثم أخذ يزداد سرعة حتى ارتطمت بالأرض فتكسرت ضلوعى وماتت صرختى فى أنة مكتومة . وإذا بى قد وقعت عن الدكة الخشبية التى أنام عليها فى حجرة أستأجرها فى حارة عتيقة فى أسيوط .

مرت شهور طويلة طويلة لا أنكر عددها ؛ تُبت فيها إلى الله عن كل معصية، تزوجت من بلدة (كوم اسفحت) على نقاوة عين أمى ؛ خلفت بنتين ؛ تركت الجميع فى دارنا فى كوم سعيد وصرت أرسل لهم حوالة بريدية كل عشرة أيام ، وأسافر كل شهر فأنام فى حضن زوجتى ليلتين ثم أعود إلى أسيوط أشوف شغلى . صرت أصلى الفرض بفرضه فى جامع سيدى جلال مع الناس المؤمنين الطيبين حتى نبتت لى زبيبة صلاة كالتينة المجففة . مسبحة طويلة فى يدى على الدوام ، على حباتها أشكر الله الذى هدانى . الرجل الطيب أحمد الشماع الفولى القماشى حط عينه علىَّ فانبسط منى ؛ أمانة وصدق وقناعة فى البيع والشراء ، ومقابلة كل أذان فى سيدى جلال ؛ فقال لى : «إفرش قدام دكانى ولا يهمك من أحد» . الله أكرمنى فى هذا المطرح، صارت الأشيا معدن .

ذات ضحى والسوق حابك والزبائن تحتاط بفرشي، جاءت إمرأة جميلة سبحان الصانع، تضع اليشمك على وجهها، لكن ، لا اليشمك ولا الملاءة اللف أخفيا تفاح وجهها ونظرة عينيها الساحرتين الواسعتين كميدان سيدى جلال، وجسمها الملوظ المحبوك المسبوك المصبوب فى قالب الهى جبار قلت لنفسى: كسبنا صلاة النبى نهارنا فل بإذن الله ومِلت نظرى نحوها أريد أن أمشيها قبل غيرها. كانت واقفة على مبعدة، تستند بكوعها على نحاس شباك الحاج أحمد الشماع، فلما تلقت نظرتى أشارت لى بذراعها البض الملآن بالأساور إشارة معناها: إستمر فى البيع واتركنى قليلا . فى نفس اللحظة كان هناك رجل ممن يصلون معى فى سيدى جلال كل فرض يقف فى مواجهتى على مبعدة ويرسل لى نظرات غريبة مخيفة غامضة . إحترت بينهما معا؟ لا هى تريد أن تتقدم لتشترى ولا هو يريد أن يسحب نظراته ويمضى لحال سبيله . أهملتها بطبيعة الحال واندمجت فى البيع حتى فرغت السبوبة إلا من حفنة تزن ثلاثة أرطال بالكثير وأنا أريد أن أجامل هذه المرأة بسمك يليق بها.

اختفى صاحبنا ذو النظرات الغريبة الغامضة، تباعدت الدقائق بين انصراف زبون ومجئ زبون، وليت وجهى نحو المرأة:

– «طلباتك ياست هانم؟»

اقتربت منى :

– «أنا فى الحقيقة عايزاك انت!»

– «خير يا ست هانم؟!»

– «أحب أعزمك على الشاى فى بيتى!»

– «بيته عامر ! أهلا وسهلا ! وماله!»

– «عندى مشوار لحد بنزايون ! مسافة ما أرجع تكون أنت خلصت البيع! أخذك لأريك بيتى! ولما تسمع أذان العشاء تكون عندى!!»

ومشت من غير أن تسمع ردى، وقعت أنا فى الحيرة أنا ثور هائج، والمرأة كالمهرة، وهى التى تدعونى بعين تندب فيها رصاصة. فرغت السبوبة كومت الجنيات ركنتها فى مخزن الحاج، حضرت المرأة أشارت لى من بعيد، تبعتها ، بعد شوارع كثيرة وقفت بى أمام باب حارة سد ضيقة، قالت إن بيتها آخر بيت فى الحارة على الشمال. إرتعبت، قلت لها إننى لا يمكن أن أدخل فى حارة سد وحدى قالت إنها ستتسلمنى من على باب الحارة عندما أجئ وتسلمنى إلى باب الحارة عندما أنصرف.

غسلت جسدى بصابونة معطرة، لبست الجلباب الصوف والشال الكشمير. إشتريت ربع قرش من الحشيش فركته على علبة سجائر كاملة، قطعة الأفيون ركنتها تحت لسانى تذوب على مهل . نطق المؤذن لصلاة العشاء : الله أكبر، فكأن مئذنة سيدى جلال بطولها وتخنها وقعت فوق صدرى. كتمت صرختى لكن المرأة كانت واقفة فى انتظارى. أمسكتنى من يدى ومشت بكل جسارة، دخلت بى آخر بيت على الشمال. فى فتحة الباب سلم، بجوار السلم حجرة صغيرة مضاءة بلمبة جاز نمرة خمسة مفروشة بحصيرة ومسند. دخلت وراءها إلى هذه الحجرة، لكنها خايرت نفسها وارتدت عائدة: نطلع فوق أحسن. طلعنا، حجرة صغيرة أخرى مضاءة بلمبة جاز وفيها سرير سفرى وكرسى واطئ فوق حصيرة ملونة وصندوق غطاؤه جملون، على السرير طفلتان جميلتان نائمتان. أجلستنى على الكرسى وتربعت هى على الحصير سحبت عدة الشاى من تحت السرير أشعلت الوابور فيما رحت أنا أبحث فى منظرها عن سر هذه العزومة رغم أنها لا تعرفنى ولا أعرفها.

لاحظت أنها خلعت الثوب الأسود وبقيت بثوب وردى شفاف عارى الكتفين والذراعين والنحر ومنبت الثديين الأمر إذن واضح فيما تخيلت. أشعلت سيجارة محشوة بالحشيش فما أن طلعت الرائحة حتى اكفهر وجهها وصاحت: إطفئها . فأطفأتها فى الحال. رأيتها تأتى بكوب زجاجى مستطيل من أكواب العصير ثم تضع فيه حفنة كبيرة من السكر وتدلق الشاى فوقها. نبهتها إلى أننى لا أشرب الشاى حلوا هكذا، فقالت بلهجة ونظرة ذات معنى غامض:

– «أعرف!! لكن لا تقلب الشاى!! إشرب حتى تجد أنك تحتاج للأحلى فتقلب السكر!!»

شربت، وكانت كل رشفة أحلى من السابقة. وفيما أعيد لها الكوب ضغطت على أصبعها، فإذا بها تهب واقفة كأن شيطانا ركبها، صرخت فى وجهى :

– «قم! قم حالا ! بسرعة قبل أن أنادى إخوتى يقطعونك!!»

بكل قوتها دفعتنى إلى السلم فتهاويت مترنحا، ظلت تدفعنى بقدمها درجة وراء درجة حتى خرجت من الباب فأمسكت بيدى وقادتنى إلى عتبة الحارة:

– «كما تسلمتك سلمتك! فى ستين داهية!!»

تلخبط غزلى فيما تلا ذلك من أيام ظللت أسابيع طويلة أكش من دخولى الجامع. أصبحت شاعرا بغضب الله يطاردنى فى المسواق وفى البيع وفى المزاج وفى النوم، لا بركة فى أى مكسب، لا راحة فى النفس، لا هدوء فى النوم غابت رقة الزبائن حلت محلها خشونة وأخلاق ضيقة، كثر عدد المرات التى أقلب فيها القرطاس من يد الزبون وأرد له فلوسه. الحاج أحمد الشماع لم يعد يعطينى ريقا حلوا لأنه لم يعد يرانى فى الجامع بانتظام كما كنت. أصبحت عيشتى كربا، لم أعد قادرا على نسيان أنى تركت صلاة العشاء وذهبت وراء امرأة وأن الله هزأنى فى الحال بهدل كرامتى قال لى: نقبك على شونة صرت أحاول التقرب إلى الله

بفعل الخير وتكرار القرض الواحد لكن دون جدوى فكلما ركعت رأيت صورة المرأة على الحصير، أحاول إبعادها فلا تبتعد حتى، ولو غيرت مكان الركوع.

قال الحاج أحمد الشماع ظهر أحد الأيام: تتغدى؟ قلت: طبعا. أكلنا فى الدكان، بقى رغيف وبعض قطع من الطرشى، مع أول شفطة من الشاى رأيته وجها لوجه آتيا نحو الدكان !! الرجل الطائر الضخم بلحمه وشحمه ووجهه الذى حملنى فى الرؤيا وطار بى فى الجو والله العظيم هو بعينه قلبى وقع تحت البنك وأنا أبحلق فى الرجل فيما هو يقترب منا إلى أن اختفى الضوء وانسدت فتحة باب الدكان وأخذت الظُلمة الكثيفة تقترب من البنك. كان عاريا بلبوصاً مثلما كان فى الرؤيا، يلف خصره بقطعة خيش بالية، يعلق فى كتفه مخلاة من القماش المشمع ملآنة بقطع من الحديد والزلط، ويمسك بيده عودا معقوفا من الحديد : قال للحاج أحمد الشماع.

- «أعطنى مما أعطاك الله!»

الحاج ناوله الرغيف المتبقى من غدائنا. أخذه الرجل مشوحا بيده الأخرى:

- «والرغيف ليس له غموس؟!»

أجبته قائلا بصدق:

- «طبعا يا حاج! لابد للرغيف من غموس!»

فإذا بالرجل ينفجر فى وجهى كماسورة مياه ضاربة، ورذاذ غضبه يتناثر فوقى يبللنى:

- «إسكت أنت يا ضلالى يا نجس!! من الذى أعطاك الإذن بالكلام؟! لماذا أنت جالس هنا مع الناس الطيبين؟! أنا جئت إلى هنا من أجلك أنت لكى أدكك فى الأرض!!»

ورمى بالرغيف وانصرف. نظر لى الحاج أحمد الشماع نظرة فيها من التشكك أكثر مما فيها من مزاح. كان الرجل الطائر قد أصابنى فى مقتل، فانتفضت قائما، جريت وراءه، لحقت به وهو يهم بدخول جامع سيدى جلال. رفعت ذراعى فى وجهه كأنى سآخذه بالحضن:

– «يا عم ! لماذا تشتمنى مع أنى لم أفعل لك شيئا!!»

– «أنت تعرف الذنب الذى اقترفته!! أم أنك لم تعرفه؟! أنا راض بذمتك!!»

بكيت فى الحال . قال:

– «إذن فأنت تعرفه!! قل إنى تبت إلى الله توبة نصوحا ولن أكررها !!»

كررت العبارة وراءه مرتين . قال:

– «إرجع لشغلك وتذكر دائما أنك تبت إلى الله!!»

ومضى، فجذبته! إنتظر قدمت له بريزة فضية قال:

– «ماذا أفعل بها؟ إننى لا آكل! ولا أحتاج للفلوس!! وسأصلى العصر فى سيدى جلال ! والمغرب فى السيد البدوى! والعشاء عند أبى الحسن الشاذلى!!»

ودخل جامع سيدى جلال، وعدت أنا إلى الحاج كى أصطحبه لصلاة العصر جماعة . من يومها انعدل ميزانى واستقام فرضى وهدأت نفسيتى. ولكن النفس أمارة بالسوء حقا. رح يا زمن تعال يا زمن فرغت السبوبة ذات يوم إلا من سمكة واحدة قشر بياض تزن أكثر من أربعة أرطال، كش منها الزبائن خوف الحسد . خفت أن تتعفن، حملتها وتجولت بها فى شوارع البلدة مناديا: صابح يا سمك. نادتنى إمرأة من شرفة فى الطابق الرابع فى عمارة عالية :

«إطلع يا بتاع السمك» . نظرت لأعلى صائحا:

– «معى سمكة واحدة وزنها أربعة أرطال!! تلزمك قبل أن أطلع السلم؟»

أشارت بذراعها نحو الباب : «إطلع»

طلعت . على آخر سلمة رأيتها واقفة أمام بابها، تلف نفسها بثوب خفيف أشبه بالعباءة. إمرأة سبحان الصانع، صدر وخصر ومؤخرة ووجه كفلقة القمر، بجوارها خادمة طفلة. كشفت الورق الأخضر عن سمكتى ، فبسملت المرأة ناظرة فيها ثم قالت: «كبيرة!» فصرخت فيها بغضب:

– «قلت لك هذا وأنا تحت فما الداعى لتعنيبى؟!

نظرت هى للخادمة قائلة : «خشى جوه يا بنت!!» ثم اقتربت منى هامسة:

– «زوجى مهندس فى البحرين من سنين طويلة وأنا محتاجة لك أنت!! رح الآن واستحم وغير ثيابك وتعال فى الساعة العاشرة مساء تجدنى فى انتظارك!!»

قلت: «ماشى»، ونزلت جريت على القلاى، بعته السمكة بستين قرشا بخسارة عشرين قرشا من ثمنها الأصلى. كان منظر المرأة قد عشش فى نافوخى. خطفت رجلى إلى الحمام فاندعكت جيدا، لبست فانلة وسروالا جديدين ، أكلت دجاجة كاملة فى مطعم شهير، حششت وأفينت، ثم اضطجعت قليلا لاستعد للدعكة الكبرى. خطفنى النوم، فرأيتنى واقفا على باب شقة هذه المرأة وأنا فى شدة الهياج والإنتصاب، وهى فى وسط ردهة شقتها نصف عارية تشير إلى بيدها أن تعال، ولكن الرجل الطائر رابض فى فتحة الباب ككلب شرس متحفز، وأنا أحاول أن أغافله لأدخل، إلا أنه يتابعنى بنظرات شرسة غاضبة مكشر عن أنيابه، يزأر كلما تقدمت خطوة . الهيجان قد تلبسنى والمرأة تستعجلنى تحرضنى على الدخول إليها. قررت أن أقتله صرت أفكر بسرعة فى شئ أضربه به ضربة واحدة تجهز عليه . لمحت العود الحديد المعقوف بجواره، إنقضضت عليه لأخطفه، فإذا بالرجل ينتفض واقفا يطلق زئيراً كالرعد يريد الهجوم على، فكأن العمارة كلها تميل فوقى صرخت فزعا، ثم انتفضت فإذا بى أطير فى الجو مثله برهة خاطفة ثم وجدتنى واقفا فوق سلم رخامى فى مسطاح النهر علىّ شاطئ أسيوط كان الأهالى

يسمونه سلم الملك إذ إن باخرة الملك كانت ترسو عليه حين يزور الملك أسيوط فيصعد عليه من الباخرة المحروسة، وكنا كثيرا ما نلعب فوقه بعد قيام الثورة وفى اللحظة التى خيل لى فيها أن الموج يصعد ليطولنى صحوت لاهثا مضطربا .
كانت الساعة لا تزال الثامنة مساء فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، لبست ثيابى ونزلت . قادتنى قدماى إلى دكان الحاج أحمد الشماع فرأيته يغلق الباب إغلاقا مؤقتا ريثما يصلى العشاء فى سيدى جلال. فلما رآنى ابتسم، أعطانى إبطه فأدخلت فيه ذراعى وحين شرعت أركع كانت صورة الرجل الطائر تضمحل من رأسى شيئا فشيئا فلا يبقى منها سوى ابتسامة ماكرة.

تحويد الحظ

كنت متأكدا أننى اليوم فى راحة من الشغل ولهذا لبست ثيابى النظيفة وتمنجهت على سنجة عشرة وجئت أتمشى هاهنا بقصد الفسحة مثل علية القوم.

هناك اعتقاد راسخ فى عينى بأن الدرب الذى أمشى فيه الآن بين صفين من أشجار غريبة لا أعرف اسمها هو الدرب الموصل إلى سوق السمك فى مدينة أسيوط وأنه فى نفس الوقت مسطاح النهر مع أننى متذكر أن سوق السمك فى مدينة أسيوط يبعد عن النهر بمسافة كبيرة جدا. كما أننى متذكر أنى ضقت بمدينة أسيوط كلها وطلبت شم الهواء النقى بعيدا عنها قرب النهر فما بالى أمضى الآن فى اتجاهها كأننى تصالحت معها؟! إذن فلابد أن يكون هناك شئ دفعنى للسير فى هذا الطريق غير مسألة الفسحة هذه .. جعلت أعصر دماغى باحثا عن حقيقة هذا المشوار الغامض لكننى لاحظت أن دماغى مدووشة وكل ضجة السوق تطن فيها كخلية النحل.

ما لبث الطريق حتى اختفى من أمامى.. إضمحلت الأشجار، ثم الأسفلت، فإذا بى واقف فى مسطاح النهر مرتديا ملابس السوق الزفرة. خطر لى أننى كنت آتيا إلى هنا – ربما – لملاقاة قوارب الصيد التى أعرف أنها ترسو سرا على هذا المسطاح البعيد لتبيع حمولة صيدها للتجار المعلمين الكبار. بدا لى إننى صرت معلما كبيرا مثلهم أشترى وأبيع بالجملة للباعة السريحة أمثالى. تساءلت : متى صرت معلما كبيرا صاحب حلقة تبيع بالجملة ؟ وأين تكون حلقتى من سوق أسيوط؟ فلم أجد لذلك أثرا فى رأسى. خيل لى أننى ربما أكون جئت لأصطاد

بنفسى، ولكن أين هى أدوات الصيد؟ لا سنارة معى ولا شبكة .. لو كنت أمام بركة صغيرة لقلت إننى سأخوض فى قاعها لأمسك الأسماك بيدى فى الماء العكر، غير أنى أمام نهر جبار تنحنى أمامه جباه السفن.

فجأة ظهر أمامى برميل كبير أسود اللون من الصاج الثقيل ينتصب واقفا على مبعدة خطوات قليلة. وجدتنى أذهب إليه نظرت فيه، فإذا هو ممتلئ لتمه بالقراميط الصاحية تتلعبط تتنطط فوق بعضها بشوارب مشرعة كأسلاك البرق .. تفحصتها، كلها وياللعجب من القراميط الإناث ممتلئة باللحم طويلة القامة أصغرها فى طول الذراع قدرت وزنها بأكثر من مائة كيلو جرام على الأقل. قلت لنفسى: لابد أنها حصيلة صيد قارب محترم إستغرقت رحلته يومين. ثم راجعت نفسى وقلت: لا بل هى مسروقة من مزرعة خاصة ممنوع فيها صيد الإناث حتى لأصحاب المزرعة .. عينى زاغت، قلبى صار يدق، صرت أتلفت حولى باحثا عن أصحابه، فلا تقع عينى على أحد، ومياه النهر ساكنة صافية، فى قلبها– من بعيد جدا– أعمدة كهربائية مضيئة ومآذن وقباب كأنها مرسومة فى مسطاحه البعيد، لا قوارب ولا صريخ ابن يومين .. بدأت أخاف. إن هى إلا برهة قصيرة حتى رأيت ظلاً يزحف على الأرض نحو البرميل ونحوى .. رفعت رأسى، رأيت خفيرا نظاميا على رأسه اللبدة بالنحاسة الصفراء تحمل رقمه وفى كتفه علقت بندقية حكومية وفى كتفه الآخر خريطة الذخيرة .. صاح فىّ بلهجة آمرة:

– «يلا يا راجل أنت خذ برميلك وارحل من هنا!!»

صرت أنظر إليه، وإلى البرميل . الخفير ضخم الجثة مفتول الشارب متجهم الوجه لم أره من قبل أبدا فى نواحينا، كما أنه يتكلم بلهجة غير صعيدية . خفت منه، إرتبكت. صرخ فىّ:

– «إيه !! ما سمعت؟!»

تلعثمت ، أردت أن أقول له إن البرميل ليس يخصنى، لكنه هتف:

– «إحمل برميلك وارحل قلت لك! أم تريد أن أدلقه لك فى النهر؟!»

إقترب، وضع يده على البرميل يهم بدفعه. إرتميت على البرميل حضنته، صحت فيه باستعطاف:

– «حرام! شقاء ناس !!»

– «إذا لم تحمله وتمضى فى الحال سأدلقه فى قلب النهر!»

– «الكذب خيبة! هذا ليس برميلى!!»

حدجنى بنظرة لوم غاضبة :

– «برميل أمى إذن؟! من هنا الآن غيرك ؟! ألم يعد عندكم حياء يا لصوص ؟ تعملون عملتكم وتخبئونها فى أرض الباشا؟! ألف مرة نبهت عليكم بعدم الرسو على هذا المسطاح ولا فائدة أتستغلون طيبة قلبى ياحيوانات؟! يا كلاب البحر !! لا ينفع معكم إلا قسوة القلب؟! هيا احمل برميلك يا روح أمك وأرنى عرض أكتافك!!»

أمسكت بالبرميل ونظرت إلى الخفير أنبهه إلى عدم قدرتى على حمل البرميل وحدى صاح فىّ:

– «إحمله على رأسك يا بجم!»

– «نعم ولكن كيف؟!»

– «إخلع هذا الصديرى!!»

. خلعته فى الحال أعطيته له، فإذا به يبرمه حتى صار كالحبل، كوره فى دائرة معقودة كشال العمامة، وضعه فوق رأسى بمثابة حواية. تقرفصت وتقرفص هو أمامى، أمسكت بيمناى قعر البرميل من حزام حديدى، وبيسراى حافة فتحته

كذلك فعل هو هيلاهوب، حزق وانتفاخ عروق صار .. البرميل فوق رأسى كقبة سيدى جلال صار الخفير الطيب يسانده حتى نهضت معتدلا فى وقفتى ، وشيعنى قائلا:

– «إتكل على الله ولا ترينى وجهك هنا ثانية مفهوم؟!»

مضيت أترنح تحت البرميل أتحسس الأرض بقدمين حافيتين وفرحتى بالغنيمة تنسينى ثقل البرميل. وكنت أعرف أننى متجه الآن إلى سوق أسيوط مباشرة لكى أفرش فى المكان الذى اعتدت الفرش فيه كل يوم أمام دكان الحاج أحمد الشماع القماش الذى أنعم علىّ بحمايته لى من غيلان السوق الذين طاردونى كثيرا من جوارهم لأننى بياع شاطر ومحظوظ فى البيع لشهرتى بالأمانة والقناعة بالربح القليل والصدق فى الحلفان مما يعطل عليهم سوقهم.

ما كدت أقترب من مدخل السوق حتى رأيت المعلم خلف الأحمر يقف فى مواجهتى .. هو ليس سماكا و لا شأن له بالسمك ، إنما هو قهوجى متنقل يدور فى السوق بصينية كبيرة عليها أكواب وبراد كبير ليس يحملها الآن وهو يعترض طريقى فكرت أنى لم أشكك منه أبدا فليس له عندى أى طلب .. كنت أسند البرميل بيدى وتكاد رقبتى تنغطس فى كتفى، صحت فيه وأنا أنزاح بعيدا لأمضى.

– «هات لى كوبة شاى بالحليب يا خلف عند فرشى! وبسرعة وحياة ابوك لأنى خرمان وأريد أن أشق ريقى! نهارك فل بإذن الله!»

لمعت فى عينيه نظرة خبيثة ، مد ذراعه ليستوقفنى فأردت دفعه بعيدا عنى فاهتز بدنى كله تحت البرميل..

– «انتظر يا ضلالى!»

– «الله يسامحك يا خلف! ما ضلالى هذه الله يكرمك؟! لا نصبت عليك ولا غششتك من يوم ما جئت من بلدتنا لأسيوط حتى الآن فكيف تشتمنى هكذا من الباب للطاق يا رجل؟!»

نظر لى بابتسامة خبيثة صامتة كأنها تقول: إطلع من دول يا نمس .. ضقت بصراحة، أهملته ومضيت .. تزحزح معترضا طريقى. تذكرت أنه رجل مهزار وهزاره ثقيل لا يحتمل، ولهذا فأنا لم أهزر معه أبدا، فما الذى أغراه بى الآن يا ترى ؟! تذكرت نصيحة الحاج أحمد الشماع بأننى يجب أن أكشر عن أنيابى وأصد عنى هزار الثقلاء حتى لا تتبعثر كرامتى .. نظرت لخلف الأحمر نظرة شر غاضبة وصرخت فيه بعنف:

– إترك طريقى يا خلف وخل نهارك يعدى على خير!! إصطبح وقل يا صبح خلنى اشوف السبوبة قبل فسادها!!»

الكلاحة كلها فى وجهه .. تشاءمت من كلمة فساد السبوبة التى جرت على لسانى قلت يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم صبحنا صبح الملك لله. تبنيت وقوفه لى هكذا كالقضاء المستعجل فى هذه الصبحية فانقبض صدرى فقدت الرجاء فى اليوم كله. بكل قوتى زغدته فى صدره فإذا هو صنديد كعود حديد مغروز فى الأرض وإذا هو لايزال يبتسم ابتسامته الصفراء ويرشقنى بنظرة مليئة بشئ كالإتهام كاللوم كالعتاب !! فما دريت إلا وأنا أتراجع إلى الوراء خطوتين وأدلق البرميل فوق رأسه.

إمتلأت أرض الشارع بالقراميط التى تتنطط تتقافز تتلوى على الأرض بكثافة حتى كأن أرض الشارع غرقت فى قار أسود يتموج ويزحف .. تفجر الشارع كله بصيحات كيوم الحشر: حوش يا جدع ، إمسك يا جدع ، وخلف الأحمر قد تقرفص فارداً حجر جلبابه الواسع وبيد خبيرة يمسك القرموط من عنقه ويدسه فى حجره وهو يطلق ضحكات شيطانية كضحكات الممثل محمود فرج فى الأفلام الخايبة .. كل مار فى الطريق يجدها لعبة طريفة فيبرك مطاردا القراميط حتى يمسكها ليعود فيدسها فى حجر خلف الأحمر.

الكل يدس في حجر خلف الأحمر، ولا أثر للبرميل، حتى انتفخ حجر خلف الأحمر من جميع النواحي، ومشى كالمحمل، ومائة كيلو من القراميط الصاحية تنتفض حول جسده النحيف كالعصا وهو مع ذلك ثابت الخطو، حتى اختفى ، فإذا بقلبي يوجعني ودمي يأكلني فاندفعت أجرى في أثره صارخا ألطم وأبكي بحرقة :

– «الحرامي !! سرق عرقي وشاقي!! إمسكوه!! النصاب الضلالي!! يا خلق هو ..و..و..ه!!».

لكزتني أم صابر فزعة:

– «مالك يا رجل؟ عم تخطرف وتصرخ من صبيحة ربنا؟!»

– «إستر يارب ! إستر يارب!»

بللت ريقي بجرعة ماء، دلقت بقية الكوز على وجهي، لبست ثياب السوق الزفرة، إتكلت على الله إلى الحلقة لأتسوق وجبتي اليومية .. كان صدري منقبضا فصرت أقرأ آية الكرسي. وإذا بي أمر أمام بيت خلف الأحمر في نهاية الحارة التي فيها بيتي، فرأيتني أنظر في البيت كأنني أستفهم من منظره عما رأيته منذ قليل .. في الحال نط من دماغي سنبل بائع ورق اليانصيب واقفا أمامي على المقهى ليلة أمس ، قال لي:

– «يا أحمد! هذه آخر ورقة معي هل تأخذها وتستبرك بها ربما نفخ الله في صورتها وكسبت البريمو؟! طاوعني وخذها!!»

شوحت في وجهه ، نهرته:

– «أنت تعرف أنني بطلت هذه اللعبة منذ أن هداني الله للصلاة والصوم ! إعمل معروف لا تغريني بالعودة للعب القمار !! أنا جربت حظي فيه واشتريت منك

ورقا بفلوس تبنى عمارة ولكن لا بأس فكانت مما أسرقه أما الآن فالقرش أنبوبة عرق !! إتركنى الله لا يسيئك فعندى عيال محتاجين لفلوسى!!»

– «طيب ؛ براحتك! ولكن اخدمنى وخذها لجاركم خلف الأحمر! إعطها له وأنت ماش فى سكتك ! أوصانى من الصبح أن أبيعه آخر ورقة معى ! سألت عنه قالوا روح!»

– «ماشى ! سأسلمها له فى يده!»

دسستها فى جيبى وروحت ، نسيتها .. طبعا لم أتذكرها إلا الآن. خبطت جبهتى بيدى، قلت : بس ! هذه الأمانة هى التى وزتْ خلف الأحمر على أن يعترض طريقى ! نعم لقد فهمت الآن كل شىء ! إن خلف الأحمر كان يريد أن يقول لى : يا من اشتهرت بالأمانة والصدق والقناعة ما بالك تطمع فى ورقتى ؟! ضحكت وراق دمى ؛ طرقت بابه : صباح الخير يا سى خلف صباح النور يا بوحميد ؛ سلمته الورقة معتذرا له عن بياتها معى . دسها فى جيبه : كثر خيرك ، وسلم علىّ بحرارة ورجانى أن أدخل لأشرب الشاى ؛ فشكرته ومضيت حامداً الله.

تسوقت حصتى بسلامة الله . فرشت مطرحى بدون أى نزناز حضرت الزبائن مع شروق الشمس . بدأت كفة الميزان تروح وتجىء كالمكوك . بدأت المناهدة والفصال الذى يسمم البدن ؛ وأنا أقول لنفسى يا سابل الستر ألجم لسانى حتى يفوت اليوم على خير .

فى أول الضحى رأيت سنبل بائع الورق مقبلا يجرى يشق زحام السوق يتجنب الاصطدام بالفروشات وعينه منى . كان شاحب الوجه يكاد يلفظ قلبه ؛ هتف بى :

– «الورقة يا أحمد !! الورقة !! أين هى ؟ !»

صحت فى نبرة انتصار كبيرة :

– «وصلت ! سلمتها له فى يده !!» .

ثم شعرت بالحسرة والخيبة . صاح هو :

- « لقد كسبت البريمو !!»

كنت أخبط جبهتي بكفة الميزان ، لكنى ضربتها بقبضتى فى غيظ شديد فيما أولول :

- «علمت يا بو العم !!»

- «كيف عرفت ؟ ! متى ؟!»

- «علمت والسلام يا بو العم!!» .

استدار يجرى باحثا عن خلف الأحمر فى أنحاء السوق . ركبنى عفريت ؛ شعرت أننى قد سرقت ؛ سلمت حظى بيدى لغيرى ؛ أيضيع حقى أونطه ؟! تركت السبوبة ؛ طلعت أجرى خلف سنبل لأنبهه إلى حقى . تلفت خلفى قلقا ؛ رأيت طفلا ابن حرام وزه شرير كبير ، أمسك بجنبة السمك فرفعها ودلقها على الأرض، وكذلك صفيحة القراميط ، واختفى .

إرتددت عائدا أصرخ وألطم خدى وكل همى أن أعرف ابن من هذا الذى أهدر سبوبتى لكى أقطعه وأقطع أهله ؛ لكننى تقرفصت رافعا حجرى ، والناس تصيح : حوش يا جدع ، إمسك يا جدع ؛ وكلما أمسكت بقرموط نط غيره واختفى بين الأقدام .

المكتوب

رأيتنى ماشيا على غير هدى ، لا أعرف إلى أين أنا ذاهب ، كما لا أعرف من أين أتيت . الشىء الوحيد الذى كنت أعرفه هو أن هذه البلدة التى على يمينى هى بلدة بنى فيز القريبة من بلدتنا كوم سعيد . أما هذا البحر فلا يبدو أنه النيل الذى أحفظ شكله وأعرفه حق المعرفة من يوم أن خلقنى الله .

كنت أرتدى كامل ثيابى النظيفة ؛ فلنا فى تلك الآونة كما أشعر الآن أمضيت مدة طويلة لا ألبس فيها هدوم السوق الزفرة ..

كنت أشبه بالحيران ؛ نفسى مصدودة عن كل شىء . وكان البحر يقترب منى؛ ويقترب معه طريق موحل . فلما أوشكت على الخوض فى الوحل انتبهت فجأة إلى قدمى ، فوجدتنى حافيا . تسمرت فى مكانى ذاهلا ، متسائلا : ما حكاية الحذاء معى ؟ كثيرا ما أفجأ أننى أمشى بدونه . صرت أفتش فى دماغى .. تذكرت كما لو أننى كنت جالسا على مصطبة من مصاطب بلدة بنى فيز هذه فلابد إذن أننى نسيت جزمتى هناك ، إرتددت عائدا فى الحال ؛ ظللت أمشى محاولاً تذكر شكل المصطبة التى كنت جالسا عليها ، أو اسم صاحب الدار التى توجد أمامها المصطبة ؛ فلم أتذكر أى شىء على الإطلاق ..

صعبت علىّ نفسى ؛ كدت أبكى من شدة الغيظ من نفسى ؛ لكننى أخذت المصطبة بالشبه ؛ فلما رأيتها تقترب منى قلت ها هى ذى ، مع أننى لم أكن واثقا إن كانت هى أم لا . نظرت حواليها ؛ فرأيت صندلاً أفرنجيا شكله جديد ، من صنادل شركة باتا التى تجد شهرة كبيرة ويباع الواحد منها بتسعة وتسعين قرشا ؛ وفيما أعلم فإن الأفندية يفرحون بهذه الصنادل لأنها من جلد ناعم خفيف وهى مريحة القدم . لم أكن لبست صندلاً فى قدمى من قبل أبدا ؛ بل كنت دائما

أنتقد من يلبسونها لأنهم فى نظرى غير محترمين وإلا فما معنى أن تكون أصابع القدمين بارزة ومعرضة للتراب ؟! إلا أننى قلت فى عقل بالى يا ولد إلبسه وأمرك إلى الله ما دامت جزمتك ضاعت منك ومادام الله قد وضعه فى سكتك بدلا منها..

لبسته ومشيت أتفاخر ساخرا من نفسى لشدة خفة هذا الملبوس المخلوع فى آن معا ، ولأنه يهدهد قدمى فكأننى على وشك أن أرقص . مع ذلك فرحت لأنه جاء على مقاسى بالضبط ، ووالله كان شكله جميلا بالفعل ..

خطوة والثانية صرت على شط البحر من جديد ولكن الوحل قد اختفى ، فتعجبت لبرهة من هذا الوحل العجيب الذى لا يظهر للإنسان إلا حين يكون حافيا . رأيت رجلا يخرج من قلب مياه البحر مرتديا ثيابه كاملة ولا أثر للبلل فيها . فتسمرت فى مكانى منذهلا أحاول التمعن فى شكله إذ ربما يكون هو سيدى جلال السيوطى أو سيدى عبد الرحيم القنائى أو أى قطب من أولياء الله الصالحين ..

اقترب منى وقال فى ود وبساطة :

– «تعال !»

ارتعشت مفاصلى كلها :

– «أين أجيء ؟! ها أنذا أمامك فقل ما تشاء !»

أمسكنى من رسغ يدى اليسرى فى شيء من العشم .

– «تعال دون أن تسأل !»

وشدنى برفق فمشيت معه فى وجل . فلما صرنا على حافة الماء قال :

– «إنزل!»

مغمصت بطنى وزغولت وحدثت بها كركبة وبربكة عالية الصوت ، وسمعها هو ومع ذلك سلط عينيه فى عينى :

– «قلت لك انزل !»

لهجته فيها أمر وإلزام . لففت ذيل جلبابى وشرعت أخلع ملابسى ؛ فإذا به ينزع الجلباب من يدى صائحا :

– «إنزل كما أنت بثيابك !»

– «ولكن .. الماء !»

– «لا تخف ! إن البلل لن يأتيك من ماء البحر بل من الخوف ! والغرق ليس فى أعماق البحر بل فى أعماقك أنت !»

فلسفة عميقة لكنها مغمصت بالى . لو لم يقلها كنت على وشك أن أصدقه وأنزل البحر بثيابى . أما وقد أتحفنى بهذا الكلام الخنفشارى فإن خوفى منه تضاعف ؛ فتراجعت إلى الوراء خطوتين ؛ فما كان منه إلا أن دفعنى بقوة جبارة ؛ فتهاويت طائرا فى الهواء صارخا ، والماء من تحتى ينتظر هبوطى وأنا أصرخ كطفل صغير شاف صاحب الرجل المسلوخة . لكننى ما أن هويت إلى الماء حتى انتفضت قاعدا على فراشى وقلبى يدق بسرعة وقوة شديدين .

صرت أنظر حولى مستشعرا الفرح إننى لا أزال راقدا فى فراشى . أم صابر لم تكن بجانبى . أما عيالى فكانوا متناثرين على الفراش كل واحد منهم فى اتجاه؛ منهم المتغطى ومنهم العريان . شكلهم كان تعيسا كاليتامى . وجعنى قلبى، تذكرت أن أم صابر قد زعلت منى قلمت هدومها وراحت لأهلها فى كوم اسفحت..

تكورت جالسا فى الفراش ؛ عقلى يودى ويجيب : كيف بهذه الولية تفرط فى عيالها وتمشى !! أنا تحملت بسببها غتاتة ناسها وكل أهلها الذين حاربونى فى رزقى فى سوق السمك فتركت القاهرة كلها وجئت إلى أسيوط هربا من ولاد كوم

اسفحت الذين يحتكرون تجارة السمك هناك . أحد ولاد عمها - وما أكثرهم فى القاهرة - عكنن مزاجى فى سوق السيدة زينب ، سلط علىّ ولدا يضايقنى فى فرشى الصغير لأننى لسانى حلو مع الزبائن ولا أعرف الغش ولا الجشع . بعثر الواد سبوبتى على الأرض ؛ فقدت صوابى ، أمسكت بصنجة الميزان التى تزن خمسة أرطال من الحديد الثقيل ضربته بها فى دماغه قطب ساكتا فأخذت ذيلى فى أسنانى وقلت يا فكيك ؛ جئت إلى أسيوط أقلب رزقى . من حسن حظى أننى كنت معروفا - حتى لأصهارى - باسم أحمد سعيد ؛ المخبرون السريون يبحثون عن صاحب هذا الاسم المحكوم عليه بالسجن سنة مع الشغل وغرامة لأنه أحدث ترينة فى دماغ ولد من صبيان السوق ..

لما تعبت نفسيتى من المهابرة قلت فى عقل بالى يا ولد إترك تجارة السمك لحيتان كوم اسفحت وابحث لك عن شغلة آمنة بعيدة عن مجال تأثيرهم . كان عندى جهاز تليفزيون من ماركة أصيلة يعمل بالبطارية السائلة ؛ عدت به إلى بلدتنا كوم سعيد . ربنا ألهمنى فكرة أننى صاحب التليفزيون الوحيد فى مركز صدفا كله فقمت بتجهيز مندرة دارنا ، وضعت فيها التليفزيون ؛ اشتريت عدة شاى كبيرة ؛ فتحت المندرة لكل الناس ؛ الدخول بقرشين ، ومن يشرب شايا يدفع ثلاثة قروش صاغ ..

اشتغلت المندرة يا بو العم . أثناء عرض الفيلم العربى تمتلىء المندرة عن آخرها بناس يأتون من كل البلاد المجاورة . إحلوت الشغلة ؛ فما الذى يجعل أم صابر تتركنى وترحل إلى أهلها من أجل سبب تافه أنا نفسى نسيته ؟! مع أنها تعرف أننى أحبها وأحب أولادها حبا كبيرا ؟!

بعد المنام المؤلم الذى شفته يهددنى بالغرق فى البحر قلت يا ولد رح صالحها لعل قلبها يحن ..

أخوها الكبير قابلنى مقابلة خشنة . قلت لنفسى : تحمل يا ولد من أجل خاطرها وخاطر العيال . لكنه انفع ، بدأ بالغلط ، واختتم غلطه بأن حلف بالطلاق ثلاثا أن أخته لا تعود معى إلى عيالها ؛ فإذا بى من شدة الغيظ أندفع فى الرد عليه :

– «طلاق على طلاقك إنها إذا لم ترجع معى فإننى فى ظرف أسبوع واحد سأتزوج من غيرها !»

وقفلت عائدا إلى كوم سعيد !

صارت الأيام تمشى بطيئة مملة . ولدى صابر ذو السنوات الخمس من عمره حينئذ يتعلق بجلبابى طول النهار ، وفى الليل ينكفىء على وجهه فيصحو ليتكفىء ثانية . يا ولد إدخل ونم جنب إخوتك ؛ لا ؛ رأسه وألف برطوشة أن يبقى معى حتى أشطِّب وأدخل معه للنوم ..

ذات ليلة تأملنى زبون كان يجلس على مقربة منى . الظاهر أن منظر الولد قد أوجع قلبه ؛ فإذا هو يقترب منى ويعرِّفنى بنفسه :

– «عبد الرحمن شويحى ! تاجر مواشى من بنى فيز !»

– « يا مرحب يا مرحب ! بنى فيز أحسن ناس !»

– شف يا بو العم ! أنا عرفتك رجلا جدعا ! وناسك أحسن ناس فى أسيوط كلها ! لكن اسمح لى ! منظر عيالك وجعنى ومنظرك وجعنى أكثر !»

– «ربنا يكفيك شر العند ! العند يورث الكفر !»

– « إسمع ! ربنا أعطانى بنتا وحيدة ! مستعد أن .. أزوجها لك تخدم الولاد بدلاً من هذه البهدلة !»

– «يزيدنى هذا شرفا ! أهى صغيرة ؟»

– «طبعا ! صبية ! ستراها على كل حال !»

- «يدى على كتفك ! جميل لن أنساه أبدا !»

بعد ثلاثة أيام جاءنى :

- «سألت البنت قالت أراه أولا ! إذا كان كبيرا فى السن ومكحكح لن أتزوجه! وإن كان مشدود الحيل وصحته جيدة فعلى بركة الله !»

إلى بنى فيز توجهنا مساء يوم طرى النسمات على رأى غنيوة محمد عبد الوهاب ..

دخلت علينا الصبية بصينية الشاى ، قلبى انفتح لها يا بو العم ، صار يرتعش . جمالها سبحان الصانع ، طول بعرض ؛ كل شىء فيها مكسم ؛ كل حاجة فى جسمها تقول أنا وأنا ؛ صدر وخصر وأرداف ورقبة وعينين وكعبين كريالين من الفضة ؛ عينان واسعتان كعيون البقر مكحولتان بكحل ربانى ؛ جدائل شعر ملموم فى ضفيرتين ؛ المنديل ابو أويه مائل على الجبين يأكل منه قضمة ؛ حنك واسع مع صدغين مدورين كصدغى القمر . حاجه تهوس يابو العم . هذه الفرسة ، المهرة ، يمكن أن تكون لى وحدى لا يشاركنى فيها أحد !! حاجة من اثنين يابو العم : إما أن البنت فيها عيب خفى كبير ؛ أو أن هذا الرجل مجنون لكى يزوجها لرجل مثلى يكبرها بما يقرب من عشرين عاما ؛ أنا دون الأربعين بأربع سنوات ، وهى دون العشرين بأربع سنوات كذلك . ولكن ملامح البنوتية واضحة عليها وضوح الشمس؛ صدرها بانكفائه وانزوائه يقول إن يداً واحدة لم تلمسه من قبل . كذلك وجهها وجميع أنحاء جسدها تنضح عذرية وبكارة . فهل يكون العيب فى عقلها مثلا ؟ إن نظرة عينها على درجة كبيرة من الإتزان ، والحياء ، كلها عقل ، حتى ابتسامتها الخجولة وهى تضع الصينية أمامى كانت تشى بأنها تتفحصنى من تحت لتحت ، أنا الذى يكبرها بهذا العمر الطويل إرتبكت أمامها وصرت أخفض البصر وأقاوم حتى لا أبدو صغيرا فى نظرها ..

لم أنتظر رأيها ، فتحت محفظتى وسحبت ورقة بعشرة جنيهات وضعتها على الصينية ؛ وكانت هذه هى علامة القبول من جانبى ، ثم إن عبد الرحمن شويخى دخل فتشاور مع ابنته وزوجته لمدة خمس دقائق وعاد فبشرنى بموافقة البنت .

فى بحر أيام قليلة إنتقلت البنت رحمة إلى دارى زوجة لى على سنة الله ورسوله . إنتقل هذا الجمال كله إلى فراشى يا بو العم . ولكن .. أرأيت إلى منجاية كبيرة متخخة وملآنة باللحم الشهى تفوح منها رائحة المانجو الفواحة ؛ فإذا أنت تمد بوزك فى نهم نحو بوزها المدبب ؛ وبأسنانك تنزع عنها قشرتها ؛ ثم تغرس أسنانك فى اللحم تلهط محاذراً ألا تبقع ثيابك وألا تفلت من شدقيك فتفوتة واحدة ؛ فإذا بك تكتشف أنها مالحة لا شىء من السكر فيها ؛ وإذا بأسنانك تقع فى شباك من الفتل الدقيقة تتحشر بينها ؟ ..

شف هذه الصورة يا بو العم وقدر أنت حجم الصدمة . هل تراك تبصق القضمة التى هبرتها بحسن نية ويملء فيك من شدة الإشتهاء ؟ أم تبلعها وأمرك إلى الله وتنسى قرفتك ؟ ..

الله وكيل . لقد بلعتها ؛ لكى أخفف عن نفسى وقع الصدمة فكرت فى شىء لعلاج المنجاية المملحة المفتلة ، بعصرها مثلا وإضافة كمية كبيرة من السكر . فعلت شيئا كهذا بالضبط ، جئت لها بقمصان نوم شفتشى ، وعلبة تجميل فيها أحمر وأبيض وفيها عطور ، وصور نسوان عريانة من المجلات الملونة . حاولت دفعها دفعا إلى اللحلحة بكل وسيلة ولكن بلا جدوى يا بو العم ..

تنام بجوارى لا فرق بينها وبين شكارة الأسمنت . كنت أحيانا أقول لها بصنعة لطافة إن الواحد منا لو داس فوق كاوتش السيارة الداخلى المنفوخ فإنه لابد أن يصدر عنه صوت كلما غاصت فيه القدم . لكنها لا تفهم يابو العم ، لوح لطزانة ؛ أدوس فوقها بجسدى كله فتنفعص وتنبطط فلا تتنفس . وأرفع نفسى عنها فيرتفع الكاوتش من جديد وكأن شيئا لم يكن ، صرت لا أقاربها إلا كلما

امتلأت بالتوتر ؛ فأشرب منقوع البراطيش وأروح ألاعب نفسي في الفراش كالمجنون ، أغني وأرد على نفسي ؛ إلى أن يهدني التعب فأرقد . ومع ذلك حمدت الله على النصيب ، ورضيت به .

مر عام كامل ، والبنت الملعونة تزداد حلاوة وربربة وتورداً ولكن من الظاهر فحسب ، ويزداد طعمها ملوحة أما جسدها فمتبرئ منها ومني ، كلما أمسكت به يفط وينط ويطب ساكتا في مكانه . لم يرزقها الله بالولد . طوال هذا العام أسألها، وتسألها أمها من حين لآخر عن انقطاع الدورة الشهرية ؛ فتفاجأ بأنها لا تنقطع أبدا .. فأيقنت أن الأرض المالحة لا تنبت زرعا أبدا قلت الحمد لله على كل حال فقد أعطتني أم صابر ما يكفيني من عيال أتمنى أن يعينني الله على تربيتهم.

الحق لله فيما يختص بعيالي كانت رحمة تعاملهم بحياد تام ، فلا هي أم ولا هي زوجة أب ربما لأن بناتي الثلاث كن في حالهن ولا يحتككن بزوجة أبيهم إلا في حدود الكلمة الطيبة والسلوك الحسن . كان حزنهن على غياب أمهن ينام بجوارهن على المخدات ، وفي الصباح يظل قابعا في دهاليز الدار وأركانها وتحت الجفون المقروحة .

حماي عبد الرحمن شويحي كان يزورني باستمرار في المندرة المقهى ، يشرب الشاي ويتفرج على التليفزيون كأي زبون عادي . وذات ليلة كنت جالسا بجوار النصبة في انتظار انتهاء فيلم السهرة لكي أشطب وأدخل للنوم ؛ ولدي صابر متكوم جواري ينام على روحه ، يصحو برهة وينكفئ برهات ، ولا يريد أن يسمع كلامي ويدخل لينام في حضن أخواته . على مقربة مني يجلس حماي عبد الرحمن، وبجواري من الناحية الأخرى يجلس واحد من ولد عمي يدعى حسن ، راح يتابع بنظره منظر ولدي صابر . لم يكن يعرف أن هذا الرجل الجالس على مقربة مني هو حماي ؛ فإذا به يقول لي بانفعال جامد :

– « يا أحمد ! ذنب هذا الولد وإخوته فى رقبتك إلى يوم القيامة !»

وجهت إليه بعينى غمزة رجوت أن يفهم منها أن هذا الرجل الجالس على مقربة منا هو حماى الجديد ؛ لكنه لم يفهم غمزتى ؛ فاستمر قائلا :

– «أم العيال يجب أن تعود يا أحمد ! إسمع كلامى وضع فى قلبك شيئا من الرحمة !»

غمزته غمزة أكثر وضوحا ؛ فتجاهل غمزتى :

– «لماذا تركب دماغك وتستمر فى عنادك ؟! يا رجل تعال على نفسك من أجل الولاد ! أيعجبك منظر ابنك هذا وهو يتكوم أمامك مثل اليتيم ؟!»

حدث ما لم أكن أتوقعه . كان حماى عبد الرحمن يتابع الحوار باهتمام ؛ فإذا هو يترك مكانه يلتحق بقعدتنا ثم يميل على ولد عمى قائلا فى هدوء ؛ وبصوت فيه صدق ودفء لا شك فيها :

– «مادمت حزينا على الولاد ! فهل تضع يدك فى يدى ونذهب لتصالح أم صابر على أحمد كى تجىء لعيالها ؟!»

حملق فيه ولد عمى مأخوذا بعض الشىء ؛ كأنه يوشك أن يرد عليه قائلا : وأنت مالك يا بارد تحشر نفسك فيما لا يهمك ! أنا وولد عمى فى كلام عائلى ..

قبل أن ينطق ولد عمى بشىء من هذا الذى توقعته أسرعت أنا قائلا لولد عمى:

– « هذا حماى الجديد الحاج عبد الرحمن شويحى !»

غلظت الدهشة على وجه ولد عمى ؛ ظهر عليه الكثير من الحرج والإمتنان فى نفس الوقت . هتف :

– «أنت الذى يقول هذا الكلام ؟!»

– «وأنا قده ! ومستعد للتنفيذ فى الحال !»

– «كيف يا أبا الحاج ! ابنتك ؟!»

- «أنا زوجتها لأحمد من أجل أن تخدم عياله ! ومادام العيال هم هدفى من حال المبتدا ! فإن أمهم لو عادت إليهم فهذا يسرنى ويرضى خاطرى !»

- «والله عداك العيب يا أبا الحاج !»

فى صبيحة اليوم التالى توكلنا على الله إلى كوم اسفحت : حماى الحاج عبد الرحمن وولد عمى حسن وأنا ..

صهرى قابلنا بوجه غير مشجع ؛ لكننا احتملناه بصبر ؛ فقد كنا مصممين على عودة أم صابر بأى شكل من الأشكال . كعادته قال صهرى إن أخته ترغب فى الطلاق خصوصا عندما علمت أننى تزوجت غيرها . إعتدل حماى الحاج عبد الرحمن وأخذه على حجره ، يعنى لاطفه فى الكلام بلسان حلو ؛ إستدرجه بصنعة لطافة حتى رضى بأن تجىء أم صابر نفسها أمامنا وتطلب الطلاق بلسانها حسب شرع الله حتى لا نرتكب ذنوبا نحن فى غير حاجة إليها . فإن طلبت أم صابر الطلاق فإنه سيتم فى الحال وتأخذ جميع حقوقها على داير مليم . هذا - عدم المؤاخذة - هو عهد الرجال . فإذا هى لم تطلبه فعهد الرجال يحتم على أخيها أن ينزل على رغبتها دون تردد .

الصمت الموتور على وجه صهرى كان يشى بأنه يفكر فى ملعوب لعين يخرج به من هذه الزنقة . وفى اللحظة التى فتح فيها فمه ليتكلم فوجئنا بأم صابر واقفة أمامنا مرتدية ثياب السفر وبيدها بقجة هدومها :

- «سا الخير عليهم !»

- «جئت فى وقتك ! أنت بنت حلال والله يا أم صابر ! ونعم التربية ! الله يكرم أصلك!»

هكذا بادرها الحاج عبد الرحمن وهو يرمقها بكثير من الإعجاب والتقدير . فقالت أم صابر :

– «خلاص يا جماعة ! لم يبق عندى صبر على فراق عيالى ! قلبى يأكلنى ! خذونى معكم ! أحمد تزوج أى نعم ! الله يسهل له !مادام هو مبسوط أنا مبسوطة ! خله مع زوجته ربنا يهنىء سعيدا بسعيدة ، خذونى لعيالى أخدمهم وأرعاهم ! لا تغضب منى يا خوى ! إنهم ليسوا عيالك بل عيالى ! الوجع وجعى أنا ! تعرف يا خوى ؟ لو كان أحمد بقى حتى الآن بغير زواج من غيرى لكنت بقيت على رأيك وما فكرت فى العودة ! أما الآن وبعد أن تزوج فإننى لابد أن أكون بجوار عيالى!»

بهتنا جميعا ، ظللنا نحملق فيها صامتين لبرهة طويلة عز فيها الكلام . حتى أخوها نكس رأسه فى الأرض محرجا وقد ظهر على وجهه أنه مقتنع بكلامها .

عدنا بأم صابر الى دارنا فى زفة كبيرة كأننا عريسان من أول وجديد .

دارنا فى كوم سعيد كبيرة ، لها فوق السطح غرفة كبيرة كانت متروكة للمبيت فيها فى فصل الصيف لمن يشاء . العيال كلهم ينامون فى قاعة أرضية مع أمى . أنا ورحمة فى القاعة المجاورة . أما وسط الدار فنفرشه بالحصير ونجلس فيه للأكل والفرجة على التليفزيون قبل انتقاله الى المندرة مع بداية فيلم السهرة ، أو يوضع فى الخلاء تحت النخيل إن تكاثر الزبائن .. فلما جاءت أم صابر كان من الطبيعى أن ترقد مع عيالها فى قاعتهم .

أم صابر جدعة ، حكيمة . من أول يوم دخلت فيه دارها قالت لرحمة بصريح العبارة:

– « يا بنتى ! أنا جئت لخدمة عيالى ! أما أنت فلك زوجك ربنا يسعدك به ويسعده بك! لا شأن لى بكما ! يعنى لا يهمك من مجيئى فكل شىء سيمشى كما تبغين ! »

استمعت رحمة الى هذا الكلام الطيب ولم تقل حتى : كتر خيرك . وأم صابر لم تكن تنتظر منها أن تقول شيئا ، فما قالته كان حقيقيا بالنسبة لها ومتفقا مع نيتها السليمة فى البقاء كراعية لعيالها فحسب . إنما البنت رحمة ملعونة ..

فى يوم تغدينا وجلسنا نشرب الشاى ونتفرج على التلفزيون . كانت أم صابر

على يمينى ، ورحمة على شمالى . يظهر أن أم صابر نسيت وعدها ، ومعها حق ، فما بينها وبينى لا يمكن أن ينقطع بسهولة حتى ولو كان تلك التى يسميها الفقيه بشعرة معاوية . ولهذا فإن ما حدث من أم صابر يومذاك كان بسلامة نية ؛ أرادت أن تمدد ساقيها وتعتدل فى قعدتها ؛ فبدون قصد منها أراحت قدمها على ساقى كما كانت تفعل دائما لسنوات طويلة مضت . فإذا بوجه رحمة يسودّ ؛ وإذا هى تصيح فى أم صابر بغضب وحقد :

– «شيلى رجلك! »

ولا تكتفى بهذا الزجر القاسى ؛ بل تمد يدها وتزيح قدم أم صابر فى قسوة وخشونة وغل . ثم تشد ساقى أنا صائحة :

– «إتعدل كده! تعال·هنا شويه!»

وتشدنى بعيدا عن أم صابر ..

إغتاظت الوليه . واغتظت أنا أكثر من شدة ذهولها كتمت أم صابر غضبها ودموعها . قالت متألمة :

– «كيف يا بنتى تبعدينى عنه ؟! إنه زوجى مثلما هو زوجك ! أنا الأصل ! أم العيال! وأنا كنت تنازلت لك عنه منعا للمشاكل ! ولكن مادمت فعلت هذا يا بنت الناس فأنا متمسكة بحقى فى هذا الرجل ! نعم ! لابد من تقسيم هذا الرجل بيننا بالعدل ! بالشرع الإلهى !»

قامت القيامة يا بوالعم . ماذا أفعل أنا ومطلوب تقسيمى بين امرأتين ؟..

لى عمة كبيرة فى السن تقيم فى الدار الكبيرة التى هى عمق دارنا من الداخل وسطنا عمتى هذه لحل المشكلة فقالت :

– «والله وكيل يا ولد اخوى ! كل واحدة منهما لها فيك حق شرعى ! والحل العادل أن تعطى نفسك لكل واحدة منهن أسبوعا تقضيه معها !»

– «يرضيك هذا يا بنت الناس ؟»

هكذا سألتها ، فقالت :

– «يرضيني ! وأنا أخذ الأسبوع الأول من هذه الليلة !»

– « ماشي يا بنت الناس ! خلاص يا أم صابر ! إتركيني لها هذا الأسبوع !»

أخذت رحمة أسبوعها كاملا . ويوم بداية أسبوع أم صابر كنت أنا في أشد الاشتياق اليها . الولية من صبيحة ربنا نبحت حماما وحشته بالفريك . طلعت إلى الغرفة التي فوق السطح نظفتها وفرشتها لتكون مقرا ثابتا لها في أسبوعها . ثم انها استحمت وغيرت هدومها صارت على سنجة عشرة .

في الظهيرة أكلت الدار كلها من الطبيخ العمومي . وفي المساء طلعت أنا إلى الغرفة فأكلت الحمام المحشو بالفريك وشربت الشاي ولففت سيجارتين بتعميرة جيدة ؛ سيحت سنّة الأفيون المعتبر . ما كدنا نرسو على شاطيء التنهدات في بحر الأشواق ذي الموج العاصف ، ويبدأ الإلتحام ؛ حتى شعرت بأن هناك أنفاساً تتردد خارج الغرفة . همست بذلك لأم صابر فلم تصدق ؛ لكنني كنت متأكدا من وجود حركة أنفاس على بسطة السلم أمام باب الغرفة مباشرة . لبست الجلباب على اللحم ؛ خطوت على أطراف أصابع قدمي ؛ فتحت الباب خلسة ؛ لأفاجأ بالمضروبة رحمة مقعية فوق بسطة السلم أمام الباب تتصنت ..

– «ماذا تهببين هنا يا مقصوفة الرقبة ؟!»

– «خفت من النوم وحدى ! تعالى نم معى ! لن أنام إلا وأنت معى !»

خرجت إليها أم صابر :

– «أنت يا بنتى أخذت أسبوعك أربعة وعشرين قيراطا هل نازعك فيه أحد ؟!»

– « مالى دعوة ! أريد زوجى ينام معى »

– « يا بنتى إعقلى ! لا داعى للفضائح فى الليل !»

– « ما أنزل إلا به !!»

فاض الكيل بى . سحبت الخيزرانة ؛ وفين يوجعك . لحمها الأبيض المدكوك صار مخططا بخطوط زرقاء كزراريق الأرض . لم يهمنى صواتها ، ولا هياج العيال الذين استيقظوا من النوم مذعورين . حبستها فى حجرتها ؛ طلعت لأم صابر ولكن دمى كان قد تعكر على الآخر ؛ إحترقت كل الأنفاس جمدت الجذوة ؛

حاولت أم صابر تحويل الشرر المتطاير الى نار مشتعلة فأنقذت بذلك ما يمكن إنقاذه . هدنى التعب والنكد فاستسلمت لنوم عميق ..

.. فجأة رأيتنى واقفا على سطح دارنا عاريا إلا من السروال ، وقد أمسكت بيدىَ فرخ حمام كان من الواضح أننى معتز به وخائف عليه من الطيران ؛ إلا أننى وبدون توقع فوجئت بأنى فككت يدى عن فرخ الحمام شيئا فشيئا كأننى كنت أريد أن أرى ماذا سيفعل حين يشعر أن القيد قد خف عنه ؛ فما دريت إلا وأنا أطلق فرخ الحمام فى الفضاء بإرادتى ؛ ورحت أراقبه وهو يطير ثم يختبىء فى الأفق البعيد .

صحوت من النوم متشائما من هذه الرؤيا . فلما علمت أن اليوم هو الخميس تذكرت أنه موعد زيارة حماى الحاج عبد الرحمن الذى اعتاد زيارتنا يوم الخميس من كل أسبوع مع حماتى ، حاملين لابنتهما منابها مما أكلوه طوال الأسبوع ..

الرجل صديقى بصرف النظر عن ابنته وأفاعيلها ، وله الفضل فى إرجاع أم صابر لعيالها ؛ وأنا أعتدت الترحيب به جيدا ، يعنى لابد أن أذبح له على الغداء..

رحبنا بالرجل على قدر ما استطعنا . إلا أن بنته نكدت عليه وعلينا جميعا ؛ رأسها وألف سيف أن يأخذها معه إلى غير عودة . لم تتورع عن تعرية جسمها أمامنا لتريه آثار الخيزرانة على ظهرها وفخذيها وذراعيها . تألم الرجل وتألمت حماتى أشد الألم من رؤية آثار الضرب ؛ وتألمت أنا وأم صابر لألمهما ؛ حكيت لهما ما جرى من ابنتهما ؛ فنكس الرجل وجهه فى الأرض برهة طويلة ثم قال :

– « اسمع يا أحمد ! أنا عملت معك الواجب مضاعفا ! أعطيتك ابنتى هذه وهى وحيدتى لكى تخدمك وتخدم عيالك فى غيبة أمهم ! وساعدتك فى الصلح مع أم صابر ! وأنا أحب أن تبقى صديقا لى وأن أبقى صديقا لك أزورك وتزورنى فى كل وقت ! وليس لى عندك سوى طلب واحد : أن تطلق هذه البنت الغلبانة وتتركها لحال سبيلها ! وهنيئا لك عودة أم صابر ويا دار ما دخلك شر ! »

– « يعنى هذا ما تراه يا حاج عبد الرحمن ؟»

– «ليس لى طلب غيره ! فأرحنى لنبقى أصدقاء ! »

– «خلاص يا عم ! اللى تشوفه نعمله !»

قمنا فى الحال إلى المأذون . طلقت رحمة . قامت هى فلمت هدومها فى صرتين . وكانت قد زيت لنا طائفة من البط والأوز والدجاج والأرانب ؛ فأتت بقفة وبدأت تمسك بالدجاج والبط . فصاح فيها أبوها من غيظ ومن كمد :

– « ما هذا الذى تفعلين ؟»

صاحت فيه :

– «تربيتى ! تعبى وشقاى !»

– «أمك طالق بالثلاثة إذا أخذت شيئا ! هل جُننت ؟ هل دارنا ناقصة ؟! هاتى هدومك ولا شىء غيرها !»

حملت هدومها ، سبقت أبويها الى الشارع . وحينما مد الرجل يده ليسلم علىّ ارتميت فى حضنه وصار جسدى يرتعش من شدة البكاء . وكنت أشعر بكفه الكبيرة تطبطب على كتفى برفق وحنو ، وصوته المخنوق بالدموع يردد :

– «كل شىء قسمة ونصيب !»

مشيت معه لأوصله الى أول الطريق ، فحلف بالطلاق ألا أغادر باب الدار ؛ ودهمنى صوت قادم من دهاليز الدار الكبيرة عرفت فيه صوت عمتى العجوز يصيح بعمق يزلزلنى من الأعماق : مكتو .. و .. و .. بْ . والعجيب أنها لم تكن قد علمت بعد بما جرى .

عركة البلدوزر

رأيتنى ماشيا وحدى فى شارع لست أعرفه ؛ فى مدينة لست منها وليست منى فى شىء . مع ذلك كان يظهر لى كأننى وافد اليها لتوى كى أبحث فيها عن أكل عيشى . كنت أشعر أن زوجتى وعيالى موجودون فى مكان ما من هذه البلدة لا أعرفه وإن كنت على شىء من الثقة الغامضة فى أننى استطيع الوصول اليهم متى شئت فى أى لحظة ، إلا أننى لم أكن أريد الذهاب إليهم إلا بعد أن أنتهى من عمل شىء ما ، كان من الواضح أننى أريد أن أعمله لكنه غائب عن بالى الآن وها أنذا أحاول أن أتذكره .. صرت أسأل نفسى : إلى أين أنت ذاهب الآن يا ولد الفرطوس ؟.

فى الحال فوجئت برجل يلحق بى فى الطريق ويمشى بجوارى جنبا لجنب . ورغم اننى لم أكن أعرف من هو بالضبط فإننى قد شعرت بأنى مرتبط به من أول الطريق لولا أنه – فيما يظهر – كان يتلكأ فى خطوه فيما أنا مسرع الخطى ؛ وبأننا ذاهبان سويا الى مكان مجهول من أجل موضوع خيل لى أنه يخصنى . لكننى بدأت أخاف منه ؛ وزعلت من نفسى : كيف امشى هكذا كالأهبل فى الزفة مع شخص لا أعرفه فى مكان لا أعرفه مع أننى فى الأصل ابن ليل قديم وقاطع طريق سابق يخشانى أهل اسيوط ولى صيت كالطبل فى الصعيد قبل أن أتوب الى الله وأبتعد عن الحرام بجميع أنواعه ؟!.

صرنا فى مواجهة مبان متكومة فوق بعضها كالحة المنظر يتخللها سكك ودروب كالخطوط المتعرجة . صارت هذه المبانى كثعبان يقترب منى فاتحا فمه يريد ابتلاعى . عندئذ شدنى الرجل من ذراعى ليوجهنى إلى حارة ضيقة . ثم تقدمنى . وبعد خطوات معدودة وسط بيوت عتيقة متهالكة توقف صاحبى ؛ فتوقفت

أنا الآخر . أشار على بيت يتميز عن كافة البيوت من حوله بأنه مرتفع جدا ؛ طول جدرانه ثلاثة أضعاف طول جدران بقية البيوت ، لكنه بغير سقف ، نوافذه وأبوابه منزوعة الدرف إلا أن شكله مع ذلك مهيب ؛ يذكرنى ببيوت العمد والأعيان فى بلاد الصعيد . قال صاحبى :

– « هذا هو بيتك !»

صحت فيه بفرح :

– «بيتى ؟! تقول إنه بيتى ؟!»

– «المهم هل أعجبك ؟!»

– «مليح ! رضا لمن يرضى ! هل أنا أطوله ؟!»

– « مبروك عليك ! هو لك !»

– « كيف يا بو العم ؟! أهى البيوت مرمية هكذا فى الطريق لمن يلتقطها ؟!»

شدنى من ذراعى فى مودة :

– «تعال إذن لنتفاهم !»

مشيت معه بدون تردد . دخل بى البيت ليفرجنى على مساحته وحجراته الكثيرة . سبقنى الى الحجرة الجوانية التى بدت لى من ضيق فتحتها أنها لابد أن تكون الكنيف لشدة ما يحيطها ويفح منها من ظلمة ثقيلة . ظننت أنه دخل ليقضى حاجته وسيعود بعد قليل ؛ فبقيت واقفا فى انتظاره . طالت غيبته ؛ فتقدمت فى وجل ؛ دخلت من الفتحة بنظرات متفحصة ؛ فإذا هو كبواية جحا ، تفتح على شارع خلفى ، سرعان ما صرت فى قلبه .

إقشعر بدنى من شدة الخوف إذ إن الشارع كانت تشمله ريبة مقبضة . صرت أجرى ، والبيت يجرى ورائى وأنا مع ذلك بين خائف ومسرور ، باك وضاحك ؛ إلى أن تعثرت ، فانكفأت فارتطم ذراعى بشىء إنبعث منه صوت جعجاع مدو .

فتحت عينى متأوها من شدة الألم فى يدى ، حيث تبينت أننى لا أزال راقدا فى الدكان بين عيالى ؛ بجوارى صفوف من صفائح الملوحة إرتطمت بها يدى فتعورت .

قمت قاعدا . كان الفجر يقول : الله أكبر . نهضت فتوضأت وصليت . ما كاد ضوء الصبح يبص من تحت عقب الباب حتى صحيت أم صابر . رفعنا الباب ، سحبنا السبوبة خارج الدكان ؛ بعثت صابر يشترى ببريزة فول مدمس نفطر به .

قلبى وجعنى من هذا المنام الغامض المقلق ، لكننى سرعان ما نسيته فى سوق غمره حيث ملأت الجنبة بالسمك الطازج وعدت بها من غمره إلى منشية ناصر . المنشية حديثة النشأة ، مجرد بيوت مبنية بشكل عشوائى على أرض مملوكة بوضع اليد . وقد استأجرت هذا الدكان من رجل قبطى بواسطة ابن خالتى وزوج أختى دياب منازع ، وهو من الذين وضعوا أيديهم على قطعة ارض ، وبناها بيتا على قده . ولأن الدكان منزو فى حارة سد ضيقة وبعيدة عن الطريق العمومى لم يكن الزبائن يعرفون عنه شيئا ؛ وكانت سمكاتى تتعفن طول النهار ، فأعبأها فى صفائح وأحولها الى ملوحة . وكان لابد أن أذهب بنفسى الى الزبائن ؛ فصرت أترك عيالى فى الدكان يبيعون الملوحة لمن يتصادف مروره فى هذه الحارة ، وأسرح أنا بجنبة السمك فى منشية ناصر وأصعد بها الى جبل المقطم ، وأعود آخر النهار مهدود الحيل .

لما عدت ذلك النهار قالت لى أم صابر إن الحاج مخلوف بعث يطلبنى فى أمر مهم . الحاج مخلوف هذا يا بو العم يعتبر عمدة منشية ناصر ، الكبير والصغير يلجأ اليه فى كل أمر من الأمور ، وهو فى العادة يبذل جهداً فى الخدمة ..

– «خير يا حاج مخلوف ؟»

– « يا أبو صابر ! صاحب البيت سيهده ويبنيه عمارة كبيرة ! ومطلوب منك إخلاء الدكان لمدة خمسة عشر يوما فقط لكى تتسلم دكانا محترما فى عمارة

محترمة ! كل ما فى الأمر انه يرفع الايجار من مائة وخمسين قرشا الى ستة جنيهات فى الشهر !»

– «ولكن يا حاج مخلوف الرجل لم يكتب لى عقدا ولا يعطينى إيصالات بالإيجار !»

– « ومن فى منشية ناصر يكتب عقدا أو إيصالات !»

– « هل تضمن لى أنه يعطينى الدكان بعدما يبنيه ؟!

– « طبعا أضمن لك !»

– « ولكن ! دبرنى يا حاج مخلوف ! أين أذهب الآن بعيالى ؟ وصفائح اللوحة أين أخزنها ؟»

رجل سكران كان واقفا بجوار الحاج مخلوف يتطوح ويتلعثم إقترب منى صائحا فى ود :

– « إسمع يا راجل انت ! سأدلك على مكان تضع فيه سبوبتك وجثث عيالك طوال نصف الشهر الذى سيحتاجه الرجل لبناء البيت ! تعال معى !»

صحبنى الى طرب المجاورين فى مواجهة المنشية . البلدوزرات الضخمة كانت شغالة فى اقتلاع المقابر واستئصال شأفتها بكريكات مسنونة ، تشق ذلك الشارع الذى سمى بالأوستراد .. عظام الموتى كانت متناثرة فى كل شبر من الطريق ؛ ندوس فوقها فيقشعر بدنى ، يركبنى الخوف ؛ تتعلق فى حذائى كتل من الشعر تجر خلفها جماجم سيدات لا تزال طرية . يلتف الشعر النسائى الطويل حول ساقى ؛ أحاول تخليص قدمى منه ؛ فيتقافز الرأس يتوه فى ذيل جلبابى ؛ أصرخ من شدة الفزع ؛ أنحنى مقعيا لأخلص خصل الشعر من نعل حذائى الكاوتشوك المضلع ؛ ألف الرأس بالشعر ؛ أركنه على جنب بين مئات من الجماجم المتكومة ، بعضها كامل الاستدارة ، بعضها الآخر متآكل لا يبقى منها سوى أسنان غليظة

منفرجة شكلها مخيف . صرنا كأننا نجوس فى حقل من البطيخ عاثت فيه الذئاب فسادا .

توقف الرجل السكران أمام حوش واسع مكشوف . سحبنى فدخلناه . كان القمر قد هرب من سماء المدينة الراقدة تحت سفح جبل المقطم غارقة فى سحب ثقيلة من الدخان كشحم سائل . كان كأنه يطوف بهذه المقابر وقد احمر وجهه غضبا وخجلا مما يرى ، يرتد أحيانا ، مخفيا وجهه خلف مشربيات السحاب الرمادى ؛ ثم لا يلبث حتى يعود سافرا ليطل علينا داخل الحوش يتصنت وينده ؛ وأنا وحدى الذى أشعر بما هو فيه من زعل . قال الرجل السكران :

– « هذا حوش لا صاحب له ! انتهى كل أفراد عائلته من الوجود ! بيدى هاتين دفنت آخر فرد فيه منذ ثلاثين عاما ! يمكنك أن ترص سبوبتك هنا وتظلل على عيالك بشىء من البوص والحصير ! وتنام فى اطمئنان لمدة جمعتين !!»

انفجرت فيه :

– «كيف يا بو العم أنام هنا وسط عظام وجماجم ! تحيط بنا المقابر من كل ناحية ؟! عيالى كيف يبيتون هنا ؟! إذا كنت أنا خائف فما بالك بهم ؟!»

– « عيب عليك يا رجل ! أنت صعيدى فكيف تخاف ؟! خوفك يخيف العيال ! البلدوزرات شغالة حولك طول الليل والنهار !! فمم تخاف ؟ الحكاية كلها جمعتين اثنتين يكون الرجل قد ابتنى لك دكانا محترما تنتقل إليه !»

ربك والحق أنا كنت معجبا بفكرة بناء الدكان هذه تحت عمارة محترمة ؛ فصدقت الرجل مضطرا .

فى الصباح ناديت ولد أختى وبعض بلدياتى . نقلنا صفائح الملوحة والحصير والمخدة والبطانية وزير الماء والكام حلة وطبق ألمونيوم . إشتريت مجموعة من الأسبتة الخوصية والأبراش المصنوعة من ليف النخيل ، وحصائر البوص . أقمت

ظُلة مسقوفة وساترا سترت به عيالى . كانت العيال تقعد قرب الطريق المشقوق المقلقل فارشة بصفائح الملوحة ، وأتوكل أنا على الله سارحا بجنبة السمك .

يوم والثانى ، وفوجئت بمهندس الطريق يقتحم العشة ويأمر رجاله بهدمها ويمشى تاركا سبوبتى وكل حاجاتى مبعثرة بين الجماجم وعظام الأذرع والسيقان ما أن اختفى حتى شمرت ذراعى وأعدت نصب العشة من جديد وأويت الى فراشى .

فإذا به يطب علينا فى اليوم التالى ويهدمها . فبعد أن مشى أعدت إقامتها . فجاء بعد يومين وهدمها ؛ وكنت فى هذه المرة موجودا . قلت له :

– « يا سعادة البك هما جمعتان فقط ! هل تظن أننى أقبل المبيت بعيالى وسط هذه الجماجم والعظام ؟! »

ردّ فى قسوة :

– « أنت صعيدى لبط ! جئت تستوطن هنا وتستولى على مكان بوضع اليد مثل أقاربك الذين احتلوا الجبل !! »

– « يا سعادة البك ! علىّ الطلاق بالتلاتة هما جمعتان فقط ! إن صاحب البيت سينتهى من بناء العمارة بعد أيام وسيرد لى دكانى فيها ! »

لمحت بعض اللين فى ملامح وجهه ، خطفت الحصيرة فرشتها بسرعة :

– «تتغدى يا سعادة البيه ؟ عندى ملوحة معتبرة تستأهل حنكك ! زبدة ! أنت معزوم عندى ! قل لرجالك يقعدون ! »

كان جوعانا بالفعل . قعد على الحصير ؛ فقعد الرجلان المرافقان له . بعثت ولدى الى الفرن القريب فاشترى تلا كبيرا من الأرغفة الساخنة مع حزم من البصل والجرجير والليمون . إنتقيت من الصفائح أطيب ما فيها ؛ قامت أم صابر – الله يكرمها – بفتحها وتنظيفها وإغراقها فى الخل والليمون . فردنا كل ذلك

على الطبلية فنزلوا عليه حتتك بتتك؛ مسحوه مسحا وتجشئوا ؛ ثم شربوا الحاجة الساقعة ، وبعدها الشاى . قال المهندس :

– «معك عقد إيجار بالدكان ؟»

– « لماذا عدم المؤاخذة ؟!»

– « إن كان معك فهاته لى وأنا اخلص لك الدكان من صاحب البيت ! »

– « يا بيه ! لا أحد فى منشية ناصر يكتب عقودا ! »

وقف المهندس . سحب بكرة المتر من جيبه . أخذ يقيس حدود الشارع ؛ ثم خط أربعة أمتار فى أربعة أمتار وقال :

– غدا تبنى لك تحويطة فى هذا المكان على ضمانتى ! »

قلت لكى أقنعه بصدق وعدى :

– « ولماذا ابنى ؟ الدكان أوشك على الإنتهاء ! »

قال وهو ينصرف :

– « أنا باق هنا على كل حال ! إذا احتجت شيئا قل لى ! »

ومضى لحال سبيله ..

بعد مرور شهرين ذهبت الى العمارة التى بناها الرجل فلم أجد فيها أى دكاكين . سابت ركبى . جريت الى الحاج مخلوف ؛ صرت ألطم على خدى :

– «شفت ياحاج مخلوف ؟! هذا صاحبك لم يف بوعده ! أنت الضامن له شربتنى أنا وعيالى وسبوبتى ! ماذا أفعل الآن؟! دبرنى!».

هدأنى الحاج مخلوف، حلف برأس أبيه أن يبنى لى دكاناً فى ملكه هو بشرط أن أمهله قليلا من الوقت. ربك والحق لم أجد فائدة من البكاء على اللبن المسكوب فى الأرض. فوضت أمرى إلى الله وعدت إلى المقابر. قال المهندس:

– «إفعل ما قلت لك ! الشارع سيتم رصفه! وهذا المكان سيصبح عامرا بعد شهر واحد! لا تخف ! هذه المساحة التى حددتها لك ليست ملكا لأحد ولا حتى الحكومة!:

– ولكن يابيه! ليس هنا مياه فكيف أبنى؟!»

– «سأبعث لك فناطيس المياه وأنت تبنى فى الليل!»

قام مهندس الطريق بالواجب أربعة وعشرين قيراطا، أرسل البلدوزر الدكاك فدك الأرض وسواها جيدا، ثم أرسل فناطيس المياه الحكومية فملأتُ بها البراميل. جئت بالبنا، إتفقت مع المقاول على أن يرسل لى الطوب مائتين – مائتين، حتى لا نزحم المكان وتلفت النظر، مسافة ما يذهب ويعود بالمائتين نكون قد انتهينا من بناء المائتين السابقتين على ضوء كيزان من الألومنيوم ملأتها بالجاز وعبأتها بالخرق البالية وأشعلت فيها النار تضىء لنا.

طلع النهار وقد تم بناء تحويطة تضم حجرة للنوم وحوشا لتخزين السبوبة – أتيت بحصائر البوص فطرحتها فوق السقف ومن فوقها طرحت أسبتة وأجولة وخرقا.

دارت عجلة الشغل يابو العم. الشارع الجديد تم رصفه وبدأ يشغى بالحركة. ما كاد الاطمئنان يدخلنى حتى ظهرت منغصات لم أعمل حسابها: كان الشتاء على الباب لكننى لم أره إلا يوم أن هطل المطر علينا فأغرقنا، لم يعد فى التحويطة كلها خرم إبرة إلا وتكومت فيه المياه. شربت حصائر البوص والأجولة مياهاً كثيرة راحت تصبها فوقنا على مهل فى اللحظات التى يتوقف فيها هطول المطر مؤقتا.

أخذت نيلى فى أسنانى وطرت إلى وكالة البلح فاشتريت خيمة قديمة قماشها سميك ونسيجه مدكوك فى بعضه لا يبيت فيه المطر. طرحتها فوق حصائر البوص، ثبت أطرافها فى الجدران بعناية، لكننى حينما نزلت هطل المطر، فإذا بخروم مكبسلة فى قماش الخيمة معدة لربطها فى بعضها بالخيوط التخينة راحت تسرب خيوط المطر كالحنفيات المفتوحة عن آخرها. كنا فى عز الليل، مع ذلك سحبت المسلة والخيط، تسلقت الجدار إلى السطح تحت وابل المطر، صرت أتحسس قماش الخيمة فإذا اصطدمت أصابعى بخرم خيطته وكسكرت عليه، وأم

صابر تنادى من تحتها قائلة إن خيوط المطر لم تنقطع، وتشير بأصبعها قائلة: هنا وهنا وهنا، مفترضة أننى أراها. هنا فين يامره يا ام مخ ضلم ؟!

الظلام وسيل المطر وعصف الريح كل ذلك يغرقنى وأنا أزحف فوق السقف بحذر حتى لا تأخذنى الخيمة وتنزل، خاصة أن العمود الخشبى الذى غرزته فى الأرض لرفعها عليه جعلها كرأس الفجلة يستحيل السير فوقها . ربنا هدانى لفكرة ، فناديت أم صابر:

– «ياوليه! عندك بوصة طويلة مركونة بجوار الصفائح هاتيها بسرعة!».

– «ماذا ستفعل بها ؟!».

– «إرفعيها على طول ذراعك ! أدخليها في الخرم الذى يخر منه الماء!».

فلما فعلت، صار بإمكانى أن أمسك بطرف البوصة المطل من الخرم، فأقبض على الخرم وأقوم بتخييطه. وهكذا من خرم إلى خرم بواسطة البوصة خيطت جميع الأخرام فكفت المياه عن السقوط. نزلت فخلعت ثيابى، لو كان باستطاعتى لخلعت جسدى نفسه لأغيره بجسد ناشف. لكن أم صابر أوقدت النار في حطب وخشب كان مختلطا ببقايا عظام وجماجم صارت تطقطق وتفرقع وتصفعنا على وجوهنا. وأخيرا جاءنى النوم ملفوفا فى حضن أم صابر.

كل هذه المتاعب نسيناها أمام حالة الرواج التى طرأت علينا، حيث إن شارع الأوستراد قد امتلأ بالسيارات الملاكى والأجرة والأتوبيسات الذاهبة إلى المعادى وحلوان والعباسية والسيدة عيشة والدراسة. ناس بالألوف يمرون من أمامنا، يقفون فى انتظار السيارات، يشترون سمكا وفسيخا وملوحة. جرى القرش فى أيدينا بنشاط كبير. حوشت من بيع الملوحة وحدها مبلغا طيبا جاء دفعة واحدة كأنه الحلم .

لم يستمر الحال طويلاً يابو العم ..

فى صبيحة أحد الأيام فوجئت بمجموعة من رئاسة الحى تقف أمام فرشى، وكل واحد منهم بكلمة:

– «من الذى أذن لك بالبناء هنا يارجل أنت ؟!».

– «تجيء من الصعيد حافيا لتحتل أرض الناس؟!».

– «ألا تعرف أن هذه أرض الحكومة ومسئولة من رئاسة الحى؟!».

– «هذا آخر يوم لك هنا ! غداً تلم عزالك وترحل!».

– «أو تدفع لنا ثلاثين جنيها فى الشهر!».

هكذا قال من ظهر أنه كبيرهم. جابلتهم بالتين حتى صرفتهم وفى يد كل منهم قرطاس ملان بالملوحة دون أن يدفع مليما واحدا. ثم ذهبت إلى واحد أعرفه من الحزب الوطنى فى حى قايتباى إسمه محمد لطفى، ابن عم إبراهيم الغول صاحب المقهى المواجهة لمسجد قايتباى. شكوت له مما حدث. أوصانى بألا أدفع لهم شيئا .. فلما علم أنهم جاءونى ثانية ركب الفسبة وركبت من خلفه وتوجهنا إلى رياسة الحى . صاح فيهم غاضبا:

– «عم أحمد هذا تبعى! لا يصح أن تضايقوه! إننا يجب أن نتبادل الاحترام فلا يعتدى أحدنا على رجال الآخر! ».

هزوا رؤوسهم موافقين وضاحكين و.خلاص ياعم إشرب قهوتك.. الخ. وانصرفنا، ولكنني كنت على يقين من أننى وقعت فى أيدي مجموعة لا ترحم ولن تتركنى فى حالى قبل أن يخربوا بيتى، ففوضت أمرى إلى الله فيهم، ومشيت إلى مسجد قايتباى لصلاة العشاء.

وفيما كنت أغادر ميدان المسجد فوجئت برجل يدعى سيد غريب يهرول خلفى صائحا :

– «تعال ! سأريك شيئا!».

صار يخرم بى فى حارات ضيقة خلال بيوت عتيقة، متهالكة، متكومة فوق بعضها. وكلما سألته: واخدنى فين ياعرب؟ يشدنى قائلا: تعال بس. إلى أن توقف بى أمام بيت يتميز عن بقية البيوت بجدران عالية، لكنه بغير سقف، منزوع الأبواب والشبابيك. أشار إليه قائلا بكل بساطة:

– «أريد أن أبيع لك هذا البيت!».

وقفت أمام البيت مذهولا . لقد سبق أن رأيته من قبل، عشت هذا الموقف نفسه من قبل. فلما تذكرت المنام الذى رأيته منذ بضعة أشهر أيقنت أن الله قد آذن لى باستقرار. خفت أن تظهر لهفتى وفرحتى فيبيع سيد ويشترى فىّ براحته. لكنه لم يتركنى حتى كتبنا عقد البيع لدى المحامى.

عدت إلى عيالى فرحا. فإذا بى أجد أن البلدوزر اللعين، الذى أرسلته رياسة الحى ، قد هدم جدرانى وبعثر عفشى وسبوبتى، وعيالى يصوتون ويبكون. فوقفت ذاهلا أتأمل فى فعل الأيام وتصاريف القدر.

مدينة الحمى

المدينة التى شفتنى أمشى فى شوارعها بسرعة محمومة كانت مدينة غريبة، عمرى ماشفتها فى حياتى من قبل. شوارع مرصوفة ونظيفة كالمرآة. كلها متشابهة ولا شىء يميز شارعا عن الآخر. نفس الشكل نفس المدخل والمخرج. الداخل نفسها مخارج، كما أن المخارج مداخل. ما تكاد تدخل حتى تراك قد خرجت فى الحال فيما لا يظهر لك إن كنت قد سلكت شارعا جديدا أم أنك لاتزال فى نفس الشارع. المبانى كذلك، الخالق الناطق صورة متكررة، كلها بيضاء، واطئة، بشرفات زجاجية من جميع النواحى فلا تستطيع أن تعرف وجه البناية من ظهرها من أى جنب فيها. تتعدد النواصى بعدد الخطوات، كل بيت على ناصية. وكل شارع تقطعه عشرات الشوارع مثل لوحة الكلمات المتقاطعة التى تنشرها الصحف، مثل صينية الهريسة خرطتها السكين خرطا متساوية وباعدت بين خرطها ، بين حين وآخر يلتقينى شخص أو شخصان أو ثلاثة بالكتير، يمشون فى تكاسل وعيونهم مكسورة كأنهم يبحثون عن حطامها فى الأرض، تبدو عليهم الذلة والمسكنة. فى نفس الوقت شكلهم غير مطمئن على الاطلاق فمن تحت جباههم الواطئة تتسرب نظرات مختلسة تشى بأنهم فى منتهى الخسة لا مانع لديهم من الخطف والنهش والطرمخة على أى جريمة يرونها أو يفعلونها متى طعمت أفواههم..

ربما لهذا لاحظت أنى خائف جدا على محفظة نقودى وفيها بتاع الناس. أضم عليها ذراعى داخل جيب الصديرى، وأضغط بقوة، لأقتنع أنها لاتزال مكنونة فى مكمنها..

محنتى كانت كبيرة، فكنت أجرى فى هذه الشوارع القصيرة الطويلة فى آن، المموهة إلى حد الإلتباس التام. المشى تحول إلى جرى رغما عنى، مجرد جرى،

من مكان إلى نفس المكان بعد برهة وجيزة، وكأننى تعلقت بذراع طاحونة صارت تلفنى بقوة قاسية غادرة ماكرة، نوخينى بالدوخة..

هدفى مع ذلك كان معلناً وواضحا. فقد رحت أستوقف كل من يلتقينى فى الطريق لأسأله فى رجاء واستعطاف:

– «المحطة فين لو سمحت؟!».

فيشير لى من خلف ظهره بذراعه قائلا :

– «قدام!».

قدام ! قدام ! قدام ! .. وأنا كلما تصورت أننى أمشى لقدام فى اتجاه المحطة المزعومة يتضح لى أننى صرت فى نفس المكان الذى غادرته – أو لعلنى لم أغادره – منذ قليل ..

فى عز شعورى بالحنق والغضب ضربت بعينى على الطريق فرأيت اثنين من بلدتنا كوم سعيد مركز صبدفا: نعيمة وزوجها محمد أبو حسين – ردت فىّ الروح. جريت إليهما حضنتهما فى اشتياق كبير. سألتهما:

– «على فين العزم إن شاء الله؟».

دون أن يظهر عليهما أى قدر من المفاجأة أو الفرح أو حتى الزعل قالا معا فى نفس واحد:

– «إلى فرح بنت العمدة! فى بلدة قريبة من هنا! وقد تأخرنا! ومكان الفرح لا ينفع الوصول إليه إلا بالركايب وليس هنا ركايب ولكن لماذا الركايب وربنا قد أهدانا ساقين وقدمين؟!».

واستأنفا المشى فى الحال ..

قلبى إنطلق يجرى وراءهما مشغوفا ملهوفا، ومن ورائه صوتى المنكبس يرجوهما :

– «دلونى على المحطة! فى عرضكم يا مسلمين!».

إلتفتا نصف التفاتة وأشارا من خلف ظهريهما فى لهجة تنم عن الثقة قالا:

– «قدام ! قدام!».

شعرت بالعجز التام. إزداد خوفى على المخفظة صرت أحضنها بذراعى الإثنين وأنا أطيل الصراخ المحموم :

- «المحطة ! ياناس! ياخلق هوه ! أبوس رجلكم! دلونى على المحطة ! واحد ابن حلال منكم يشاور لى عليها ولو بأجر يطلبه منى ! من يقوينى إلى المحطة سأدفع له ما يشاء!».

لكن الأنظار كلها كانت لاهية عنى تماما لأنها منصبة فيما ظهر لى على محفظتى كلها التى صارت بارزة منفوخة . وكانت النظرات تزداد سعاراً كلما رأتنى أرتعد. فى تزايد محموم ظهر الناس من كل الشوارع، بعضهم مشى ورائى، بعضهم الآخر حاذانى فى مودة لزجة كانتماء سياسى نصاب جربوع لا وزن له فى بلاده الأصلية إن كان له ثمة من أصل أو بلد. أما البعض الثالث فراح يسبقنى ليلتفت مراقبا وجهى وحركاتى واحتضانى للمحفظة بارتعاد. ثم إن الأيدى بدأت تمتد نحوى بإلحاح ثقيل سمج، شكلها يشحذ فى مسكنة واستعطاف فيما العيون ملؤها الرغبة فى الخطف والقتل والسحل. صرت أصرخ وأجرى، أجرى وأصرخ، والدنيا بكامل هيئتها تجرى ورائى . من شدة الفزع صحوت من النوم مضطرب الأنفاس أقول يا سابل الستر إستر ياكريم.

سرعان ما استرددت الوعى، تفطنت إلى أننا فى العاشر من شهر رمضان المعظم، وأن المغرب على أهبة الآذان. قمت من فورى فتوضأت، مشيت إلى جامع قايتباى لأنتظر صلاة المغرب جماعة قبل الافطار كالعادة.

على طبلية الافطار العامر أُنسيت المنام. عيالى كلهم حولى، أعد أيديهم الممتدة علي الطبلية يداً يداً حتى أزداد اطمئنانا على أن الوجوه الملمومة حولى على الطبلية ليست مجرد وجوه من الأشباح التى قد تظهر وتختفى. كل وجه لابد أن أطمئن على يديه الممدودتين على الطبلية. وفى سبيل الإستئناس بهم والتأكد صوتيا من وجودهم حولى على نفس الطبلية أروح أقطع من منابى فصوصا من اللحم أدفعها أمام هذا وذاك، كل ذلك لكى يتكلموا فأسمع أصواتهم تشكر أو تعترض فأزداد يقيناً من وجودى وعزوتى.

رُفعت الطبلية يابو العم، فمكثنا جلوسا فى مطارحنا نشرب الشاى الثقيل على مهل وفى سبيله نتعفف عن أشياء كنا نتدله فى غرامها من قبل كالخشاف والمشمشية والمهلبية.

هى رشفة واحدة رشفها ولدى محمد، الطالب فى دبلوم التجارة، الذى

أصبحت أسترجله وأعتمد عليه في شغل السوق والحسابات والمشاوير المهمة. تخيل يابو العم ، إحمرً وجهه فجأة وانزرد. مال رأسه على صدره، تطوح على جنبه راقدا يرتعش رغم سخونة جسمه الشديدة. مددناه ذاهلين، غابت عيناه من جرابيهما واختفتا تماما.

إشتغل الصوات يابو العم . إنقلبت الدار. جاء مختار وعزت ولدا أختى مع زوجتيهما سناء وآمال . جاء جيران الجيران يستفهمون جلية الأمر. قال الناصحون:

– «إنقلوه فورا إلى مستشفى الحميات!»

فورا نقلناه إلى مستشفى الحميات فى سيارة من سيارات الأجرة هيأها الله لنا على الطريق المسمى بالأوستراد.

استقبلتنا بنت مائعة تمضغ اللبان بهدوء وبلادة يكفيان لإطفاء حرارة الشمس. إنفقعت مرارتى إلى أن انتهت نيافتها – بنت اللبؤة – من تدوين البيانات وإلقاء الأسئلة الثقيلة الظل المحيرة بحثا عن جواب مناسب لها. فى الاستقبال كشف عليه طبيب شاب يبدو – من فرط جهله البارز للأعمى – أن علمه أثمن من أن يهينه فى خدمة المرضى. لوى بوزه كثيرا، إشمأز طويلا، نظر لنا فى اشمئناط ولوم وتقريع حتى كاد يجردنا من آدميتنا، وفى النهاية أشّر بعزله فى عنبر العزل.

فإذا بعنبر العزل هذا يابو العم أجدر بأن يسمى عنبر الهزل. مجرد مخزن، أى نعم ، مخزن بكل معنى الكلمة لا يصلح مع ذلك إلا لتخزين الحديد الخردة والكراكيب. حتى ما يُفترض أنه سرير للنوم كان أشبه بالدكك العتيقة الكالحة لدرجة أننى تخيلت – أو لعلنى رأيت – جرذانا وعرساً تقفز وتزحف فى ثقة واطمئنان – أما هذه الأصوات النحيلة تتأوه تكح تتألم تصدر عن أشباح راقدة وقاعدة متدثرة باللون الأسود بجميع درجاته فإنها بشر مثلنا كل جريمتهم أنهم ينتمون لقوم يضيقون بكثرتهم فصاروا يتلذذون بتوصيل الأرواح إلى القبور بأى شكل، وإلا ما صح أن يُعزل مريض بالحمى فى مثل هذا المخزن ليبقى فى انتظار موته. لا أظن أن طبيبا من «أسيادنا» هؤلاء يمكن أن يتذكر هذه الجثث فى هذا المخزن ليعودها ولو لمرة واحدة.

أنا يابو العم رأيت ولدى يوضع بين هذه الكراكيب فى هذه الحجرة المظلمة

الرطبة، وشبت النار فى صدرى. طلعتُ أجرى فى طرقة المستشفى صارخا موتورا:

– «ألهذا المستشفى مدير؟! أين هذا المدير ؟ أريد مقابلة المدير! دلونى على مكتب المدير ياناس ! ياخلق هوه ! الولد سيضيع منى فى غمضة عين! حرام عليكم ياكفره!»

طُرقات المستشفى كلها متشابهة، نفس الأبنية تتكرر بنفس الحجم نفس الشكل نفس الشرفات والأبواب واللون الأبيض الكالح. كل طرقة تسلمنى إلى طرقات، وكل عطفة تبلبلنى بأشباه لها متكررات . حتى التمورجية كلهم متشابهون فى كل شىء، القلائل منهم ومن الأفندية الذين صادفتهم فى الطرقات كنت أراهم من ظهورهم وفى لمح البصر أراهم فى مواجهتى وجها لوجه . أسأل الواحد منهم فى استعطاف واسترحام:

– «عايز المدير ! من فضلك الله لا يسيئك دلنى على مكتبه!»

فيشير لى من خلف ظهره قائلا:

– «قدام!»

لكنه يتلكأ، يركز عينيه الكسيرتين فى حركة يدى، على محفظتى، يطل من نظراته الملق واصطناع الذل والمسكنة، لكن عينىّ الأصبع من عيونهم ترى ما وراء نظراتهم من خسة وقلة أصل. لا أجد مفرا من فتح محفظتى وإعطائه لقمة. فإذا به قد استرجل فجأة، ورفع صدره، وانبرى يشرح لى مكان مكتب المدير. ملخص وصفه أننى يجب أن أعد ثلاث طرقات ثم أدخل الرابعة على اليمين، ثم أحود على اليسار لأرى فى مواجهتى ثلاث بنايات ، أترك الأولى والثانية ثم أدخل الثالثة على اليسار.

يقول هذا ويمضى، فأمشى أنا تائها حائرا، وبعد عدة تحويدات، وعدة بنايات، كلها ينطبق عليها نفس الوصف، أرانى قد صرت لصق المخزن الذى يرقد فيه ولدى كأننا يابدر لا رحنا ولا جينا. فأرتد صارخا، أكاد أقبل العتبات حتى يغيثنى غائث يقودنى إلى مكتب المدير.

خوفى على المحفظة صار يرتفع ، يكاد يتساوى مع خوفى على ولدى. مع ذلك

رأيت فيها المنقذ من الضلال ومن شرور البشر. صحيح أن ما فيها بتاع الناس، إلا أنني يجب أن أنقذ ولدى وبعدها يحلها الحلال الذى لا يغفل ولاينام. صرت أبادر بالدفع أقترب ممن يقابلنى، أغمزه بورقة مالية مطوية، فيصف لى خفيا يبدو - بذمة وضمير وصفاً قابلاً للتنفيذ بسهولة، إلا أنه وهو يصف لى تظل نظراته معلقة بالمحفظة وبحركة يدى، تكاد نظراته تقول: أنا أولى منك بهذه المحفظة ياصعيدى ياقحف. أشعُر من وصفه أنه ادخر معلومة سرية غامضة تعطلنى فى النهاية عن الوصول أى أنها تتوهنى، وأنه لما ييئس من هبة إضافية مشى وتركنى جاهلا بها.

يلتقينى خطيف آخر. أسأله عن النقطة الغائبة فحسب: أى هذه البنايات مكتب المدير؟!. فإذا هو وقد قبض على المعلوم فى حرفنة وسرية مكتومة مدربة، قد اعتدل صائحا فى أسف وإشفاق:

- «لا .. ء.. إن مكتب المدير ليس هنا بل ليس فى هذا الطابق أصلا ! إنه فى الطابق الأخير ! الأعلى يعنى! »

تشعلقت فيه، عشمته فى تحلية بق كبيرة، جررته معى حتى قادنى إلى مكتب المدير. دخلناه معا، تولى هو - بعينيه الحاذقتين - التوصية والتنبيه، ولاحظت أن جزءا كبيرا من نظرته التى قدمنى بها لمديرة المكتب قد انصب على محفظتى المضمومة تحت إبطى تتلقى ضربات قلبى الموجوع عليها وعلى ولدى فى آن معا.

هذه السيدة المتأنتكة، التى فهمت أنا من طراطيف الحوار أنها مديرة مكتب مدير المستشفى ، ظهرت لى كأنها الوزيرة لا أقلّ، صارت تسألنى وتؤنبنى فى ذات الوقت، تتهمنى أنا وأهل منزلى وقبيلتى وربما ملّتى كلها بالإهمال والتسيب والرمرمة وفراغة العين واتساع الكرش.. إلخ إلخ. ثم انعطفت فراحت تسألنى عن حالة الولد وكأننى خبير فى الطب جئتها بعد معاينة وكشف. ولا تنتظر جوابى أو تعليقى فتسألنى عن المنطقة التى أسكن فيها ، وعن الطبيب الذى أحالنا على المستشفى ! .. وكانت فى هذه الأسئلة الأخيرة قد تحولت فجأة إلى مجرد امرأة ثرثارة ممن التقيهن فى سوق منشية ناصر يناكفننى طول النهار.

يأكلنى قلبى من هذه الرحرحة، أكاد أطرشق. فلما أطالت هذه المرأة فى

الحديث بغير جدوى ، وظهر لها أننى لن أتلحلح قالت لى بجدية رسمية مفاجئة :
– «طلباتك ياأبا الحاج؟»
– «طلباتك يا أبا الحاج ؟! طلباتى أن أرقص لكم عشرة بلدى!»
– «حتهزر حضرتك؟!»
– «ليتنى أستطيع ! بدلاً من أسب لكم دين الذى وضعكم فى هذا المكان ياكفرة ياأنجاس ! بعد كل هذه الزرزرة فى روحى طلباتك ياأبا الحاج؟!»
– «إنت باين عليك ...»
– «إمسكى لسانك!»

هكذا صرخت فيها ملوحا بقبضتى فى جنون، تأهبت لأنط فى كرشها. تمنيت لو أننى محزوم بالديناميت لأفجره وأفجر هذا المكان الفاجر بفجاره عديمى الحياء لكن تربية سوق السمك أعقلتنى، قال لى: إتقل ياولد ! إذ كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيد. وهكذا بكل هدوء باك أعدت عليها ما سبق أن قلته قبل دقائق.

– «يا ست هانم ! ربنا يخليكى ولا يحرمنا من عطفك أبدا ! لقد أتيت بولدى منذ قليل مصابا بالحمّى ! فاكتفوا بعزله فى مكان يجلب المرض ولا يحظى بالرعاية اللازمة ! الولد حالته خطيرة ! وأريد نقله إلى عنبر نظيف درجة أولى حتى ولو على نفقتى!»

قالت ببساطة الواثق من تطبيقه للقانون بكل أمانة وجدية :

– «يا عم الحاج! المستشفى لا تقبل حالات إلا بتأشيرة من طبيب يأمر بتحويله لنا ! هذا هو القانون !»

حمدت الله فى سرى ، فما دامت قد ذكرت لفظة القانون فإنها إذن تطلب الرشوة بكل صراحة ووضوح . نعم يابو العم ؟ لقد أصبحت لفظة القانون شبيهة – الخالق الناطق – بلفظة : إهرش ، اتلحلح يعنى ، بز ، إدفع .

بكل سرور سحبت المحفظة ، فتحتها لأقبض على ورقة توائمها حجما ومركزا، فإذا بباب حجرة مدير المستشفى ينفتح ، ويطل منه وجه الدكتور محمد ، شقيق الممثل أحمد ، وهما من أصدقاء صديقى الأستاذ ، يسهرون فى بيتى وأسهر فى بيوتهم ؛ إنها صداقة متينة على الآخر ليس فيها أى غش ؛ لدرجة أننى لم أنتبه إلى أن الدكتور محمد دكتور فى معالجة المرضى إلا فى هذه اللحظة فحسب .

تسمرت – فى وقفتى ذاهلا من الفرحة بهذا الاكتشاف العظيم السعيد ..

– «عم أحمد؟! مش معقول ! إيه اللى جابك هنا كفى الله الشر ؟! ولا جاى تزورنى ؟ أتمنى تكون جاى تزورنى بس!»

بالحضن أخذته وأخذنى . سحبنى إلى حجرة مكتبه . أجلسنى على الكرسى الجلدى المريح وجلس قبالتى ؛ فإذا به نائب مدير هذه المستشفى . فى الحال جىء بهذه السيدة نفسها ؛ فإذا هى قد تغيرت فى الحال صارت كالبطة الوديدة تروح وتجىء فى مرح ونشاط حتى أنهت إجراءات نقل ولدى إلى الدرجة الأولى الممتازة وتقاضت منى الرسوم المقررة وفوقها بوسة كبيرة .

الهول كله كان فى طريق عودتى للإطمئنان على تنفيذ هذه الإجراءات بسرعة عاجلة . فى كل خطوة يترصدنى لفيف من الزبانية ، يأخذوننى على جنب فى خشونة رقيقة بعض الشىء ، وفى ود مريب جدا ينبهوننى إلى أشياء ومخاطر لا تخطر لى على بال ؛ هدفهم إرعابى أكثر مما أنا مرتعب . وكنت على ثقة من أننى قد خضعت لعملية نهب ونهش وابتزاز بصورة سلمية لا تخلو من طرافة مأساوية. ولقد هممت بأن أرمى لهم بالمحفظة وأنجو بجلدى من هذه الغابة المليئة بجوارح أليفة ناعمة مراوغة ماكرة لا تتركك وفيك عرق ينبض . ولكن لأن المحفظة جزء من قلبى يابو العم كولدى بالضبط لأن فيها بتاع الناس ؛ فإن قلبى قد نط على حبال صوتى وراح يصرخ مستغيثا :

– «يحرق ديك أبوكم ! فين المدير ؟! ودونى للمدير عشان أشوف يمكن يكون هو الآخر طمعاناً فى بتاع الناس الحرام ! ودونى !»

فى هذه المرة جاءنى المدير بنفسه يهرول فوق المدقات التى شقتها صرخاتى ؛ فى صحبته صديقى الدكتور محمد ، الذى أخذنى على جنب بلطف شديد وأمرنى بالانصراف لكى أنام مطمئن البال ، أما المريض فقد صار منذ الآن فى عهدته.. نزلت وأنا فى غاية الرضا ، نادبت سيارة ، إنجعصت فى الكنبة الخلفية مرخيا كل عضلاتى وأعصابى ، قائلا لسائق التاكسى : منشية ناصر يا أسطى .

جريان الريق

.. كأننا فى عز الليل ، وأنا عمرى ما سهرت أبعد من نشرة الساعة التاسعة فما يكاد منيع التليفزيون يدخل فى النشرة الجوية حتى يكون رأسى قد انكفأ على صدرى فيخيل لى أنه طار من فوق كتفى فانتفض لالتقاطه ففى الحال أقوم فأتمدد على السرير لا أصحو إلا بعد أذان الفجر حيث أصلى الفجر وأتوكل على الله إلى السوق فى غمرة كى أتسوق السمك الطازج فى البدرية وأقفل عائدا لأفرش به فى مزلقان منشية ناصر ، ولابد أن تكون أم صابر قد سبقتنى وفتحت باب الشارع فالمهم أننى حين أمشى فى الطرقة إلى الباب لابد أن أراه مفتوحا ليكون اليوم عسلاً بالصلاة على النبى .

كأننا كنا فى الليل ولم يظهر للنهار أى مرسال من الضوء فكيف بى أمشى فى الطرقة الآن وأرى الباب مفتوحا أمامى ؟! هذه أول مرة أرى فيها الليل الحقيقى بكل سكونه المرعش للبدن فلماذا أنا خائف هكذا مع أنى ولد مخريشاتى سكنت فى قلب الطرب سنوات طويلة أرعبت فيها الموتى والأحياء ...معا ! هل صحوت قبل الموعد يا ترى ؟ ولكن أين أم صابر ؟ لا أنكر أنها صبت علىَّ الماء ، لأتوضأ كى أصلى الفجر ، لم أرها تسبقنى لتفتح الباب فمن يكون قد فتحه ؟ لا حس لها ولا خبر ، بل لا حس ولا خبر لأى أحد فى الدار فهل سافروا إلى الصعيد من ورائى أم تراهم فى عز النوم ؟ لا ، فالدار ليس فيها نفس آخر مع أن بناتى كلهن يسكن بأزواجهن وأولادهن معى فى نفس الدار الكبيرة ذات الطوابق الثلاث يغلق علينا جميعا باب واحد !! سترك يا رب ، الواجب أن أطمئن الآن على الجميع فى جميع الغرف فى جميع الطوابق ، ولكن مالى أندفع نحو الباب هكذا غير سائل فى أحد ؟! الظاهر والله أعلم أنى عازم على مشوار مهم . جاءنى الإلهام من الله فى الحال ، فطنت إلى أننى ربما أكون مسافرا إلى الصعيد للإتيان بأم صابر من بيت أبيها فى كوم اسفحت فى الصعيد إذ أنها غضبانة وقد

ذهب عيالها كلهم لإصلاحها فلم يعودوا وإذن فلابد أن ألحق بقطار الصحافة المتوجه إلى أسيوط .

ملأتنى الحماسة كاد قلبىَ يرتعد خشية فوات موعد القطار .. سبحان الله ، ما أن خرجت من الباب حتى رأيت الصبح فى حارة العجوز المتلوية كثعبان غبى ، لكنه أول الصبح ، لحظة الثمالة فى النوم والعالم كله صار تحت قدم الصبح إن هى إلا خطوة واحدة يخطوها فيهب الجميع منتشرين فى كل مكان . الكلاب هامدة كسلانة وخمانة ، وبالوعة المجارى ضارية كالعادة وأكوام القمامة جرفتها المياه الوسخة فبرقشت أرض الحارة بقشر البصل والبرتقال والأكياس البلاستيك، وحمار البقراوية مربوط فى وتد أمام داره وبجواره عريش العربة الكارو ماداً ذراعيه الطويلتين فى وجهى كأنه يهيب بى أن أحترم نفسك وارجع .

كأننى هممت بالرجوع بالفعل ، لكننى رأيتها تنقلت من باب دارها التى تبعد عن دارنا بدارين . أقبلت نحوى فى شغف وكأننى كنت على موعد معها . يا سبحان الله ، روحية إمرأة جارنا العريجى ست حلوة جدا والجميع يستخسرها في عظمه لكنها الحق لله إمرأة محترمة سيرتها حسنة على كل لسان لا تخرج العيبة من حنكها عمرنا ما شفنا عليها كذا أو كذا ، فما لها تقبل على كأننى عشيقها كأننى واعدتها . لا حول ولا قوة إلا بالله أنا رجل مؤمن مصل وذيلى طاهر وعمرى ما فكرت فى العيبة ، وروحية فى عمر بنتى الكبيرة وهى تقول لى يا عم أحمد صباح الخير يا عم أحمد صباح النور يا ست روحية وعمرى ما فكرت حتى فى النظر إلى وجهها الصبوح ولا جسمها المكسم الذى طالما أغرى عيون الخلق بالاستقرار عليه منذ ظهورها وحتى اختفائها فهل تقل عقلك يا أحمد على آخر الزمن وتعرض نفسك للفضيحة وتفعل شيئا يغضب الله ؟! سترك يا كريم ، ربما تكون محتاجة لشىء وتنوى أن تقصدنى فى مبلغ من المال سأعطيه لها فى الحال ولن أنتظر عودته شرط ألا تورطنى فى شىء ، يا سبحان الله ، ما دريت إلا وهى فى حضنى ، لا يا ربى ، بل أنا الذى صرت فى حضنها ، لأنها جعلت تطوقنى بذراعيها تضغط على ظهرى بقوة عفية ، شفتاها فوق شفتى ولسانها فى

قلب حنكى يعصر فيه ريقا طيبا حلو المذاق لذيذ . أستغفر الله ، اللهم عفوك وغفرانك.

دخلت الحمام فاستحممت غصبا عنى فى البرد القارص ، وأم صابر واقفة بالفوطة تتعجب من سر هذا الاستحمام المفاجيء رغم أنها شاغبتنى كثيرا طوال الليالى الفائتة وأنا أتحجج بالخوف من الاستحمام فى برد طوبة . صارت الولية تبرطم بكلمتين منحشرتين فى خشمها وصرت أنا الآخر أبرطم بأى كلام ، فهى وأنا نتجنب النزناز ساعة الصبحية بالذات حتى أتوكل على الله بسر هادىء وقلب مطمئن .

صرت فيما تلا ذلك من أيام أنكس وجهى فى الأرض كلما رأيتها ماشية فى الحارة وأعمل أننى مش واخد بالى فإن هى بادرتنى بالتحية رددت بأحسن منها فيما أهرول مبتعدا ، ولا أنظر نحو باب دارها إذا مررت من أمامه ، فإذا جاءت تستلف من دارنا كوية زيت أو مخرطة ملوخية فإننى أسد أذنى عن صوتها بعد أن لم يكن ثمة من مانع أن أقوم بنفسى لأقضى لها طلبها إذا كنت وحدى فى الدار . أصبح الحرج يتملكنى إذا جاءت سيرتها فى الدار أو فى الحارة أو حتى فى دماغى . أصبح الارتباك الشديد يعرونى إذا رن صوتها فى أذنى أو جاء وجهى فى وجهها ، فأروح أقرأ آية الكرسى فى سرى .

وكان زوجها يحبنى جدا ، ويودنى ، وكثيرا ما صلى ورائى فى مسجد قايتباى، فأصبحت أكش منه هو الآخر ، لا أنظر فى عينيه ، أكلمه بحساب ، كلمة ورد غطاها .

ولأننى أراها وأراه صبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء فإن الوسواس قد ركبنى وصرت كلما صليت أدعو الله أن يجملها بالستر . كنت متوجسا ومتشائما من تلك الرؤيا العجيبة . وفيما أنا أخرج عصر يوم ، مرتديا طاقم الثياب النظيفة وعلى كتفى الشال الكشمير والعباءة ، ومتجه إلى مقهى إبراهيم الغول لأشرب الحجرين لزوم العصارى . فوجئت بها واقفة أمامى فى مدخل الباب وجها لوجه ، لا يفصل حضنى عن حضنها سوى طفلها الرضيع الذى كانت تحمله على صدرها.

جمدتنى المفاجأة ، غرقت فى الإرتباك والخجل . قبل أن أفيق من هول الدهشة كان طفلها الرضيع الجميل الشقى قد اندفع نحوى كنسمة كريشة طائرة ترنح فى الهواء وارتمى على صدرى . فما دريت إلا وأنا أحوطه بذراعى ، وأمد بوزى لأقبله . فى أقل من لمح البصر صار بوزى كله غائبا فى حنك الطفل ، ولسانه فى قلب حنكي يعصر فيه ريقا طيبا حلو المذاق لذيذ .

برقية الضوء

الترعة تشبه بلدتنا الخالق الناطق . نظرة والثانية تبينت أننى فى زمام بلدتنا كوم سعيد . عمرى أنئذ حوالى السابع عشر يعنى سن الشقاوة والضلال . كان يخيل لى أننى تركت هذه السن من زمان وكبرت على الشقاوة وعلى الضلال . لكن خاطرا فى دماغى كاد يتكلم قائلا أنت لا تزال صغيرا لكنك ترى نفسك كبيرا وهذا هو الوهم الذى تعيش فيه منذ طفولتك الشقية . صدقته من غير كلام ، فالدليل على صدقه أننى الآن أبلبط فى هذه الترعة . سألت نفسى : طيب يا ولد لماذا أنت تبلبط فى هذه الترعة الآن خالعا ثيابك إلا من السروال ابو دكة ؟! فإذا بنفسى ترد على نفسى قائلة : نسيت بهذه السرعة يا شملول ؟ أنت لا تبلبط إنما أنت تصطاد السمك مسكا باليد وهذه هوايتك طول عمرك . ضحكت فى الحال ساخرا من نفسى لأننى رأيت القراميط تتزقلط بين ساقى وتجرى دون أن أعترض طريقها أو أحاول مسكها فلابد أنى حقاً نسيت .إننى فى حالة صيد فكيف إذن يحدث هذا؟! إننى يمكن أن أنسى كل شىء حتى نفسى إلا الصيد لا أنساه أبدا لأنى لو نسيته فإنه لا ينسانى .

فجأة رأيتنى واقفا على شاطىء الترعة وكان من الواضح لى أننى قد انتهيت لتوى من الصيد . ها هو ذا حجرى ملآن بالسمك من جميع الألوان والأحجام والأشكال . لكن متى ارتديت هذا الجلباب وكنت منذ برهة عاريا الا من السروال؟ .. لا أدرى . كيف تأتى لى اصطياد كل هذه الأسماك ؟ .. لا أدرى . كنت فرحا بما معى ، دماغى مشغول بمنظر أمى وهى تحتجز السمكات الصغيرات لتشويها لنا ، والكبيرات لتبيعها بالشروة . لست أعرف ما الذى جعلنى ألف حولى وأنظر إلى مقابر بلدتنا الباركة على علواية مجاورة للترعة . وقع بصرى تلقائيا على مقبرة العائلة ، عائلتنا . هكذا أنا دائما كلما وقع بصرى على المقابر ، أى مقابر فى أى مكان ، أراه لا يستقر إلا على مقبرة عائلتنا فهى المقابر

والمقابر هى . لا أعرف لماذا أنا دائما مشغول بها . رأيت كأن الليل قد هبط فجأة دون أن أدرى مع أننا منذ برهة وجيزة كنا فى عز الضهر الأحمر . هل سرقنى الليل أم أننى كنت سرقت النهار؟ . ثمة فانوس مضاء فى أعلى عمود مغروز أمام مقبرتنا كشجرة من ضوء نابتة فى قلبها . منظر المقبرة مفرح وهى فى الضوء غارقة . شبحان مقعيان أمام فوهة المقبرة ؟ الفوهة مفتوحة والردم الطالع منها مكوم حواليها .

وجدتنى أهتف صائحا :

– «مين اللى عند الطربه ؟ مين ؟ بتعمل ايه عندك يا جدع أنت وهو.؟»

إلتفت الشبحان المقعيان . تعرفت عليهما فى الحال . إنهما ابن عمى عبد اللطيف حماد شيخ الخفراء ، وجدى لأمى محمد حسين دياب . جريت إليهما . حين وصولى فوجئت بأننى فى ثياب نظيفة وليس ثمة من سمك معى . لم أصدق أننى ذهبت به إلى دارنا وغيرت ثيابى وعدت . إلا أننى لم أحفل بالأمر . ثم إننى وجدتنى لحظتئذ رجلا كبيراً أكبر سنا من ابن عمى شيخ الخفراء . هنا كانت دهشتى أعظم ، فمتى كبرت يا ترى ؟ قال الخاطر الجاهز فى رأسى دائما : منذ برهة رأيت نفسك صغيرا وكنت تظنك كبيرا ؟! والآن تراك كبيرا وكنت تظنك صغيرا فأيهما أنت ؟! على أن الفوهة المفتوحة أفزعتنى كحنك تمساح كبير مفتوح عن آخره ليتلقفنى .. صحت من رعدتى :

– «إيه ده ؟ إيه ده ؟!»

قال جدى محمد حسين دياب :

– «مش عارف إيه ده ؟! دا قيراط الكوم»

– «قيراط الكوم؟!»

صرخ فىّ :

– «إجر هات لك غلق وتعال»

نظرت حوالى . رأيت بعض غلقان متناثرة على مقربة . جريت نحوها . اختطفت وحدا منها . كان فارغا ، لكننى بمجرد أن حملته شعرت به ملآنا بالردم لتمه . قال جدى :

- «إدلق هنا»

دلقت الغلق فى الفوهة ، فإذا بثقله يكفؤنى على وجهى متزحلقا فوق كومة التراب ويوزى بدماغى كله داخل الفوهة وكأن التمساح يوشك أن يطبق فكيه على رقبتى . صرت أصرخ وأتزحزح للخلف زاحفا على مرفقى لكننى غير قادر على التزحزح مقدار أصبع واحد وصراخى يعلو إلى عنان السماء . شدنى جدى وأقعدنى على قرافيصى قائلا :

- «ستلم علينا الخلق يا مجنون بدون داع» .

ثم أشار إلى المقبرة :

- «يعجبك المنظر ده ؟ تسمى نفسك راجل وتعيش في مصر وسط الناس المحترمين وحال الطربه كده ؟!»

ميلت رأسى ونظرت إلي حيث أشار . كتمت صراخى . كل فرائصى ترتعد ، فما شفته ليس يدعو للزعل بل هو العجب العجاب : عدة عوايد من لمبات النيون واقفة فى أركان المقبرة مضاءة بلون فزدقى كواجهات المحلات فى المدن . ربك والحق تحيرت فى الأمر من كل ناحية : ما الذى جاء بلمبات النيون وأضاءها فى قلب المقبرة هكذا ؟! ما الذى يغضب جدى فى هذا ؟! ماذا يمكن أن يكون فى الأمر من العار حتى لا يحق لى أنْ أعتبر نفسى رجلا فى ظله ؟! ..

جدى محمد حسين دياب لم يمهلنى ، بل صرخ فىّ :

- «قم ساعدنا فى إصلاح الحال بسرعة ! إعمل لك همه !» .

أخذت أشوح بيدى صارخا فى جدى :

- «قل إيه اللى انت عاوزنى اعمله»

ثم صرت أجعر بكلام كثير لم أتبينه . كل ما وضح لى عبارة : يعنى أشق الهدوم عشان تستريح ؟ أدفن نفسى ؟! ..

جاءنى صوت أم صابر متألما :

- «حاسب يا راجل ! ورمت عينى منك لله ! نومك دائما مهبب بهباب القرن ؟ مالك ؟ عم تشوح وتزغدنى بكوعك فى عينى وجنبى ؟!»

– «لمؤاخذة يا أم صابر ! أعطينى كوب ماء ! سترك يا رب»

وقعدت على السرير أمسح الريالة عن فمى . لما شربت جرعة ماء قلت لها وأنا على وشك البكاء:

– «أمى حتموت يا أم صابر ! التليغراف حيجى النهارده ! مفيش معني للى شفته غير كده !»

لم أنم بقية الليل . فما أن طلع النهار حتى ذهبت أم صابر لتفتح باب الشارع كالعادة . ما كادت تفتحه حتى وافتها جارتنا بورقة قالت إن عامل التليغراف أتى بها قرب منتصف الليل بعد أن أطفأ بيتنا أنواره وسكت حسه .

تملكتنى الرعشة وأم صابر تعطينى الورقة . لم أقو على مد يدى . قلت لولدى : إقرا يا صابر ، وكتمت رغبتى فى الصراخ . ولدى صابر يفك الخط بصعوبة ، كاد يقتلنى وهو يتهجى الحروف . عرفت أن جدى محمد حسين دياب بعافية . هكذا يقول الكلام المكتوب فى التليغراف ، لكننى خمنت أنه مات وأنهم يخبئون الخبر بقولهم إن صحته متأخرة . قلت لصابر : إذهب يا ولدى للسوق وحدك . لبست ثيابى وتوكلت على الله إلى البلد .

نزلت فى محطة «صدفا» . تجولت فى البلد قليلا قبل ركوبى إلى كوم سعيد . قابلت ناسا أبلغونى أن جدى محمد حسين دياب صحته بالفعل تعبانة ، لم يمت حتما لكنه يشاور عقله فى الموت . ركبت إلى كوم سعيد فى سيارة بالنفر . ذهبت فاطمأننت أولا على صحة أمى . ثم خطفت رجلى إلى دار جدي فإذا بالصوات يستقبلنى حاداً ملتاعا كالنار تسرى فى أسطح البلدة كلها . تلقانى ابن عمى عبد اللطيف وأبلغنى بضرورة ترميم المقبرة حالا . أخذت مجموعة أنفار وذهبنا ، لنجد أن الأرض قد هبطت من تحتها فتهدم شاهدها صار كومة من الطوب المحتت . كان الليل قد أدركنا ، وثمة فانوس معلق فى فرع شجرة السنط يضىء للأنفار الذين فتحوا الفوهة وأزاحوا الأتربة .

باعتبارى ابن ليل قديم وجسور جامد القلب أغرانى ابن عمى بالنزول إلى الفسقية لتسوية الشريحة التى سيرقد فيها جثمان جدى . لم أتردد . غاصت

قدمى فى التراب الناعم الرطب ، فاقشعر بدنى إذ شعرت بأن هذا التراب الناعم الرطب ليس ترابا بل جثثا مسحوقة تكاد تكون فيها الروح . تعثرت فى الحال ، إنكفأت على بوزى فوق التراب ، إنزلقت الصرخات المذعورة من حلقى ، ليس من خوف بل من روع . كانت نظراتى قد انخطفت داخل الفسقية . قلت فى هلع :

– «إلحقنى يا عبد اللطيف»

جاء يجرى :

– «مالك يا أحمد ؟!»

قلت : الرؤيا يا عبد اللطيف ! شفت هذا المنظر من قبل والله العظيم شفته !»

– «أى منظر يا جدع ؟!»

– «الكهارب ! لمض نيون منوره جوه ! عواميد عواميد !»

نام عبد اللطيف على بطنه وأرسل بصره فيما راح يردد :

– «آه ! مارد من الجن سكن الطرية ؟!»

جعل يبقق النظر مضيقا مقطبا حاجبيه مع أن بصره حديد كعين الصقر . ثم لكزنى وهو ينهض واقفا : إنها العظام يا بنى آدم شديدة البياض كلون الجير المزرق . ثم حملق فى عينى شاردا ، ثم رفع حاجبيه فى دهشة واستعبار فيما راح يغمغم : لكنها حقا تشع بالضوء فى قلب الظلام !! . ثم قلنا معا فى نفس واحد : يا سبحان الله .

البيت الآخر

الأرض كلها من حوالى ، من أمامى ومن خلفى ، مرشوقة بالأدمغة البشرية مزروعة من رقابها فى بطن الأرض التى بدت عريضة شاسعة بغير حدود ، مما جعل الأدمغة البعيدة تبدو لى كلما تباعدت كسجادة من القطيفة السوداء تتخلل وبرتها السميكة بقع رمادية مبيضة قليلا . رقبتى هى الأخرى كانت غاطسة فى بطن الأرض إلا قليلا ، بين ذقنى والأرض طول أصبع ، لكن الغريب أننى كنت قادرا على تحريك رأسى يمينا وشمالا أعلى وأسفل !!

لم أفهم لماذا نحن هكذا ، لا أعرف من الذى فعل بنا هذا ، لكننى بدأت ألاحظ أن الأطراف البعيدة جدا من الأرض قد جعلت تقذف ببعض الأجساد ، حيث تستطيل الرقاب شيئا فشيئا ، ثم تظهر الأكتاف والأذرع ، فالصدور فالجذوع فالأفخاذ فالسيقان ، إلا أن شيئا كالحبال كالذيول كان يربط المؤخرات بالأرض ، مما يجعل الأجساد تنتفض تترنح فى محاولة للفلفصة ، إلى أن تنتزع نفسها بقوة فتطير فى الهواء لبرهة وجيزة ، ثم ما تلبث حتى تستقيم واقفة على الأقدام ، ثم تنسلك فى طابور طويل يمضى على مدد الشوف كسرب من النمل الغليظ سرعان ما يصب فى مكان ما فى الأفق اللامرئى .

صار الحصيد يتقارب منى ، الأجساد كلها تنبثق ، تنط ، تنضم تلقائيا إلى الطابور ، فيما عداى . كل ما لحقنى من عفو هو أن الأرض لقطتنى قليلا قليلا ثم أحكمت حصارها حول خصرى تكاد تعصره .

سرعان ما تذكرت مواعظ عمى الفقيه الكبير الضرير لمريديه فى مندرتنا فى أسيوط زمن طفولتى ، إذ كان يقول إن فى كل واحد منا فى أسفل العمود الفقرى عضمة اسمها عضمة الزراع ، وهى عبارة عن بذرة صغيرة كحبة السمسم ، ويوم القيامة حيث يكون البشر كلهم قد تحولوا إلى تراب ، يأتى أمر الله فإذا عضمة الزراع هذه قد نبتت فى الأرض وأعيد اكتمال الأجساد ، فمن كان كتابه بيمينه وأعماله فى الدنيا صالحة فإن اقتلاعه من الأرض يكون سهلا

عليه فينضم إلى المشهد العظيم . أما من كان كتابه بشماله أى أنه من الفاسقين فى الدنيا فإن اقتلاعه يكون عذابا أليما قبل العذاب الأكبر فى نار جهنم .

يالمصيبتى السوداء . ها أنذا أعافر وأعافر كى أقتلع نفسى من الأرض بكل نفس ضايقها الموت ، عرقى يتصبب طوفانا من الماء المغلى . لكن ، أحمدك يارب، ألف حمد وألف شكر ، فبعد التعب المؤلم لَفظتنى الأرض ، فطرت فى الهواء ثم نزلت واقفا، وكان الطابور المهول قد اختفى ، لم يبق غيرى إذن خارج الحساب . تلفت حوالى ، فإذا أنا أمام مجموعة من البنايات الجديدة تشبه مساكن عثمان أحمد عثمان فى مدينة نصر ، ارتفاعاتها متقاربة وألوانها جميلة ، كانت محاطة بسور من جنسها ذى بوابتين متلاصقتين إحداهما تتقدم عن الأخرى عدة أمتار وهى الأوسع والأجمل وبلا باب ، أما الثانية المتأخرة عنها فشكلها عتيق قمىء رهيب كبوابات حيشان المقابر ، لها باب حديدى صدىء مغلق بالترباس ، قلت لنفسى : إذن فلابد أن هذه البوابة الجميلة هى الجنة وهذه الصدئة هى النار ، ثم قلت جاءك الموت يا تارك الصلاة لكنى تذكرت أنى منذ أن تبت عن السرقة وقطع الطرق واهتديت الى الرزق الحلال لم أترك الصلاة أو الصوم أو الزكاة ولم أغش زبونا واحدا فى سمكة واحدة ميتة ، ولابد أن الله سبحانه وتعالى قد رضى عنى وإلا ما هدأ سرى وملكنى دارا من بابها فى حارة العجوز بحى قايتباى بعد أن كنت وعيالى نبيت داخل مقبرة ، ومنحنى ثلاثة دكاكين فى سوق منشية ناصر باسمى واسم ولدىَّ صابر ومحمد بعد أن كنت بائعا سريحا كحيانا ، وسهل لى الأمور فى تزويج بناتى الأربع زيجات مستورة .

رأيتنى أتجه مباشرة إلى البوابة الجميلة المتقدمة التى بدت كأنها تقبل نحوى لتستقبلنى مفتوحة على وسعها ، اتكلت على الله ودخلت فاعترضنى شخص طلع من تحت طقاطيق الأرض لا أدرى كيف :

- «رايح فين ياجدع أنت؟» .

تراقصت ركبى من الفزع قلت ؟

- «إنى .. إنى .. هنا! هنا ! كنت مع الذين دخلوا هنا منذ قليل» ؟

لكن وجهه كان جامدا ، خليطا من وجه بواب شرس وضابط شرطة ملآن بمنصبه . لوح بذراعه فى حركة من يهش ذبابا :

ـ «إذهب الى البوابة الثانية أنت هناك لا هنا !!

استدرت خارجا كاسف البال وقد اندفقت ينابيع الدمع كلها فى حلقى حتى كادت عروق رقبتى تتقصص . أيقنت أننى كنت واهما حين ظننت فى نفسى الصلاح والتقوى ، وقد ثبت الآن أن مآلى جهنم وبئس المصير . ما أن زايلت البوابة المفتوحة حتى صرت أبكى بحرقة ، أتقدم خطوة وأتأخر خطوتين ، ارتفع فى صدرى صوت يتغلب على البكاء يؤنبنى : أتعترض على مشيئة الله ياكافر هذا ما اختاره لك الله فاقبله عن طيب خاطر لعله يترفق بك ويخفف عنك العذاب . لكننى حينما اقتربت من البوابة الحديدية المغلقة شملنى الفزع وركبنى الجنون فصرت أصرخ بكل قوتى :

ـ «لا !لا ! لست كافرا وحق كتاب الله!!» .

وقوة خفية تكبلنى فى الأرض فلا أقوى على التحرك .

بقيت بعد ذلك زمنا طويلا أحمل جبل الهموم على صدرى ، صرت أضاعف من صلواتى ، الفرض الواحد أصليه خمسة فروض ، أضاعف من زكاتى ، أصوم الخميس والاثنين من كل أسبوع ؛ أكتفى بربع جنيه فقط ، مكسبا عن كل كيلو سمك أبيعه ، أفرز السمكات واحدة واحدة قبل بيعها فإن اشتبهت فى واحدة ـ مهما كبر حجمها ـ رميتها على طول ذراعى للكلاب حتى أقطع على نفسى فرصة بيعها لأى أحد . مع ذلك يعترينى القلق ليل نهار .

كنت معتادا أصيل كل يوم أن ألتقى بصديقى الأستاذ الصحفى المغرم بالتجوال فى أحيائنا الشعبية المختلطة بيوتها بحيشان المقابر فى مدافن المجاورين حيث نستقبل المغرب بحجرين من الحشيش لزوم ترويق الدم بعد وجع الدماغ طول النهار ، نشرب فى المقهى أو فى دار أحد الأصدقاء إذا كانت الحملات الحكومية نشطة .

كشأنى دائما حكيت لصديقى الأستاذ أمر تلك الرؤيا المرعدة ، فاكتفى بقوله إنها خير إن شاء الله ، لكننى كنت متشائما منها ، وقلبى يحدثنى أن هذه البوابة الحديدية هى بوابة السجن ، وأن كبسة حكومية ستقع فى قبضتها ذات يوم على يد ضابط أمه غسالة لا يأبه بأهمية الأستاذ ولا يقبل شفاعة من أحد فيودعنا ـ أو أنا على الأقل ـ السجن .

أصبحت نافرا من التحشيش في المقهى بل ينقبض صدرى بمجرد الجلوس فيها بغير تحشيش فالكبسة حين تدهم المقهى فالضابط يلم كل الجالسين على الرصيف بعيدا عن الشرب . كان لابد أن نعثر على مكان آمن لا تقتحمه الشرطة إلا بإذن من النيابة . وهكذا ذهبنا لنحشش في مصنع تريكو .

في ميدان كان بستانا للعلماء من خمسمائة عام وهو مكان مبروك ، والمصنع مقام في حجرة من حجرات مدفن أثرى كبير ويتكون من عديد من الغرف ، كل غرفة تضم فسقية فوقها شاهد ضخم كالفيل ، ويتوسط المدفن حوش كبير بلا سقف تناثرت فوقه شواهد عديدة مبنية بالأسمنت دفن تحتها جميع خصيان الباشا القديم صاحب المدفن .

شغلة الطربي في الأصل تطريز الملابس التي تباع في خان الخليلي ، لكن أباه المعلم الطربي الذي كان مسئولا عن شريحة كبرى من المدافن - من بينها هذا المدفن - مات فجأة ، فورث ابنه مهنته الى جانب مهنته الأصلية ، ونقل ماكينة التطريز الى حجرة صغيرة من هذا المدفن الكبير الذي انقرض أصحابه منذ سنوات بعيدة جدا ، فآلت ملكيته الى وزارة الأوقاف ولم يعد يستقبل موتى أو زوارا اللهم إلا زبائن الطربي وزمرة من صحابه .

فيما نحن نحشش في الحوش تحت شمس الأصيل ، لاحظنا أن إحدى الفسقيات مفتوحة ومنظفة كأنها تتهيأ لاستقبال ميت جديد . قبل أن نتساءل قال الطربي إنه نظفها ليعرضها للبيع فتعجبنا : هل يحق لك بيع ما لا تملك ؟ قال إنه لا يبيع العين بل يبيع حق الانتفاع بها وهو مسئول عن استصدار رخصة باسم المشترى من إدارة الجبانات ، وأنه سيكتب عقدا على يد المحامى ثم فاجأنا بأنه باع عددا من هذه المقابر على هذا النحو بشرعية القانون .

أعجبتني المسألة ، تذكرت أنني وعيالي ليس لنا مقبرة في هذه المدينة ، وأن قبرا بهذه العزوة والحماية لهو الأبهة بعينها ، طلعت في دماغي ، صرت أنا والأستاذ نساومه حتى وصلنا لاتفاق ، هُبّت كتبنا العقد ، هب استصدر رخصة باسمي ، هُب لصقنا على المقبرة رخامة محفور عليها اسم عائلتي ، بات الأمر واقعا ، أصبح المكان قعدتنا اليومية الآمنة .

ذات أصيل ذهبنا اليه فإذا البوابة مغلقة لأن الطريى فيما أخبرنا أحد صبيانه، فى مشوار قصير ، وأنه آت بعد دقائق ، وقفنا فى انتظاره نتأمل منظر البوابة الحديدية المهيبة المغلقة، فإذا بالأرض تدور بى، وقلبى ينط بين ضلوعى وإذا أنا أنتفض صارخا مشيرا للأستاذ على البوابة :

- «هى بعينها يا أستاذ بوابة الرؤيا» .

وانهمرت الدموع من عينى بغزارة ، كما انهمرت دموع الأستاذ الذى اقشعر بدنه وهو يحتضننى لكى يهدىء من روعى ، جعلت أجفف دموعى بكم جلبابى الواسع مرددا : الحمد لله يا ما أنت كريم يارب! وقد شعرت بقلبى يعود إلى مطرحه كعصفور آب الى عشه بعد طيران طويل .

المشى حافيا فوق الحصى

كنت أمشى فى الشارع تائها حائرا غارقا فى النكد لأننى لست أعرف لماذا أمشى حافيا ، وهل ضاعت جزمتى أم أننى فى الأصل من غير جزمة . المدهش أننى غير مدرك للحقيقة ، ولا أدرى إن كنت هكذا فيما سبق من عمرى أم أن هذا قد حدث الآن فحسب لسبب من الأسباب كل ما أدريه أننى نظرت فى قدمى فجأة فوجدتنى حافيا . لكننى نظرت الى قدمى لأننى تألمت جدا من حصوات دقيقة انفلتت بين أصابع قدمى وقرصتنى قرصا موجعا ، حاولت أن أعرف منذ متى وأنا حافى القدمين . لم أتذكر أننى دخلت المسجد اليوم لأقول إننى خلعت الجزمة ريثما أتوضأ فسرقها أحد المصلين كما يحدث دائما وكما شاهدت بعينى كثيرا فى مدن بعيدة لا أذكر اسمها ، لم أتذكر أننى نمت فى أى مكان خارج الدار لأقول إننى خلعتها لأجعل منها مخدة تحت رأسى فسرقها شقى عابر . رأيتنى ابتسم من خاطر مر بذهنى على هيئة جرنان مفرود ومكتوب عليه عنوان بالخط الكبير: لص يسرق جزمة رجل وهو يمشى دون أن يشعر به . أيكون هذا قد جرى بالفعل ؟ كيف ؟ أأكون قد نسيتها فى الدار قبل خروجى إننى لا أعرف حتى أين هى دارى ، بل لا أعرف إن كان لى دار هنا أم أننى غريب عابر سبيل .

سرعان ما تبينت أننى أمشى فى هذا الشارع المجهول منذ وقت مضى ولكننى لم أتذكر أين تكون وجهتى على وجه التحديد . صرت أتلفت فى كل ناحية ، أنظر فى كل شىء ، أكاد استوقف كل طفل لأسأله إن كان قد عثر على جزمة شكلها شكلها شكلها ، ثم تذكرت شكلها ، أنا بالفعل كنت ألبس جزمة . الآن تذكرت ، إذن فهى قد ضاعت فأين ضاعت ياترى ؟ وكيف ضاعت ؟ رجال قلائل جدا صادفونى فى هذا الطريق ماشين فى الاتجاه العكسى ، فكنت أحدق فى أقدامهم بارتياب ، إلى أن رأيت عربة نقل كبيرة بجرار تقف راكنة على جنب فى الطريق ، متى اختفى الشارع وكيف تحول الى طريق فى الخلاء ؟ فوجئت بأن هذه العربة

الجرار ملآنة بالرفوف الخشبية وأن عجلاتها هى الأخرى من الخشب ، الرفوف على شكل عيون واسعة مربعة كرفوف العطار ، نظرت فيها فهالنى أنها ملآنة بالأحذية المرصوصة بجوار بعضها ، استغربت ، قلت لنفسى لعلها دكان متنقل يبيع الأحذية القديمة بعد تصليحها وتنظيفها اقتربت وقد وقر فى ذهنى أن هناك من يسرق أحذية الناس ويبيعها لهذه العربة كى تبيعها بدورها للناس بنصف أو ربع الثمن . صرت أدقق النظر فى الأحذية المرصوصة على رفوف العربة الجرار وقد ارتفع فى صدرى اليقين بأن جزمتى موجودة بين هذه الجزم . بالفعل تعرفت عليها راقدة فى رف من الرفوف ، بحثت عن صاحب العربة الجرار لأضربه وأشده الى قسم الشرطة الذى لا أعرف له مكانا هنا . لم أجد أحدا على الاطلاق ، تشعبطت فى رفرف العربة ، قفزت الى داخل صندوقها المستطيل غير المسقوف نزعت جزمتى من مكانها على الرف ، ثم لبستها فى الحال وقفزت من العربة الى الطريق الذى فوجئت بأنه عاد فصار شارعا كما كان ، على جانبيه العمائر والفيلات ، كنت أسب وأشتم ، وأشوح بيدى فى غيظ وغضب ، والناس من حوالى يرمقوننى فى اشفاق كأننى جننت ، وحينما تفكرت فى الأمر وظهر لى أننى ربما أكون جننت فعلا ، فوجئت بأننى صحوت من النوم وأنا أقهقه بصوت عال .

لم يقلقنى هذا المنام لأننى رأيته فى مدخل النوم حيث تكون المنامات خنفشارية لا أصل لها من فصل ، ولا فصل من أصل ، ولما فتحت عينى ورأيتنى أضحك مقهقها اعتبرت المنام نكتة بايخة داعبنى بها كابوس النوم الرذل ، ثم استأنفت النوم حتى آذان الفجر فصحوت ـ صليت الفجر وتوكلت على الله إلى السوق .

مر النهار عاديا ككل يوم ومر الذى يليه فالذى يليه دون أن يعكر صفوى شىء، لا من ناحية مفتش التموين ولا من ناحية المسواق ولا السبوبة ولا مناكفة الزبائن من النسوان السليطات طويلات الأيدى .

قل إن شهراً أو أكثر قد مضى ، فى ذلك الحين كانت أمى تعيش معى وهى فوق الثمانين من عمرها لا تهش ولا تنش إلا أنها كثيرا ماتتضايق من زوجة أخى

حسين فى البلد ومن حسين نفسه لأنه لايرعاها مثلى اذ هو رجل عاجز البصر وفى حاله معظم الوقت ، فتجيء لتقعد عندى شهرين ثلاثة أربعة ، إلى أن تشتاق لعيال أخى حسين فأكسوها وأصحبها الى كوم سعيد فأتركها وأعود الى القاهرة.

وذات يوم زهقت من خمول السوق حيث بقى من السبوبة صفيحة قراميط وحوالى عشرين كيلو بلطى على مكرونة على بياض ، فتركت ولدى صابر يبيعها على مَهله وقفلت عائدا الى الدار لكى أغمض عينى وأريح الجثة قليلا قبل صلاة العصر ، فلم أجد فى الدار سوى أمى بوجه مكفهر أزرق اللون ، وبناتى سناء وآمال وهدى وراوية قد انزوين كل واحدة منهن فى ركن وانخرطن فى بكاء صامت.

إنقبض صدرى ، فأنا مستعد لاحتمال أى شىء فى الدنيا إلا رؤية ولادى حزانى . لو شكتهم شوكة ينجرح قلبى ويصيبنى الهياج ، بقلب واجف سألت :

- «فيه إيه ياولاد؟» .

لم يتكلمن ، لكن أمى عدلت الطرحة فوق رأسها وقالت فى وجل كأننى سأحملها مسئولية ماحدث :

- «يا ولدى ! أم صابر لمت هدومها ومشت» .

مشت ؟! أم صابر عمرها ما عملتها ، وقع بيننا ما وقع من عراك طوال عمرنا وكان الأمر ينتهى بمجرد ما أرقد بجانبها على السرير ، وما أظن ماحدث بينى وبينها من مشاحنة ليلة أمس يمكن أن تجعلها تتصرف هذا التصرف الكبير الغليظ . تلم هدومها وتمشى تاركة عيالها .

كنت أعرف - كما تعرف أمى وعيالى أيضا - أن العلاقة بينى وبين ولد عمها السماكين ليست طيبة منذ وقت طويل مضى لا أطيقهم ولا يطيقونى ، تعاركت معهم وتعاركوا معى مئات المرات فى سوق غمرة وفى السيدة زينب ، حتى حدثت القطيعة بيننا ، فكأننا لا نعرفهم ولا يعرفوننا ، معنى الكلام أن أم صابر لا يمكن أن تقل عقلها وتذهب الى عمها فى الجيزة .

قلت لأمى :

- «قالت لك أم صابر أين ستذهب » ؟
ردت أمي قبل أن أكمل سؤالي :
- «أظن ياولدي أنها قالت إنها مسافرة إلى أهلها في كوم اسفحت» .
في الحال لبست ثيابي ، هرولت الى موقف سيارات الأجرة في بر الجيزة، ركبت البيجو الى أسيوط ، ومن أسيوط الى صدفا ، ومن صدفا الى كوم اسفحت.
«سلامو عليكم» .
- «عليكم السلام»
- «أم صابر جاءت لكم اليوم »
- «لا والله لم تجيء ولا رأينا لها وجها» .
- «أصلي عدت من السوق فقالت لي أمي إنها لمت هدومها وسافرت اليكم» .
- «أكيد راحت لعمها في بر الجيزة» .
- «مروءة من فضلكم ! واحد منكم يجيء معي لنذهب الى عمها لأنني كما تعلمون متعارك معه وأخاف لو ذهبت اليه وحدي أن نتعارك أريد أن أطمئن عليها فحسب ولها بعد ذلك أن تسافر معكم أو تعود معي ! هي ورغبتها !
- «وماله ! ارجع أنت الى مصر وسنلحق بك غدا إن شاء الله» .
قمت واقفا لا شاي ولا غداء ولا أي شي من واجب الضيافة ، ركبت البيجو عائدا الى القاهرة. وصلت الى بيتي في الثالثة صباحا ، ارتميت نائما كالقتيل ، والعيال من حولي يبكون لعودتي بدونها . .

في الصباح المبكر هرعت الى سوق غمرة وقد انصدت نفسي عن المسواق وعن الشغل كله ، إنما كنت أقصد جمع الأخبار عن أم صابر من عيال كوم اسفحت المشتغلين في حلقة السمك وما أكثرهم .

جلست الى رجل طيب يدعى محمد على عمر من كبار معلمي السمك في سوق غمرة . رحت أحكي له ماجرى فإذا بولد من كوم اسفحت يلتقط شيئا من كلامي ، فاقترب مني صائحا :

- «تتكلم عن حرمتك» إنها ستسافر الآن الى الصعيد في قطار الثامنة والنصف صباحا عمها أرسلها مع ولد عمها المجند في الجيش ! الساعة الآن

الثامنة يعنى لو خطفت رجالك تستطيع اللحاق بها فى القطار قبل قيامه من محطة مصر» .

انتفضت واقفا أبحث عن سيارة توصلنى الى محطة مصر .

ربنا وضع فى سكتى رجلا اسمه أبو رضا صاحب سيارة سوزوكى نصف نقل تستأجرها أنت وغيرك لنقل ما تتسوقه من سوق غمرة الى المكان الذى تفرش فيه رميت بنفسى على بوز السوزوكى هاتفا :

- «الحقنى يا أبو رضا اطلع بى على محطة مصر فورا سأشرح لك الأمر فى السكة» .

الرجل الطيب لم يفك حنكة بكلمة . ولكى يهرب من اشارات المرور خرم بى من شوارع جانبية ، طيران على محطة مصر .

وصلت الى الرصيف والقطار يتحرك ، تشبثت بآخر عربة من القطار ممسكا بحديد الباب ، قفزت الى الداخل ببراعة لم أعرفها فى نفسى من قبل ، أخذت القطار من أوله سيرا فى الممر أحملق فى الكراسى ، حتى وجدت أم صابر قاعدة بجوار ابن عمها المجند ..

- «قومى ياولية أين صرة هدومك» ؟

وقف ابن عمها هائجا :

- «لا لن تعود معك على جثتى إنها أمانة فى رقبتى ولابد من توصيلها للبلد وتسليمها لأهلها يدا بيدا»

صرخت فيه بغضب:

- «كلام كتير سأضربك وأفضحك » .

كلمة منى كلمة منه ، هاج صوتنا فى القطار كله ، على الكرسى المقابل يقعد أمين شرطة مع بعض الصعايدة ، صاح فىّ بخشونة :

«مالك ياجدع أنت فيه إيه» ؟

- «ياسعادة البيه هذه زوجتى معى منها ستة ولاد ، وهذا الجدع يقوم الآن بتهريبها الى الصعيد اسأله أنت حضرتك لماذا يأخذها؟» .

وقف أمين الشرطة ومال نحو أم صابر فى جدية واهتمام كبيرين هاتفا :

ـ «ياحاجة ! تبغين العودة لعيالك أم الذهاب الى أهلك؟» .

بدون أى تردد قالت أم صابر :

ـ «أرجع لعيالى»

قال ابن عمها المجند :

ـ «لايمكن إنها أمانة فى رقبتى من عمى الكبير» .

صرخ فيه أمين الشرطة :

«اخرس أنت أحسن وبينى وما أعبد أخذك الى قسم الشرطة بتهمة خطف سيدة من ولادها» .

شاركه الجالسون فى العربة كلها ، شتموا الولد وهزأوه وتجمعوا حوله والغيظ واضح عليهم ، مما شجع أمين الشرطة على التصرف :

ـ «قومى ياحاجة وانزلى مع زوجك» .

فقامت أم صابر وسحبت صرة هدومها ، كان الولد مستعداً للاشتباك مع أمين الشرطة فهو لبط كما يظهر عليه ، لكنه أخذها من قصيره وسكت خوفا من الركاب المغتاظين منه . كان القطار يهدىء للوقوف فى الجيزة فيما راح الركاب يودعوننا بمرح وانبساط .

نزلنا فى محطة الجيزة . سألتها :

ـ «إذا أحببت أن نعود الى دار عمك لآخذك منها حتى لا يغضب عليك فأنا لا أمانع »

قالت أم صابر فى حسم :

ـ «خذنى الى عيالى» .

هاجت الدار كلها يابو العم ، وأنا صارت دموعى تهطل من شدة التأثر والفرح لانبساط العيال ولتوفيقى فى العودة بها من أجلهم ، ذلك أننى أحبها حبا كبيرا جدا والله يا أستاذ . ومن يومها وأنا موقن أننى بدونها كمن يمشى حافيا على طريق من الحصى والأشواك .

كلبـــــان

رأيتني واقفا على شاطىء نهر يشبه نهر النيل. الدليل الكبير الذى أقنعنى أنه نهر النيل هو أننى لم أكن خائفا منه كأننى صديقه كما هو صديقى . أمواجه كانت تسبح فى هدوء ، ترفع رءوسها كأنها تبعث لى بالتحية تقول : تفضل يا رجل وانزل بيننا كما اعتدت أن تفعل فلسوف تجد عندنا الخير الكثير من بلطى وبياض وقراميط. كنت مشتاقا إليها بالفعل وأود لو أخلع ثيابى هذه النظيفة وأرمى بنفسى فى أحضانها، كل شعرة فى جسمى كانت منتصبة من شدة الشوق لحضن الموج، ثم إن لون المياه كان يشبه لون بشرتى الخالق الناطق فهى إذن من لحمى ودمى وأنا من لحمها ودمها .. الشىء الوحيد الذى جعل النهر يبدو غريبا بعض الشىء هو اتساعه الكبير، لدرجة أن الشاطىء الآخر – الذى خيل لى أنه لابد أن يكون الشاطىء الشرقى – لم يكن يبدو له أى أثر على مدد الشوف مع أن نظرى ستة على ستة كما قال لى الطبيب ذات مرة فى كشف الجهادية. الماء ممتد قدام بصرى إلى غير نهاية فى حين أننى رأيت نهر النيل من أسوان إلى الإسكندرية وفى أعرض مساحاته عند بلدة النخيلة فلم يحدث أن غاب الشاطىء الآخر عن بصرى.

الموضع الذى أقف فيه أشبه بالموردة : سلالم حجرية عريضة مبنية فى المسطاح من شفة السكة إلى عمق غاطس بطول قامة رجل عملاق ؛ أعدت هذه الموردة لتجلس النساء عليها لغسل القمح والثياب والمواعين .

نظرت حوالى فلم أجد صريخا ابن يومين، وعلى امتداد مساحات كبيرة لا أثر يدل على بلدان قريبة أو بعيدة، لا شىء سوى الارض الشراقى وبقايا حطب جاف. بدأ الخوف يعترينى، والصمت الذى يلف كل شىء حولى أقنعنى بأن الدنيا كلها ماتت ولم يبق على ظهر الأرض سواى .

لحظة أن صعدت الصرخة إلى حلقى وتأهبت للإندفاع فوجئت بذلك الرجل الطائر إياه، الذى كنت رأيته فى المنام مرات وفى الحقيقة مرة حينما شتمنى

واستتابنى، شفته يطب راكسا أمامى على ركبة ونصف. تشهدت إذ رأيته ، قلت الحمد لله هاهى الدنيا لم تمت بعد .

أشار إلى كتفيه قائلا : «إركب» . قلت له : «توصلنى إلى البر الشرقى؟» قال : «إركب». طوقت عنقه بذراعى وظهره بساقى. دفع نفسه لأعلى فارتفع فى الهواء ثم فرد ذراعيه نائما على بطنه فوق السحاب. صار الماء يجرى من تحتنا فى الاتجاه المعاكس، والريح تصفر فى اذنى بزمجرة رهيبة تكاد تعصف بى، فأتشبث برقبة الرجل وهو يضحك فى زئير يرج السحاب، ويقول : «لا تخف». قلت له :

– «إختر مكانا آمنا على الشاطىء الشرقى واتركنى فيه يكون لك الشكر الله يرضى عليك» .

لاح البر ثم اقترب . بدأ الرجل فى الهبوط الى أن وقف تماما على الشاطىء ، نفضنى عن ظهره فاستويت واقفا. لففت حوله لأشكره وجها لوجه، فلم أجده.

وجدتنى على البر وحدى ، أمامى شريحة من الاشجار قصيرة القامة، من الواضح أنها مزروعة من وقت قريب جدا، فروعها نحيلة وأوراقها قليلة صفراء تتأهب للسقوط مع كل نسمة هواء . فهمت أننا فى فصل الخريف. بقيت واقفا فى مطرحى أفكر فيما يجب على أن أفعله. شفت كلبين؛ أحدهما قادم من يمينى والآخر من شمالى ؛ يجريان نحوى فيما هما ينبحان نباحا متصلا عالى الصوت مستفزا للأعصاب. لم يكن يبدو عليهما أنهما يقصدان بى شرا، بل كانت الطيبة واضحة على وجهيهما ؛ مما جعلنى أتصور أنهما يرحبان بى ؛ لكن نباحهما ضايقنى وخوفنى من فضيحة غامضة مجهولة. إنحنيت على الأرض، كبشت حفنتين من التراب، رميت هذا فى وجهه بواحدة ، ورميت الآخر بالأخرى، فاستدار كل منهما من سكات ومضى إلى حال سبيله .

دخلت بين الأشجار . إن هى إلا خطوة واحدة خطوتها، إذ وجدت نفسى واقفا وسط مقابر أشبه بمقابر بلدتنا كوم سعيد . عجبت ، تساءلت : ما الذى جاء بى إليها أو جاء بها إلىّ ؟! مشيت فى نفس السكة التى امشى فيها دائما كلما زرت القرافة لأصل بعد خطوات معدودة إلى مقبرة عائلتنا. فجأة وجدتها قدامى ، شفت

ثلاثة رجال يفتحون المقبرة ، يستخرجون من بطنها قوالب طوب. إرتجف قلبى، إندفعت نحوهم ، فإذا هم أخى حسين ومحمد ولد خالى وأخوه صفوان . شعرت بدمائى تجف فى عروقى ، تهيأت للصراخ وشق الهدوم من شدة شعورى بالفجيعة رغم أننى لم أعرف بعد من الذى مات. في اندفاعى نحوهم كبوت، وقعت فى الأرض ، تشقلبت ، وكالبهلوان اعتدلت قاعداً .

تقلبت أم صابر من فزعتى ، إستوت قاعدة هى الأخرى. قالت : «الفجر وجب؟» نظرت فى ساعتى فإذا الفجر قد وجب حقا. توضأنا معا، صلينا معا. ثم إننى لبست ثياب السوق الزفرة وقلت لأم صابر : «إطبخى لنا اليوم لحما أو دجاجا !!». توجست الولية، قالت : «ماذا رأيت؟» قلت : «الآن أرى ناسا من البلدة تركب القطار لتجيء إلينا فكونى مستعدة والسلام بأى طعام يليق بضيوف !» .

توكلت على الله إلى السوق منقبض القلب ، وثمة هاتف يوعز لى أن أمكث اليوم فى الدار تحسبا لأى طارىء مشئوم، إلا أننى لا أتراجع عن السوق بسهولة، فاليوم الذى لا أذهب فيه إلى السوق مخصوم من عمرى كأنى لم أعشه .

تسوقت سمكى وعدت من السوق الكبير فى الضحى، لأجد فى السوق الصغير فى مزلقان منشية ناصر تليغرافا من البلد فى انتظارى : «إحضر حالا! خالك تعيش أنت!».

عند أذان العشاء كنت فى بلدتنا كوم سعيد مركز صدفا بمحافظة اسيوط . أديت واجب العزاء فى خالى، قفلت عائدا إلى دار أخى حسين الجديدة على شاطىء المصرف فى مدخل البلدة . صار أخى حسين يكلمنى فى مشكلة كنت نسيتها : الحكاية أن ولدى الكبير صابر شارك عمه حسين فى ماكينة لطحن الكزب الذى تأكله المواشى ، ودفع له خمسمائة جنيه نصيبه فى الشركة ، لكن أختى صفية – وهى حماة ولدى صابر– ضغطت على زوج ابنتها لكى يسترد الخمسماية الجنيه من عمه لتستثمرها له فى مشروع أضمن ربحا من مشروع عمه الخايب. طاوعها الولد، طلب المبلغ من عمه بإلحاح، وعمه غير مستعد حاليا لرد مبلغ كهذا، وإنه لغاضب من الجميع ، نمرة واحد : كيف يشاركه الولد في مشروع

ويعود بعد شراء الماكينة فيطلب المبلغ؟ هل هو شغل عيال؟! نمرة اثنين : كيف لأخته صفية – عمة الولد وحماته – أن تقول للولد مثل هذا الكلام ؟ هل جنت فى عقلها ؟! هل هذا من الأدب والأصول أم أنه شغل حوش لا يليق بنا ؟! ..

ما كدت أشرع فى تهدئة خاطره حتى فوجئنا بأختى صفية داخلة علينا . قعدت عن يمينى ، وكان أخى حسين عن شمالى . دقيقة واحدة يا خال بعد السلام والسؤال عن الصحة والبقية فى حياتك وحياتك الباقية، ثم انفلت عيارهما معا، كل منهما راح ينبح ويصرخ فى أذنى شاكيا من الآخر، وأنا حائر بينهما لا أكاد أنتبه لأحدهما حتى يشدنى الاخر والكلام يزداد غلظة شيئا فشيئا حتى يتحول إلى شتائم بذيئة قبيحة وفى صوت عال كالفضيحة المدوية. صعبت على نفسى وأنا كبيرهما ومن الواجب عليهما احترامى. أفلتت أعصابى، صرخت فيهما أن يكفا، فما زادتهما صرختى إلا تطاولا، فإذا بى أهوى على صدغ أخى حسين بصفعة اجتهدت ألا تكون عنيفة لكننى عجزت عن التحكم فى قوتها ، تلقاها المسكين وغادر المندرة الى داخل الدار فى احتجاج مكتوم. ثم هويت على صدر أختى صفية بزغدة خفيفة ، تلقتها بصمت ونهضت فى الحال مغادرة المندرة والدار كلها وهى تشهق من البكاء .

صرت وحدى فى المندرة لا أدرى ماذا أفعل . فشلت في تهدئة نفسي. خرجت الى الخلاء وفى نيتى أن أشم الهواء لعلى أهدأ لكننى بعد مشي طويل تبينت أننى أقترب من محطة صدفا. أخذتها من قصيره، صممت على السفر من ساعتى .

ما كدت أقتعد كرسيا فى قطار الصحافة المتوجه الى القاهرة حتى لفحنى الهواء فأغمضت عينى مرهق الأعصاب ، فانبعث فى مخيلتى صورة كلبين ينبحان عن يمينى وعن شمالى ، ويدى تقذف كلا منهما بحفنة من التراب فيرتدا عائدين . إبتسمت رغما عنى، وأسلمت رأسى للنوم اللذيذ .

الأخ الأقـــــــدم

رأيتنى قاعدا مع أم صابر وحدنا فى لحظة روقان نادرة، حتى صرت أسأل روحى : متي حدث هذا يا ولد؟ هل أنتما دائما هكذا أم أنها لحظة فالتة من رقابة الزمن ؟! تعود الحياة بعدها إلى جهنمها الحمراء ؟!..

خيل لى أننا دائما هكذا طول عمرنا: هى وأنا على السرير بعد أن استحممت بالمياه الساخنة والصابون المعطر فأزلت زفارة السوق عن جسدى ولبست الفانلة والسروال النظيفين وخلعت الصديرى فصار مكان المحفظة ينقح على جنبى كالعادة كلما خلعته كأن جنبى تعود على ثقل المحفظة وكأنها رقعة ثقيلة تحميه من البرد وبغيابها ينفتح شباك الريح على جنبى فيوجعنى ، إلا أننى تلذذت بالتخلص من كل ثقل المحفظة لكى أنعم بهذه القعدة المريحة مع أم صابر وحدنا بعيدا عن دوشة السوق ودوشة العيال. هى أيضا من الواضح أنها مبسوطة آخر انبساط حيث خلعت ثيابها السوداء كلها ولبست قميص النوم النايلون الذى اشتريته لها من الموسكى ولم أرها ترتديه ابدا قبل الان، وتعطرت، ووضعت امامنا طبقا فيه موز وبرتقال وفاكهة اسمها الكاكا ظنناها أول الامر نوعا من الطماطم الإفرنجية ولما ذقناها ووجدناها كالعسل النحل ادمناها ..

خيل لى أننا دائما هكذا. ثم خطر لى فجأة أننا لم نكن أبدا هكذا. فهذه اللهفة، وهذه الفرحة ، وهذا الخوف من أن يكدر صفونا شىء أو يطلع علينا عفريت من العيال أو عيال العيال، وهذه الرعشة فى اطرافى وأطرافها وجيوش النمل التى تتمشى فى عروقى وتحرك تحت بطنى رجلا كاد يموت من كثرة الدفن والنسيان.. كل ذلك يؤكد لى أننا قد أفقنا فجأة فرأينا انفسنا على هذا الوضع وأننا يجب أن ننتهز الفرصة لنتعم بهذه اللحظة التى وضح أننا كنا ننتظرها من زمن طويل مضى، وها نحن نشعر كأننا نغافل حراسا مجهولين لنسرق منهم شيئا ثمينا غاليا.

هيء.. ها .. النكد وراءنا وراءنا . كنا نظن أن إغلاق الباب علينا من الداخل سيوفر لنا الأمان في هذه اللحظة الرائقة. إلا أننا فوجئنا بكلب اسود ضخم الجثة كحمار يربض في ركن من الحجرة ناظرا فينا مكشرا عن انيابه . نظرت لأم صابر ونظرت لي. كان الخوف باديا عليها إلى حد الرعب ، وكان الرعب قابعا في قعر بطني إلى حد الظن بعدم الخوف ..

نظرات أم صابر تسألني : من أين جاء هذا الكلب ومتى وكيف ؟! إننا لا نربي كلبا في بيتنا كما أننا نعرف كل كلاب الحارة كلبا كلبا ونحن وهم اصدقاء ولا يجرؤ كلب منهم على النظر فينا هكذا بعين الشريله أن يتهيأ للوثوب علينا . سبحان الله ، ألا يحق لنا أن ننعم في هذا البيت بلحظة راحة وفرح؟ أعوذ بالله ، هكذا قلت في عقل بالي، لكني قلت لأم صابر : لا تخافي يا ولية فالكلب شيمته الوفاء وهو الأخ الحقيقي للإنسان في الحياة بل هو الأخ الأكبر لأنه الأقدم منه على الارض ولذا فهو الأعقل ..

أم صابر طبعا لم يدخل عقلها هذا الكلام، راحت تلحسني بنظرات سخنة خشنة، تشد قميص النوم على وركيها لتداري بياضهما الشهي، وتداري صدرها بيديها كأن الكلب سينهش ثدييها . وبينما رحت أفكر في النزول عن السرير لأفتح الباب وأطرد هذا الكلب بصنعة لطافة حتى لا يهجم على متصورا أنني أقصد به شرا، ما دريت إلا وهو يزداد اقترابأ منا فاتحا حنكه المخيف عن أنياب كالخوابير، يزأر بشدة ونذالة غير معهودة في الكلاب، فما كان مني إلا أن ملت على الارض بسرعة فما وجدت سوى حذائي الأسود، فاختطفت فردة ونشنت على الكلب وقذفته بها فإذا هي تستقر بين فكيه، وإذا به يهر كأنه فرح بها، ثم يختفي في الحال. ما كدنا نستعيد لحظة الهدوء التي كنا فيها حتى فوجئت بي أتقلب في الفراش وأفتح عيني على صوت أذان الفجر ، وأم صابر واقفة في وسط الحجرة بالفوطة وأمامها حلة الماء الساخن تناديني كي أتوضأ وأصلي الفجر وألبس هدوم السوق الزفرة وأتكل على الله إلى معمعة الشقاء اليومي في سوق السمك. قلت في عقل بالي: ربنا يستر . وقلت بصوت عال رغما عني : اللهم اجعله خيرا. امتثلت لفضول أم صابر فحكيت لها ما رأيت حالا، فشوحت في فروغ بال وقالت :

- «الكلب أخو الإنسان فلا تخف منه !» .

قلت من باب طمأنة النفس :

- «وهو معروف بالوفاء !»

لكننى ربك والحق كنت قلقا أشد القلق .

فاتت الأيام تجرى كالفلوس الطائرة نحو العيد الكبير الذى كان على الأبواب . كل يوم اشترى واشترى لا أكف عن الشراء إلا لأتذكر شيئا كان يجب أن أشتريه للعيد. كل عيالى وعيال عيالى اشتريت لهم ما قدرنى الله عليه، خروف العيد كالعادة كان لابد أن يجىء كبيرا سمينا يكفى العائلة والتفريق على المستحقين. ويوم الوقفة فوجئت بى أنا وأم صابر قاعدين وحدنا على الكنبة بثيابنا القديمة حيث لم نشتر لأى منا خيطا فى إبرة ، فقد نفدت كل الفلوس ولم يبق معى سوى جنيهات قليلة غيرتها بجديدة من انصاف وارباع وبرايز لتفريقها على العيال صباح الغد، لكننا كنا فى غاية الانبساط ندبر لقضاء نصف ليلة فى هدوء وراحة بال. كان كوب الشاى أمامى وسِنة الأفيون تحت لسانى ومبسم الشيشة فى فمى حينما رفعت رأسى على ظل أسود يسد باب الحجرة. نظرت فإذا به اخى حسين قادما من البلد. أهلا وسهلا مرحبا ، سلم علينا وقعد بجوار الباب مكفهراً عابس النظرات. أمك بخير يا حسين ؟ الحمد لله .. أولادك عال العال ! الحمد لله. البلد كلها طيبة ؟ الحمد لله. ما لك إذن ؟! لا يرد . ظل هكذا طوال الليل حتى كدرنى وعكر دمى وسود الدنيا فى وجهى ومخى يضرب يقلب بحثا عن السر فى لوية بوزه وعما يكون وراءه من أخبار سيئة يخفيها عنى إلى حين..

من شدة الكدر داهمنى الصداع والدوخان والهمدان . قمت فدخلت الحجرة الداخلية ورميت بنفسى على السرير سابحا فى ملكوت لا نهائى . وكان صوت الوشوشة بين ام صابر وأخى حسين يجيئنى غامضا مبهما مقلقا، يغيب احيانا حتى الموات ثم يعود في جلبة سرعان ما أتبين منها أن أم صابر ذهبت فأحضرت له العشاء وعملت له الشاى ، إلى أن طلع النهار وقامت قيامة الدار والدنيا كلها فانتفضت قاعدا أحاول العثور على دماغى فى بحر التوهان. لحظتها دخلت أم صابر قائلة بشىء من الضيق :

– «وأخوك حسين يطلب جزمة جديدة يعيِّد بها بدلا من البرطوشة التى فى قدميه !!» .

سبحان الله. لوية البوز هذه كلها من أجل حذاء جديد ، يجيء من الصعيد للقاهرة من أجل جزمة ؟ صحيح أنه يركب القطار بالمجان نظرا لأنه نصف ضرير وفراش مدرسة مقعد بشهادة صحية لكن المشوار سخن، هل جاء ليعيِّد علينا أم جاء يضرب عصفورين بحجر واحد ؟! .. المهم ماذا أفعل له الآن وليس معى مليم واحد ؟. وبينما أتدبر أمر الخلاص منه بصنعة لطافة ألهمنى الله أن حذائى الأسود الذى اشتريته منذ شهرين جاء ضيقاً بعض الشئ على قدمى وأننى نويت شراء غيره حين ميسرة. طلبت من أم صابر أن تبحث لي عن الحذاء القديم الذى كنت هجرته بعد شراء هذا الجديد، فانحنت تحت السرير ولهثت حتى انقطع نفسها بين الكراكيب إلى أن أتت به متصلبا كالحا . فلما اطمأننت إلى وجوده أتيت بحذائى الجديد ووضعته فى كيس نايلون من أكياس البيع وناديت حسينا فأعطيته له، ففرح به فرحا شديدا وتهلل وجهه وهو يتأبطه ويختفى به عن ناظرى. وبينما شرعت أتمدد مسترخيا محاولاً استعادة دماغي سمعت طرقاً على الباب، وقيل لى إنه الجزار ، فانتفضت قائما إليه لأقدم له خروف الضحية .

كـابـوش الذهـب

ما كان لى علم بأن ابنتى راوية – آخر العنقود – ضاعت منها سلسلة بمصحف من الذهب ثمنهما معا فوق الاربعمائة جنيه فى زمن الرخص يوم اشتريناهما. ولو علمت لقلت لها فداك ، ولاشتريت لها غيره دون ابطاء. فأنا لا أستخسر شيئا فى راوية لأنها وش السعد من يومها مع انها جاءتنا غصبا عنى وعن أمها !! . فجأة حملت امها فيها بعد أن توهمنا انها كبرت على الحمل وبعد ان شبعنا من كثرة العيال : سناء وأحلام وصابر وهدى ومحمد عال العال وربنا يقدرنا على تربيتهم فى زمن بخيل يسوق النذالة معى .

أيامها كنت كلما حوطت مكانا فى مقابر قايتباى ، يجىء ذلك المسمى بالبلدوزر يهده ويمشى فى مهابة وجبروت، مع أن المكان الذى أقيم عليه جدرانى ليس ملكا لأحد ولا هو مطلوب لأحد إنما هو فراغ واسع بين طريقتين لا ضير أن يعيش فيه بعض الاحياء ممن لا دار لهم فى هذا البلد. ومثل بعض الحشرات التى تدفن نفسها فى شقوق تضمن عدم قدرة الكائنات الكبيرة المعادية على النفاذ اليها، زحفت أنا إلى أعماق جوانية فى قلب المقابر لا يستطيع البلدوزر الدخول اليها بأى حال من الأحوال ، وأقمت تعريشة من الطوب والطين والبوص وصناديق الكرتون المفككة .

صرت اقضى الليل كله راقدا فى فتحة الباب من الداخل بالعرض لأمنع أى خطر عن الدخول الى العيال . ثمة ثعبان اسود منقوش الظهر بما يشبه الاصداف الملونة نقشة لا مثيل لها فى خان الخليلى، لم يكن عدوانيا ولا شريرا ربك والحق، لأنه شبعان حتى التخمة والمقابر من حوله ثلاجات تحفظ له افخر انواع اللحوم السكرية ، لكنه لم يكن يحلو له الرقاد إلا تحت مخدتى ، حيث اشعر وأنا فى عزّ النوم أن المخدة ترتفع برأسى ، وكومة لحم طرى تتقلب تحتها بقوة فتهدهد رأسى

بين علو وهبوط. كان واثقا بنفسه لأنه يعرف ومتأكد أننى غير راغب فى إيذائه .
إنما الفزع كله يأتى من خوفى أن يخش بين العيال الراقدين كالموتى فيصرعهم ويسلب النوم من عيونهم مدى الحياة ، وستولول أم صابر قائلة : ألا يكفى أننى وأنت نقضى معظم الليل والنهار نصطاد العقارب بسيخ حديدى مدبب ؟ حقا لم يكن ينقصنا إلا أن تنام الثعابين فى أحضاننا !!

الفزع كان ممنوعا على حتى لا يفتضح أمر الثعبان للعيال من ناحية ، وحتى لا يتصور حضرته حين يشم رائحة خوفى أننى اقصد به شرا من ناحية اخرى والا هاجمنى قبل أن أثبت له جسن نيتى . بكل هدوء أنهض قاعدا، بهدوء أكثر أهب واقفا ، اشب على اطراف اصابعى، خطوة والثانية اصل إلى لمبة الجاز نمرة خمسة المعلقة على الحائط، ارفع شريطها فتتسع خيمة الضوء، يكون هو قد اطل بدماغه وعينيه البراقتين من تحت المخدة وراح لسانه الشبيه بالزخمة يبصبص هنا وهناك فى لؤم. أعرف بخبرتى الطويلة أن الثعابين تكره الضوء فى الليل وتعشق الاركان المظلمة فى النهار. هذا الضوء يكفى لطرده بالحسنى. مع ذلك اروح استنجد بسيدى الرفاعى، اقرأ سورة يس وآية الكرسى، يدى تزحف بجوارى مقتربة من النبوت المركون استعدادا لسحبه والنزول به فوق هذا الدماغ الكريه إذا قلّ اصله وزحف نحو العيال . اراه ينظر لى محملقا بتركيز كأنه ينذرنى بالويل إذا تحركت من مكانى . وإذ يرانى مسمرا فى مطرحى ينظر لى ثانية بغير حملقة كأنه يستأذننى فى الدخول. أشير له بذراعى قائلا فى ود، وبصوت خافت جدا :

– روح لحالك الله لا يسيئك ! إتكل على الله ! إسع !» .

ويكون قد خرج من تحت المخدة وتكور على نفسه . اشير له بذراعى إلى الباب مترجيا. ربك والحق كان يستنوق فيستدير عائدا مفروداً طويلا بطيئا كموكب الجنازة .

راوية آنذاك عمرها شهور قليلة ، ضئيلة الحجم كالكوساية ، لو فتح الثعبان فمه لابتلعها . ترقد مدفونة فى حضن امها، وأنا من خوفى عليها اراقبها كلما قلقت، ليقينى أن أمها وإخوتها غير راغبين فيها وكلهم أمل فى أن تموت ميتة ربها

ولو مكتومة الانفاس. كان الله قد تاب عليّ من السرح بالجنية فى الشوارع طول النهار وهيأ لى دكانا صغيرا في منشية ناصر التى بدأت تتسع ويكثر الخلق فيها، صرت أفرش فيه السبوبة .

ذهبت يوما للمسواق من سوق غمرة . التقانى تاجر كبير احبه ويحبنى ، قال لى :

– «يا أحمد ! عندى مائة صفيحة ملوحة صغيرة سعرها مستريح ولُقطة ! تأخذها بركة ورثك ؟».

شوحت فى وجهه بغيظ :

– « ماذا أعمل بها يا بو العم ؟! أنا أبيع سمكاتى بطلوع الروح لناس هربيس لا تشترى إلا بالنص كيلو وكيلو!» .

– «خذها تنفعك وقت زنقة ! طاوعنى !».

– «الله يرضى عليك ! ما معى قرش واحد فائض عن بتاع الناس !» .

صاح كأننى أنقذته من ورطة :

– «خذها وادفع فى أى وقت تشاء ! ما بين الخيرين حساب!» .

– «على كلٍ حال ابعث لى بعشر صفائح وهى ورزقها !» .

ومضيت نحو المزاد . شيعنى قائلا :

– سأبعث لك خمسين صفيحة ولا تدفع شيئا !! إبسط يا عم !».

لم يكن عندى وقت للرد . أنهيت المسواق وعدت بالسبوبة الى منشية ناصر فى عربية سيزوكى صغيرة نشترك فى تأجيرها أنا ومجموعة سماكين فى أماكن متقاربة . ما كدت أفرش حتى لحقت بى عربية نصف نقل محملة بالصفائح . اغتظت طبعا لأن الرجل المجنون صمم على رأيه وبعث بالخمسين صفيحة . تركت التباع يعتق النقلة دون أن أهتم به ، فلما انصرف بعربيته فوجئت بأن المجنون بعث بالصفائح المائة كلها . أخذت ألطم وأجعر وأسب دين الرجل والذين خلفوه ، وفى النهاية نقلت الصفائح الى الدار وأنا أتفجر غيظا وكمدا. إشترينا جوالين من

الملح ، فى ليلتين تسلينا على الصفائح غمرناها بالملح وكتمناها وستفناها فوق بعضها بعضا وغطيناها بمشمع ونسيناها عدة شهور .

الرجل المجنون كان يطلب ثلاثة جنيهات فى كل صفيحة والصفيحة وزنها خمسون كيلو جراما . نفسيتى كانت قد هدأت فصرت كلما التقيته أعطيه عشرة جنيهات فى خمسة فى ثلاثة فى اثنين احيانا، إلى أن بقى له فى ذمتى بضعة جنيهات ماطلته فى دفعها وكلما فك حنكه صحت فيه :

– «تعال خذ صفائحك التى تزحم الدار!» .

فيقول فى تهديد مرح :

– « ماشى يا أحمد ! سآخذها !» .

فى عصرية طرية النسمات رائعة الجو كنت قاعدا أمام بقايا السبوبة أشد نفسين من الجوزة ، فإذا بى أرى صعيديا ضخم الجثة يشبه ذلك الذي حملنى على ظهره فى المنام ذات يوم بعيد وطار بى فى الفضاء عابرا النهر إلى سلم الملك فى أسيوط . إرتعت لمرآه ، إعتدلت فى قعدتى . سحبت اطراف اللباس على ركبتى. إقترب منى قائلا :

– «ما تعرف أحدا يبيع الملوحة هنا يا بو العم ؟»

– «ملوحة لأكلك يعنى ؟»

– «للبيع والشراء ! تجارة يعنى !»

قلت: «اقعد يا بو العم ! قم يا صابر هات اتنين حاجة ساقعة من أى دكان » .

شربنا الحاجة الساقعة واصطحبت الرجل، خرمت به إلى الدار ؛ رفعت المشمع ، سحبت صفيحة ، فتحتها، كبشت منها حفنة ملوحة بدت كالكهرمان منظرها يفرح القلب . قال الرجل :

– «زين .. بكم تبيع الصفيحة ؟»

ترددت . قلت :

– « يوجد عندى مائة صفيحة ! تكلم أنت فإن وافقنى كلامك أهلا وسهلا وإن لم يوافقنى أهلا وسهلا كذلك ! »

قال من فوره :

– «ثلاثين جنيها للصفيحة ! وآخذ الكمية كلها !»

زعق قلبي في ضلوعي بشدة، لكنني قلت للرجل :

– «حرك نفسك قليلا!»

رفع يده في إصرار صائحا :

– «قل لي الله يربح !»

– «الله يربح ! مبروك عليك !»

سحب محفظته، عد لي ثلاثة آلاف جنيه وضعتها في صفيحة فارغة .. حمل الرجل صفائحه ومضى وأنا على يقين من أنه الملاك الذي يبعثه الله لي دائما في المنام وفي الصحو على السواء . أول شئ فكرت فيه وأنا أعيد عد الفلوس هو راوية.. حملت الصفيحة العمرانة ودخلت عليها .. وجدتها راقدة، صحت في العيال: « وسعوا وسعوا» ؛ رفعت الصفيحة ودلقتها فوق رأسها فانهمرت الفلوس كالمطر، والعيال في زئيط وهياج يلمونها ويعيدونها إلى الصفيحة .. من يومها وأنا أحب راوية وأعزها دون كل إخوتها .

يشاء السميع العليم أن أذهب في ذلك اليوم لصلاة المغرب في جامع قايتباي . بعد التسليم ذات اليمين وذات اليسار وقعت عيني على «سيد غريب» جالسا عن يميني .. مد يده يصافحني فصافحته .. هو في أصله البعيد من أسوان لكنه مولود هنا . إيش حالك يا سيد ؟.. بخير والحمد لله ، ألا تريد أن تشتري بيتا ؟..

هكذا من الباب للطاق ؟ سبحان الله ؛ وأين هذا البيت يا سيد ؟ .. هنا في حارة العجوز . بيت مرة واحدة يا سيد ؟ قل عشة. قال سيد إنه ينوي أن يكرمني فيه ؛ ثم إنه سحبني من يدي إلى حارة العجوز . البيت مهجور ومنهار ومكوم بعضه فوق بعض لكن مساحته واسعة وحجراته كبيرة . بكم تبيعني هذا البيت يا سيد ؟.. بثمانية آلاف واسأل صديقك المحامي محسن حسنين الذي يصلي معنا في الجامع كل يوم يقول لك إن حجته وأوراقه تمام التمام . ثمانية آلاف ؟! سلام عليكم، وشمرت ذيل جلبابي وانطلقت بغير تفاهم . جرى ورائي ، أمسك بي، صاح محذرا :

- «لا تضع الفرصة ! أنت رجل طيب وربنا يجعله من نصيبك !» .

جرجرني إلى مكتب المحامي . الكلام جر بعضه بعضاً ؛ أردت أن أفطس البيت حتى يتركاني في حالي؛ قلت :

- «إذا كنت توافق بستة آلاف فإنني قد أفكر في الشراء !»

فإذا به يقول :

- «قدر أنك عزمتني أنا والأستاذ بخمسمائة جنيه !»

- «عزومتي بمائتين لا غير يا بو العم !»

- «حلوين ! إكتب العقد يا أستاذ !»

صرخت فيه :

- «إنتظر ! ليس معي الآن سوى ثلاثة آلاف فقط !»

- «خير وبركة ! عند التسجيل تدفع الباقي !»

عدنا إلى جامع قايتباي لصلاة العشاء وعقد البيت في جيبي يزغدني في جنبي عند الركوع وعند السجود ومع ذلك لا أكاد أصدقه . وفيما كنت أخرم بين المقابر إلى داري كان يشغلني هم المبلغ الباقي .

آمنت بك يا رب . ما كدت أقترب من داري في وسط المقابر حتى فاجأتني لمة كبيرة من الناس معظمهم بلدياتي . تبينت وجه أم صابر تبكي بحرقة ، وحولها العيال يصيحون بالبكاء . هرولت إليهم وركبي سائبة . سرعان ما تبينت أن البلدوزر قد داس فوق الطرب مخترقا طريقا إلى عشتنا فكومها وترك عفشنا متناثرا كل قطعة في ناحية . صرخت في العيال :

- «لا تبكوا يا عيال ! الحمد لله إشتريت لكم بيتا الآن !»

وأخذت ألوح بالعقد في يدي . ثم صحت فيمن حولي :

- «من كان منكم حزينا علينا فليعاوننا في تصوير حجرة واحدة نبيت فيها الليلة !»

الكابتن محمد نوح عاونني في نقل العفش إلى حارة العجوز . خلع الرجال

ملابسهم ، هيلا هوب، أزلنا الطوب والردم من إحدى الحجرات ، سقفناها بالبوص والحصير . جيراننا المسيحيون أولاد حلال ، مدوا لى سلكا كهربيا بلمبة كبيرة اشتغلنا على نورها واصطدنا من خلال الطوب والحيطان وأكوام التراب ملء صفيحتين من العقارب السامة . وفيما كنت جالسا أستروح النسمات بعد التعب لاحظت أن مختار ولد أختى لايزال جالسا بجوارى، وكان قد ابتنى لنفسه داراً صغيرة فى منشية ناصر ولسوء حظه وقع فى جار مشاغب يدب معه خناقة كل يوم . قلت لمختار :

- «إسمع يا ولدى ! شف لك صرفة فى هذه الدار بأى شكل وتعال أنت وأخوك عزت شاركانى فى هذا البيت الواسع أنتما النصف وأنا النصف !»

الولد استحسن الفكرة . وفعلا، أخذت منهما ثلاثة آلاف ومائة جنيه دفعتها لسيد وسجلنا البيت . كان ذلك على وش السعد راوية ، وكان لابد أن أكافئها فاشتريت لها هذه السلسلة بهذا المصحف الثقيل ليكون حرزا حريزا يصونها ويوسع رزقها . وما كان يخطر فى بالى أنه يمكن أن يضيع منها فهى لا تلبسه إلا فى المناسبات لكنه ضاع منها، واستطاع البيت كله أن يكفى على الخبر ماجورا حتى لا يبلغنى فأزعل وأعمل لهم زيطة . لكننى كنت أنظر من تحت لتحت فأرى البيت فى حال غير طبيعية . فى البداية ظننت أن البيت مقلوب حاله بسبب ما حدث لولدى صابر ؛ إنه راضع من لبن الحمير كما تعرفون، لا يعرف التفاهم بالعقل . حدث أن داهمنا مفتش التسعيرة الذى يتلكك لنا من أجل أن يأخذ ما فيه القسمة ويرحل، شكنا عشرات المحاضر كل محضر بغرامة مائة جنيه لاستشوائه مبلغ الرشوة . ولدى صابر ما كاد يراه حتى فقد شعوره وتزرين، شتم وسب دين الكفرة ولم ينكر اسم المفتش ولا شخصه لكنه لما رأى نية الغدر فى عينى المفتش قال: ما بدهاش، وشيع له عدة بونيات شلفطت وجهه . عنها وحكمت عليه المحكمة بالحبس ستة أشهر مع الشغل والنفاذ فى سجن طنطا، فانتقلت زوجه بعيالها إلى بيتنا . كان الشجار والنقار والزغد المكتوم يتفاقم فى بيتنا لكن صوته يكف تماما حين أبدأ فى الإنتباه ومحاولة معرفة من أخطأ فى حق من . فى بعض الأحيان

تصلنى صيحات مكتومة أتبين فيها لفظ السرقة وأسمع زوجة صابر تتنهد ضجرة وتقول : حسبى الله ونعم الوكيل ؛ ولم يكن يخطر ببالى أن العيال يتهمونها بالسرقة إنما أنا تأكدت من صحة هذا ؛ بقى أن أعرف لماذا يتهمونها بالسرقة ؟ وما الذى سرقته بالضبط ؟ كنت واثقا أننى لو سألت وحققت فى الأمر فلن أفوز بكلمة واحدة تتصل بالحقيقة ؛ فرأيت من الأوفق أن أدبر لمعرفة الحقيقة من تحت لتحت بصنعة لطافة دون أن أسأل أو أحقق .

فى تلك العصرية توضأت وصليت ركعتين لله وقرأت عدية يس واستخرت الله فى معرفة الحقيقة ، ثم نمت نوما عميقا ....

رأيتنى أمشى فى شارع يشبه شارع السوق فى حى قايتباى وإن لم يكن هو. المارة فيه قليلون، حتى الأطفال كل واحد فى حاله ، وكنت أشبه بمن هو ذاهب للصلاة مع أننى لا أقصد مسجدا بعينه بل لا أعرف أين يوجد المسجد ها هنا ، وفيما كنت سائرا بجوار حائط أثرى متهدم خبطت قدمى فى صرة مرمية بجوار الحائط فأصدرت خرفشة وشخللة ، إنحنيت عليها والتقطتها؛ إنفرطت فى يدى. فإذا هى كابوش من الذهب ملأ كبشتى عن آخرها، حلقان وأساور وأفرع وخواتم. هتفت من فرحتى : رزق راوية ! الحمد لله هذه هدية بعثها الله لها فهى أصبحت عروساً يلزمها ذهب كثير كهذا . دسستها فى سيالتى وعدت من فورى إلى البيت مسرورا مغتبطا، ناديت : راوية ! يا راوية ! يا راوية .

لابد أن صوتى خرق جدران المنام ووصل إلى العيال فى وسط البيت حيث يقعدون . جدران المنام كانت سائبة لأننى سمعت أم صابر من خارج المنام تصيح :

– «إلحقى يا راوية أبوك يناديك فشوفى ما له !»

قبل أن تدخل راوية كنت قد انتفضت قاعدا . أحطت دماغها بذراعى فى فرح :

– «البشرى يا راوية ! سيجيئك عريس بشبكة كبيرة من الذهب ! الآن شفت فى المنام أننى لقيت فى الشارع كابوشا من الذهب فقلت إنه رزق راوية !»

تبسمت فرحة ، قالت :

- «كنت تنادينى لهذا ؟»

- «كنت أناديك فى المنام !»

ولاحظت أن سحابة من الكدر عبرت وجهها واغتالت فرحتها، غمر الشحوب وجهها، كادت الدموع تطفر من عينيها ..

- «ما لك يا راوية ؟ كلمينى بالحقيقة ولا تكذبى لأنى عرفت وأريد أن أختبرك!»

ترددت قليلا ثم ألقت بالعبارة دفعة واحدة : السلسلة بمصحفها ضاعت . منذ متى؟ من حوالى ثلاثة أشهر . ضاعت فى الدار أم منك ؟ قالت إن آخر مرة لبستها آخر الصيف الفائت وإنها جاءت تلبسها أول هذا الصيف فلم تجدها فى الدولاب . سألتها كيف تتهم زوجة أخيها بسرقتها ؟ قالت إنها لم تتهمها ولكنها هى التى تدافع عن نفسها كلما جاءت السيرة . طيبت خاطر راوية وأدركت أن تفسير المنام يعنى أننى مضطر الآن لشراء سلسلة جديدة لراوية بدلاً عن الضائعة. قلت لراوية :

- «إلبسى هدومك وتعالى نشتر غيرها !»

وقمت لأتوضأ وأصلى العصر . ما إن لامس الماء وجهى حتى سمعت صرخة نشوانة : «لقيتها ! لقيتها!» . وجاءت راوية تجرى ممسكة بالسلسلة بمصحفها تلوح بها فى وجوه أهل الدار :

- «لقيتها فى جيب هذا الفستان ! آخر مرة لبسته فى آخر الصيف الفائت ونسيت أننى وضعتها فى جيبه قبلما أخلعه ! والآن أحببت أن ألبسه لأذهب للصايغ مع أبى ! وضعت يدى فى جيبه فلقيتها !»

- «الحمد لله يا راوية ! المال الحلال لا يروح ! ربك أعفانى من غرامة كبيرة لم تكن على البال !»

رجعت راوية لتقلع الفستان . إستأنفت أنا الوضوء من جديد، لكن دمى سرعان ما تعكر ؛ إذ لمحت زوجة ولدى قد انزوت فى ركن قصى ، واضعة يدها على خدها، وجهها محتقن محروق الدم ، كالكبدة ، والدموع تهطل من عينيها بغزارة .

قيراط يخصنى

الحقل الذى رأيتى أقترب منه مذعوراً كان من الواضح لى أنه يخصنى : قطعة أرض صغيرة تقترب من قيراط أو أكثر قليلا لا أعرف إن كنت ورثتها أمْ أننى اشتريتها من عرق جبينى لكننى شبه متيقن من أن هذا القيراط ملكى منذ وعيت، وأننى فى الأصل فلاح إبن فلاح أباً عن جد، وهذا البرسيم النابت فى هذه القطعة من الأرض أنا الذى زرعته بيدى وشقيت فى ريه وتسبيخه والسهر عليه حتى خضرٌ وبدأ يقف على حيله، طوله لا يزيد على طول الأصبع لكنه باسم الله ما شاء الله سوف ينمو فى بحر أسبوع فهل كنت أتعب وأشقى لكى تجئ هذه النسوان كالحدآت ليدهسنه بأقدامهن ؟! ماذا يردن من برسيمى؟ بل ماذا يردن أصلا؟ عمن يبحثن هنا ؟ لماذا هن هلعات هكذا فصرن كالقطط الهارية من زلزال ؟! ..

جريت نحوهن والشرر الأحمر يتطاير من عينى، وصوتى يزعق فيهن غاضبا :

– «أنت يا ست منك لها ! البرسيم طفل صغير لم يكبر ! ضعن فى قلوبكن شيئا من الرحمة ! ألا تعرفن أنى تعبت فيه ؟! لماذا تدهسنه بأقدامكن التى تستأهل القطع هذه ؟! حرام عليكن يا بهيمات يا قليلات العقل والدين !»

صرت أطاردهن بعود من الحطب الجاف، فإذا بى ألمح أحمد ولد عمى مقبلا يركب حماره ويتابعنى بعينيه محاولا معرفة السبب الذى أغضبنى هكذا . وأخيرا أوقف حماره ونزل يسألنى :

– «ما لك يا أحمد ؟»

أشرت إلى النسوان اللائى رحن يتقصعن علىَ شاطئ القناة ويملن برءوسهن حتى تكاد تختلط بالطين فيما تحفر أظافرهن فى حشائش الأرض فكأنهن يقلدن – وبحرفنة واضحة – فرقة الفنون الشعبية فى رقصة من الرقصات التى يلبس فيها الراقصات أمثال هذه الملابس ويفعلن أمثال هذه الأفاعيل ..

إنعطفت أسلم على أحمد ولد عمى إلا أن الأرض اهتزت من تحت قدمى

فأرعدتنى، والتقطت عينى حركة عنيفة لظل أسود يزحف متموجا فوق بساط البرسيم الناعم . بإحساسى أدركت ما هو . إنه قرموط كبير يزن حوالى خمسة كيلوجرامات ، له دماغ كبير وجسد نحيل فهو إذن قرموط ذكر . جريت اليه فى محاولة للإنقضاض عليه ، لكنه كان نشيطا عفيا وفى حالة توتر قصوى، يتزفلط بمهارة فائقة ، يدافع عن نفسه بحرابه المسنونة ؛ ينفلت كلما حاصرته ينط لأعلى يكاد يشلفط وجهى . فما كان من أحمد ولد عمى إلا أن ترصده حتى أطبقت على عنقه، فشيع له بونية فى رأسه فشجته، بل هشمته لدرجة أن القرموط فتح حنكه وعجز عن قفله، تجمدت حركته . شعرت أنا بحزن شديد إنقبض له قلبى، لقد كنت أفضل الإمساك به حيا راعشا حتى يطيب أكله أو يسهل بيعه ؛ أما على هذا النحو فبعد قليل يصير رمة . مع ذلك حملته فوضعته على الحمار قائلا لأحمد ولد عمى أن يسرع به إلى داره ليطبخه فى ظرف دقائق معدودة وبالهناء والشفاء له ولأولاده ..

وفيما كنت سائرا خلفه سمعت صوت الأذان كأنه طالع من صدرى ، كأننى أؤذن ولكن بصوت رجل آخر يشبه الشيخ مصطفى إسماعيل أو عبدالباسط . خيل لى أننى أتلفت بحثا عن صوته – صوت عبدالباسط الذى يجعلنى أشرب الأذان كأنه سطل من عصير القصب . تلفت فإذا بى تقلبت على جنبى الأيسر ، فانفتحت عينى ؛ فإذا بى راقد على سريرى وصوت الشيخ عبدالباسط عبدالصمد يلعلع بالأذان فى الراديو العتيق الموضوع على التسريحة . وكان من الواضح أنه أذان العصر .

قمت قاعدا ؛ شعرت بالضيق الشديد ؛ فمنام العصر ومنام الفجر كلاهما بالنسبة لى برقية عاجلة عن شئ قد يكون آجلا لكنه حتما لابد أن يقع . لم أسترح لهذا المنام يا بو العم . ولما جاءت أم صابر تصب الماء على يدى للوضوء لاحظت اكفهرار وجهى وانعقاد حاجبى، فهتفت :

– «يا ساتر يا رب ! ما لك يا بو صابر ؟!»

– «صدرى مقبوض يا وليه ! شفت مناما سخيفا رذلاً والعياذ بالله !»

– «مخير بالصلاة على النبى ؟»

– «شفت كذا وكذا وكذا ..» .

– «طب اسكت ! مناماتك ترعشنى وتنفضنى فى الأرض نفضاً ! حرام عليك يا رجل! أهذا منام تراه ؟ ليتك لم تقله ! أنا الغلطانة ! رب اقطعنى ! تانى مرة إياك أن تحكى لى مناما ! حتى لو كان مفرحا !»

اكفهرت الولية هى الأخرى، إريد وجهها؛ وما ذلك إلا لكونها تعرف زوجها معرفتها لمنام العصر ومنام الفجر، فلطالما انقرص قلبها متهما ، إلا أن الولية مع ذلك ضحكت من نفسها ومنى كما تفعل دائما، وجعلت تطمئن بالى – وبالها أولا – بكلام من شغل المطيباتية الذين اختلطنا بهم واختلطوا بنا بحكم الجيرة .

إنتصف الأسبوع ولم يحدث أى مكروه ؛ قلنا الحمد لله . المدهش حقا يا بو العم أننى وأم صابر قلناها معاً فى نفس واحد فى لحظة تأمل ذات عصرية خريفية كنا فيها نشرب الشاى معاً ؛ وفى دماغينا تدور نفس الأفكار، وفى قلبينا تجرى نفس المخاوف ؛ بل – ويا للعجب – قلناها بنغمة واحدة، فيها شعور بالفجيعة ، ليس شعور الشكر على أن الله قد نجانا من خطر كان متوقعا خلال الأيام الماضية بل شعور الناجى لتوه من كارثة .. فكأننا بهذه النغمة الملتاعة من الشكر نعلن امتثالنا للكارثة التى حطت علينا وقدّر الله فيها ولطف وإن كنا لم نر الكارثة بعد رؤية العين.

وحق رسول الله يا بو العم ؛ أنا يا دوبك أخذت شفطة واحدة من كوب الشاي؛ إلا وموزع التليغراف يصفق على يديه أمام الباب صائحا صيحته النكراء التى تخرم قلبى بمجرد نطقها : تليغراف ؛ حتى لو اتضح أنه للتهنئة بزواج أو نجاح أو عودة من أرض الحجاز . لا أحب هذا التليغراف ابدا يا بو العم، لا أريده، مع أننى يا ما أشطرنى فى الجرى إلى مكتب التليغراف كلما جدت أمور تتطلب إعلام الأهل فى الصعيد .

قرأ ولدى محمد ورقة التليغراف . قمت فى الحال ؛ ركبت إلى بر الجيزة ، ومنها ركبت البيجو إلى أسيوط فكوم سعيد .

المصاب كان أحمد ولد عمي الذي شفته في المنام يضرب القرموط على رأسه بالبونية فيهشمه . ساعة وصولنا إلى البلد في ظهيرة اليوم التالي كانوا قد أخذوه إلى الغيط حيث وقعت الواقعة ليشرح للنيابة كيف وقعت . غيط البرسيم الذي شفته في الرؤيا شفته للمرة الثانية لكنه ضمن ملكية أحمد ولد عمي . طائفة من النسوان متشحات بالسواد يتناثرن كالحدآت يتمايلن في ذهول وينكشن الأرض بأظافرهن يقطعن من الأرض جواليص الطين الأزرق يلغمطن به وجوههن ورءوسهن وقد تعبن من كثرة الصوات واللطم فاستبدلن به هذه الأفاعيل البشعة .

جريت نحوهن أصرخ فيهن بغضب شديد :

– «يا نسوان يا كفره ! يا قليلات العقل والدين ! ما هذا الذي تفعلن ؟! ألا تجدن رجلا يلمكن ؟ تكفروننا عيانا بيانا ؟! ألا حياء عندكن ؟! إرجعن عن هذا الحرام عدن إلى بيوتكن !».

وصرت أطاردهن، أو أهشهن بذراعي ؛ فلما فطنت إلى وجوههن وتعرفت فيهن على نسوان بيت القاضي – بيتنا يعني – خطفت عصا من أحد المارة واستعملت حقي في التهويش اللاسع ، فصرن يهرولن أمامي مبتعدات ، نائحات مهزولات .

الأمر وما فيه يا سعادة البية – قال ولد عمي لرجل النيابة – إنه استأجر وابور الحرث بالأمس من الجمعية الزراعية لحرث هذه القطعة وتقصيبها . ولده الطفل ذو السنوات الخمس وحيد ويعز عليه، بكى في طلب الذهاب معه إلى الغيط ، فأخذه ؛ وبكى في طلب الركوب بجواره على وابور الحرث ، فأركبه ؛ ثم انشغل عنه لبرهة لا تزيد على طرفة عين وانتباهتها والوابور يرتج ويتململ .. ما دري إلا وولده قد سقط تحت الوابور فمرت عليه العجلات وهشمت رأسه .

صار البكاء المحتبس بداخلي يأكل في قلبي أكلا فيما أحمل الطفل على ذراعي كقرموط صغير أعجف، ممسكا بطرفي عباءتي بأطراف أصابعي لتداريه في عبي ، وبجواري ومن خلفي صفوف من رجال ، نمشي منكسي الرءوس في طريقنا إلى القرافة ، يشيعنا بالصراخ سرب من النسوان يطرح فوقنا خيمة من الغبار المشبع بالهلع .

هاتف مرئى

أعجب العجب أن يرى الإنسان رؤيا وهو صاح ! ..

نعم . كنت قد شبعت نوما فى القيلولة وصحوت فى صفار الشمس ما بين رواح العصر ومجئ المغرب . لبست ثيابى وطلعت إلى ميدان قايتباى ومزاجى عال العال ، يظهر والله أعلم أن الرؤيا تأخرت ، لم تلحق بى وأنا راقد ؛ فلحقت بى على المقهى لتريني نفسها وأنا فى عز صحوى ..

ميدان قايتباى – الذى نسميه فى حى قايتباى بميدان السوق مع أنه ليس كذلك – ميدان واسع وشرح ؛ حيث يقف مسجد قايتباى – المرسوم على الجنيه المصرى – شامخا بمئذنته العالية ومبناه الفخيم الممتد خلف الواجهة صاعدا مع الّحديرة التى تأخذ فى الارتفاع شيئا فشيئا من الميدان ثم ما تلبث أن تنحدر ثانية حتى لتبدو بوابة القبو الفاصل بين المقابر والمساكن – لمن يجلس على المقهى – كأنها غاطسة فى الأرض مع أنها فوقها ، ويبدو خلفها تل من التراب الساكن المدكوك ، مما يجعل القبوة تبدو كأنها مفتوحة على شواشى جبل ؛ لكن المنظر يكون طريفا ومفاجئا حين تظهر سيارة نقل سوزوكى وقد ارتفعت فوق قمة هذا التل حتى لا يبين منها سوى عجلاتها ؛ ثم اذا بها تنحدر خارجة من القبوة مثل كتكوت خرافى شق جدار بيضة خرافية وخرج .

القعدة فى العصارى على رصيف مقهى إبراهيم الغول ، الشهير بأمريكا ، تساوى العمر كله . لا تقل لى بحر الاسكندرية ولا رأس البر ؛ لا ولا مارينا والساحل الشمالى وهذه المصايف الحديثة التى يؤمها تجار المخدرات وسماسرة الانفتاح الاقتصادى ممن أصبحوا يسمون أنفسهم برجال الأعمال وكأننا جميعا لسنا من الرجال ولا ممن يعملون !! القعدة على رصيف مقهى إبراهيم الغول جنة، هواؤها يلطش . الرصيف عريض يتسع لسرادق وطويل بطول الميدان ؛ مرتفع فوق ارتفاع ؛ والكراسى الخيزران مرصوصة فى صفوف تتخللها ترابيزات

وطقاطيق نحاسية منظرها يشف ويرف من كثرة اللمعان ؛ الأرض مرشوشة ؛ كشك صاندويتشات الكبدة على مقربة يبعث رائحة نفاذة . الشيشة أمامى تبعث الكركرة النشوانة ، والمبسم بين شفتى سالك سحاب . فنجان القهوة السادة أمامى على الطقطوقة النحاسية ورائحة البن الطازج تنعش الخيشوم . سنّة الأفيون الخام تحت ضرسى تذوب فى هوى رشفة القهوة . الميدان أمامى يتوسطه عمود فى أعلاه فانوس يبدو أنه من عصر قايتباى نفسه . دوامة الريح الطيب اللطيف تغازل ورقة جرنان شاردة ، تهدهدها فتئز بموسيقى راعشة .

ساقا على ساق وضعت . صرت أتأمل فى زخارف واجهة مبنى مسجد قايتباى وأضلاعه المهيبة ونوافذه التى تعكس ألوان الطيف ؛ فتذهب نفسى حسرات على أيامنا التى خلت من الرجال بكل أنواعهم فلم يخرج من يدنا مثل هذا المبنى ولا حتى جدار واحد منه .

ولكن ؛ ها هى ذى لحظة الروقان تبعث فى صدرى شيئا غامضا يشبه الزعل ، فهل أنا فرح أم حزين ؟! فى الواقع لست أدرى . شيء ما ، لعلها قدمى ، لمست الطقطوقة فاهتز فنجان القهوة وتدلدق البن على الطبق . تشاءمت . رحت أبحث فى دماغى عن ذلك الشئ الذى يريد أن يسبب لى الزعل بغير مناسبة واضحة . ثم قلت لنفسى : نحن دائما هكذا ، لحظات فرحنا غير خالصة ، مشروخة مشروخة ، إن لم يكن فى الأمر نكد فإن نفوسنا تستدعيه من الهواء الطاير فى لحظات الفرح بالذات ؛ كأننا نستكثر على أنفسنا لحظة روقان ولو عابرة .

لى ابن أخت اسمه مختار ، ربيته على يدى ، احتضنته هو وأخاه منذ ماتت أمهما وهما بعد طفلان صغيران . ما إن انتهى من واجب التجنيد حتى دربته على بيع الفانلات والكلسونات والجوارب يلف بها فى الشوارع . كنت أقضى الليل بطوله أمثل أمامه كيف يفعل ، كيف يطوى البضاعة على ذراعه اليسرى ، كيف ينادى بثقة وبغير كسوف : فانلات كلسونات .. شرابات .. اتفرج يا بيه .. شوف يا حاج .. قطن .. صوف المحلة .. حتى أصبح الولد بياعا ماهرا . أكرمنى الله برجل مهم من مجلس الحى لا يأكل السمك إلا من عندى ؛ سعى لنا فى احتجاز

نمرة باسم مختار في سوق الدراسة أمام مبنى الأمن المركزي وموقف الأتوبيسات ؛ عبارة عن تققيصة من الخشب مساحتها متران في مترين ونصف ؛ يعرض الولد فيها بضاعته ، يبيع لعساكر الأمن المركزي بدلات الفاقد من عهدة الفانلات والجوارب ، يقلب عيشه بشطارة ولكن بأمانة علمته إياها . زوجته كبرى بناتي سناء . أسكنته معي في البيت الذي اشتريته في حارة العجوز بستة آلاف جنيه واقتسمته بيني وبين مختار وأخيه وأعدنا بناءه . ثم إن الله أكرمه بالخلفة والرواج..

لا أعرف ما الذي جعله يخطر على بالي في هذه القعدة الرايقة في هذه العصرية الناعمة كالقطيفة . ليته خطر على بالي كما يخطر دائما . إنما لا .. فجأة رأيته مجندلاً أمام عيني في شارع صلاح سالم ، نصفه على الرصيف ونصفه الآخر في قلب الشارع ، غارقا في دمه ، كما لو أن سيارة صدمته ثم اختفت ..

إنسابت الصور أمام عيني ، فرأيت ولدي صابر آتيا وسط جمع كبير من الرجال لإبلاغي بالخبر وتعزيتي . لو كنت نائما لقلت إنها رؤيا شيطانية كابوسية مزعجة . إنما المصيبة أنني صاح ومزاجي عال العال ، وها هو مبسم الشيشة بين شفتي وفي حنكي طعم القهوة ممزوجا بمرارة حميمة ، والناس رائحة جائية أمام عيني .. فما الذي جعل خاطراً كهذا يتجسد في خيالي أمام عيني كأنه حقيقة ماثلة ؟! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا قلت وأنا أمسك بفنجان القهوة بيد مرتعشة ولب شارد .

وضعت فنجان القهوة ونظرت عن يميني في شارع السوق الذي يصب في ميدان قايتباي ؛ فرأيت – فعلا فعلا – جمعا كبيرا من الرجال يقبل نحو الميدان برءوس منكسة . قلت يا سابل الستر استر يا رب . وإذا بي بعد برهة أرى ولدي صابر في وسطهم .

سابت ركبي . يا المصيبة . يا وقعتي السوداء المهببة بهباب الفرن . امتدت يدي لتشق الهدوم . هممت بالصوات كالنسوان . لولا أنني حملقت في الرجال

المقبلين فتبينت أنهم يحملون طفلا ميتا ملفوفا بملاءة . ها هم يتجهون به نحو باب مسجد قايتباى . هم إذن جاءوا به للصلاة عليه فى المسجد قبل دفنه ..

شممت رائحة عرقى ففوجئت به مع أن الريح تلفحنى من كل ناحية . رأيت ولدى صابر ينسلخ عن الرجال شيئا فشيئا ويقترب منى فعرفت أنه لم يكن معهم. قلبى ينقبض كلما اقترب ، والرعشة تنفضنى نفضا من منظره الذى كان مخضوضاً مرتبكا ..

– «خير يا ولدى ؟! » .

– «الولد محمد ابن مختار .. » ..

– «ما له ؟! » ..

– «تشعبط فى الزير الملآن بالماء فوقع فوقه» .

– «مات ؟! » .

– «انكسرت رجله» ..

بصقت فى عبى . الحمد لله ، قدر ولطف ..

– «تعال لتنقله معنا إلى مستشفى الحسين» .

قمت مهرولا فى الشارع كالملتاث :

– «وأمه ؟! .. سناء ؟! .. اتخضت ؟! » .

– «أمه ليست فى الدار من حسن الحظ !» ..

– «أين راحت ؟!» .

– «راحت تملأ بستلة الماء من حنفية الصدقة فى شارع صلاح سالم» .

– «تطخ هذا المشوار السخن لتملأ الماء ؟!» .

– «المياه مقطوعة من حى قايتباى كله من صبيحة ربنا» ..

حملت الولد على صدرى وعدت أجرى به والدار كلها تجرى ورائى . لأجل النصيب أدركنا فى الطريق سائق التاكسى سيد حمدون الذى يجالسنى على المقهى . ما لك يا عم أحمد ؟ قلت اطلع بنا على مستشفى الحسين يا سيد يا حمدون بسرعة ينوبك ثواب .

الله يستره سيد حمدون صعب عليه أن يلف من تحت كوبرى الفرنوس ويعود كل هذه المسافة حتى مستشفى الحسين ، فى حين أنه لو أكل هذه الوصلة القصيرة من تحت نفق الدراسة لصار فى شارع الأزهر بعد خطوات . أكلها فعلا ومشى فى الممنوع بحرفنة . ألقى بنا أمام باب المستشفى وهو يستعوض ربه فى المخالفة التى سيكعها .

دخلنا عنبر الاستقبال . كشفوا على الولد . بسيطة والحمد لله ، رجله لم تتكسر إنما انجزعت قليلا وسوف تطيب وحدها بالدعك بمياه سخنة وبعد يومين ثلاثة يستطيع أن يمشى عليها .

حملناه وخرجنا نشكر الله على رحمته بالولد . لنفاجأ على باب المستشفى بسيارة ملاكى تقف وينزل منها ثلاثة رجال يحملون امرأة مكسورة الساق فى غيبوبة . سألنا : ما خبرها ؟ قال سائق السيارة الملاكى إنها كانت تعبر شارع صلاح سالم دون ترو ؛ وكانت السيارة أخذة سرعتها ، فصدمتها رغم فرملة الخطر ؛ لكن الحمد لله جاءت الصدمة فى رجلها ؛ كانت تحمل بستلة ملآنة بالماء وقعت فهشمت لى وجه سيارتى وكسرت زجاجها وطارت فوق أكثر من سيارة أحدثت بها أكثر من إصابة . وأضاف وهو يحمل ساق المرأة المدلدل ، ويوسع بكتفه مكانا فى الباب :

– «عوضى على الله فى السيارة لكننى عملت الواجب» .

حملقت فى المرأة المحمولة كالخرقة غائبة عن الوعى؛ فإذا بها ابنتى سناء .. اشتعل حريق الفزع . امتلأت الدنيا بالجعير والصراخ والبكاء . أم صابر أخذت تلطم خديها وتصوت . قلت وأنا أعنى ما أقول : إحمدى الله يا أم صابر أن جئ بنا بسبب صغير لنرى بأنفسنا ما كان يهمنا أن نراه ؛ وإلا بتنا بضع ليال سود نسأل عن البنت قبل أن نعرف أين راحت .

قرموط فى حجرى

المصرف الذى شفت نفسى ماشيا على شطه ، عمرى ما شفته من قبل. مع ذلك صرت أمشى بحذائه كأننى أعرف طريقى رغم أن الهدف لم يكن ظاهرا فى دماغى ، إلا أننى رحت أمشى والسلام.

ظهر لى من بعيد شبح واقف كخيال المآتة مادا ذراعيه إلى الامام . لاحظت أننى أتجه إليه وقد وقر فى ذهنى لحظتها أنه هو الهدف المقصود من مسيرى ها هنا الآن رغم أننى لم أكن أعرف من هو ، ولا ما الذى أطلبه منه . فجأة صرت واقفا أمامه . يا بو .. و .. و .. و .. ى ؛ معقول ما أرى ؟. إنه ولدى صابر ؛ ولكن ما هذا العبط يا ناس ؟ أفى الدنيا التى ارتوت بالنيل من يفعل مثل هذا الفعل ؟ ولدى صابر واقف فى قلب المصرف والمياه الوسخة تصل إلى صابونتى ركبتيه ؛ وقد أمسك ببوصة السنارة ومد حبلها على البر !! .. يا ميلة بختك يا أم صابر ؛ هذا ولدك الكبير الذى فشخته علينا من كثرة الدلع ؛ والذى زوجناه قبل الأوان لعله يصير رجلا محترما ينعدل دماغه وينتبه للشغل معى فى السوق ؛ ها هو ذا واقف يصطاد بالسنارة من البر !! تعالى يا أم صابر شوفى ولدك الشملول يقف فى قلب الماء ويرمى بالسنارة على السكة !! ماذا يظن أنه يصطاد ؟! شفتى يا أم صابر هذه الوكسة ؟ هذه – أقطع ذراعى – نتيجة ما سقيته من لبن الحمير؛ قلت لك يا أم صابر لبن الحمير يتخن مخ العيال يلبسه بالغباوة ؛ فقلت لى : دعه يصبح حمارا تخين المخ قوى البدن ليعرف كيف يأخذ حقه فى الحياة بالذراع ؛ ها هو ذا قد نفع أصبح باسم الله ما شاء الله أحمر من حمير الدنيا كلها لدرجة أنه يقف فى قلب الماء ويرمى بالسنارة على البر ليصطاد !!

– «بتعمل ايه يا مجنون يا ابن المجنونة ؟!» .

ما أتممت العبارة إلا ورأيت السنارة قد صارت معلقة فى الهواء يتدلى منها قرموط طوله ربع ذراع ، يتلوى وينتفض بقوة وشراسة يكاد يقطع حبل السنارة ويكسر البوصة ؛ كان معلقا على الشعرة ؛ سن السنارة المعقوف شابك فى خيشومه وهو على وشك أن يفلت قافزا إلى المصرف . قفزت أنا بسرعة تحت السنارة فاردا حجرى فى اللحظة المناسبة ؛ إذ فوجئت بالقرموط يسقط فى حجرى بالفعل كأنه يستنجد بى لكى يقفز من حجرى إلى الماء ؛ لكننى لمت حجرى وربطته . طلعت أجرى فرحا مبسوطا مندهشا من هذه المعجزة الربانية . طبعا يا أبا الحاج ؛ هذه آية من الآيات البينات يريها الله لعباده الصالحين . هذا ما جعلت أصيح به وأنا ماش بالقرموط فى حجرى ؛ ولم يكن لولدى صابر ثمة من أثر .

لحظتئذ سمعت صوتا شجيا مؤثرا يهتف : الله أكبر ! الله أكبر ! هتفت وراءه وقد اقشعر بدنى : الله أعظم والعزة لله ، وعرفت أنه صوت الأذان لكن لم أعرف من أين يأتى بالضبط ؛ فلا مسجد حولى ولا مصلى ، كما أنه لا أثر لبلدة قريبة . هاتف جوانى قال لى إن صوت الله يأتى من السماء فى كل لحظة . ثم نوَّر المعنى فى دماغى.فقلت : أليس ما حدث الآن هو صوت الله ؟ ولكن بما أننى سمعت صوت الأذان فقد وجبت الصلاة فى الحال . تساءلت : هل أنا متوضئ يا ترى أم انفك وضوئى ؟ أنا لست متذكرا ، وما دمت لست متذكراً فقد وجب الوضوء . ناديت على صابر ولدى ليأخذ قرموطه فى حجره حتى أتوضأ ؛ فلم أجده طبعا . ناديت بصوت أعلى . أين تراه اختفى ابن المجنونة ؟! اغتظت ؛ ناديت بغضب : يا صابر ! يا صابر ! يا صابر! ..

– «أيوه يا آبا انا اهه عايز إيه ؟!»

وشعرت بمن يهزنى من رأسى ؛ ففزعت ؛ قمت قاعدا ؛ ريقى ناشف ؛ قلبى يدق فى صدرى ؛ صوت الأذان لا يزال يدوى قادما من مئذنة مسجد قايتباى . فطنت إلى أنه أذان العصر ؛ فطنت إلى وجود ولدى صابر ؛ فطنت إلى شئ آخر يتعلق به فاستراح قلبى وابتسمت . فيما كانت أم صابر تصب الماء من الإبريق على يدى لأتوضأ أمهلتها كيما أشمر ذراعى ؛ ثم سألتها :

– « مراة صابر حبلى يا أم صابر ؟!»

تكرمش الوشم الأخضـر فوق ذقنها ؛ صبت على وجهى بسمتها المنورة ، قالت :

– « إيش عرفك يا راجل يا أروب ؟!»

قلت : «إننى أسأل فحسب !»

قالت : « فى شهرها الثالث ! بسلامتها مستعجلة على الحَبل ! تريد أن تتأبد فى رقبة الولد !»

أم صابر لا تريد أن تهمد يا أبا الحاج . كنت أحب أن أزف لها البشرى لكنها زعلتنى ؛ إذ تأكد لى لحظتها أنها هى التى تقسى قلب ولدها على زوجته بنت أختى مع أن البنت غلبانة منكسرة تخدمنا جميعا خدمة العبد للسيد ولا أفهم لماذا يقسو عليها الولد المجنون ويتركها تنام وحدها فى السرير ؛ ويشخط فيها ويضربها كأنه يضرب كلبا .

تمسكت بهدوء أعصابى وقلت لأم صابر :

– «بإذن الله يا أم صابر ولدك سيخلف ولدا ! هذه هى الرؤيا التى شفتها من عشر دقايق وأنت تعرفين أن الرؤيا التى أراها فى نومة العصر أو نومة الفجر لا تخيب !!» .

انبسط الوشم على ذقنها :

– « على كل حال يا أبو صابر اللى يجيبه ربنا كله حلو !»

صدقت الرؤيا فعلا يا أبا الحاج ؛ البنت جابت ولدا مثل القمر ، سميته : صلاح . أصبح هو سلواى فى الدنيا . أبوه لم يفرح به ، لم يغير معاملته لزوجه . وأنا كاتم فى قلبى وساكت ، أرى البنت صدئة على الدوام ؛ نسوان الدار كلهن يستحممن باستمرار ويتزوقن إلا هى ، تنام بنفس الجلباب الذى تكنس به الدار وتغسل المواعين . قلت : طبعا لأن الولد يكسر نفسها . ثم إننى تركت الأمر على جناب الله وقلت لعل صلاح إذا كبر قليلا يتعلق به أبوه ويحبه . على أن صلاح كبر وتعلم المشى وأصبح نوارة الدار كلها يملأها صياحا وزأطه ؛ تعلم من أولاد

بناتى كيف ينتظرنى على باب الحارة ليصيح مثلهم : «جدو جه ! جدو جه!» ، ويمد يده ليأخذ مصروفه اليومى منى فأعطيه – مثلهم – البريزة الفضية وأنا فى غاية النشوة لأن الولد كان يشبهنى الخالق الناطق ولكن على بشرة بيضاء حلوة التقاطيع .

طوال فترة نمو صلاح لم أر أباه فى يوم من الأيام يعطيه قرشا واحدا ، أو يحمله أو يقبله ؛ فيتقطع قلبى ؛ أحاول أن أكون الأب الحقيقى له . قدرت أنه تيتم ؛ وحتى الولد نفسه نسى أباه ولم يعد يقترب منه أو يعبأ به .

الغلطة فى الأصل غلطتى يا أبا الحاج ؛ زوجته وهو صبى بالغ لتوه ، اخترت له رسمية بنت أختى صفية وكانت فوق العاشرة من عمرها بعامين يوم جئنا بها من الصعيد عروسا فى ليلة الزفاف . عام واحد يا أبا الحاج عاشه ولدى فى حضن زوجه بسر هادىء ؛ بعده انقلب ميزانه ويتنافى وجع دماغ كل يوم بسبب خناقاته معها إلى حد ضربها بالشلوت والبونية . هى فى النهاية بنت أختى ولا أقبل عليها هذه البهدلة من زوجها حتى ولو كان ابنى . أحاول معرفة سبب الخناقة ، هو يقول سببا ؛ وهى تقول سببا آخر ؛ وأم صابر تقول سببا ثالثا ؛ وبناتى المتزوجات معى فى الدار يقلن أسبابا ؛ وكلها أسباب خايبة ولا تؤدى إلى مثل هذه التطورات .

البنت آخر ما زهقت قدرت أنها غير متزوجة ؛ قالتها بصريح العبارة : « أنا أعيش فى بيت خالى لأخدمه» . فعلا يا أبا الحاج ، هى التى نظفت لنا الدار وريحت أم صابر وريحتنى وريحت الثور التى يضربها بقسوة .

فوجئت ذات عصرية نكدة أن الولد يريد الزواج ؛ يطلب منى أن أذهب معه لأخطب له بنتا اختارها . ركبنى الهياج ضربته ففار من وجهى . تحريت عن هذه البنت ؛ علمت أنها سنكوحة لا أصل لها ولا فصل ؛ بعثت لها من هددها بالحرق إن لم تبتعد عن ولدى وتتركه فى حاله ؛ كما هددت الولد بالقتل إن لم يحترم نفسه ويحترم شيبتى واسمى فى السوق . بالفعل همد شهورا ؛ ثم فاجأنى مرة ثانية ببنت جديدة يصمم على خطبتها . ضربته ، بطحته ؛ قال إنه سوف يطفش ولن

يرينى وجهه مدى الحياة . تذكرت حكاية عمى دردير الذى طفش وترك الحسرة فى قلب جدى حتى أصيب بالعمى والكساح . لكننى طرمخت ؛ فانقطع الولد عن العمل ورحت السوق وحدى جمعة كاملة ، وهو لا يظهر فى الدار . أخيرا أتى بعمه حسين من البلد ، ودياب ابن خالتى وزوج عمته فى نفس الوقت ، والمعلم الذى نتسوق منه فى سوق غمرة . قالوا : « إن كبر ابنك خاويه» . قلت : «حصل» . قالوا : « الولد كاره لزوجه ولن يعيش معها تحت سقف واحد وهو مستعد لإبقائها على ذمته ويتزوج من غيرها وهذا من حقه ما دام يقدر على النفقة» . ورغم أن رسمية بنت أختى وافقت فإننى تزربنت وركبتنى العفاريت ولم أقبل هذا الوضع على بنت أختى حتى لو وافقت هى ؛ فذنبها فى رقبتى إلى يوم الدين .

انفردت بالولد فى قعدة رواقة لأعرف السبب الأصلى . الولد ابن الكلب لا يشرب شيئا يقربنى منه ؛ حتى تمنيت أن أراه ذات يوم يحشش أو يسكر أو حتى يدخن سيجارة ، ولكن دون جدوى ؛ لبن الحمير تخن مخه وإحساسه . مع ذلك سايسته ؛ صار يلف ويدور ويبرطم بكلام غير مفهوم ؛ وأنا أشجعه على التصريح بكل ما فى نفسه ، فإذا به لا يترك نقيصة ولا سيئة إلا ورماها بها ثم لخص كل ذلك فى عبارة شاملة : لا تفهم معنى الزواج ؛ ثم قال :

– «أنا لم أشعر أنى متزوج أبدا !! أنا لم أتزوج !!» .

– «لم تتزوج كيف يا بو العم ؟ فمن يكون أب ولدك ؟!» .

– «أنا طبعا ! ولكن يعلم الله كيف رميت بذرته !!» .

– «وضح كلامك يا ولدى !» .

– «إنها تنام معى وهى نائمة !! أقصد عند !! ساعة أن !! يعنى بالمفتشر عمرى ما حضنتها وهى صاحية !» .

ربك والحق صعب على الولد . هى أيضا صعبت على . إنها طفلة وهو طفل أيضا إلا أنه فى السوق ويسمع كلام الرجال عن هذه العملية فيعرف ويتعلم أما هى فلا . قل إننى تأكدت من حرقة ولدى ، عذرته ، عذرتها هى الأخرى ، لكننى لم أعذر نفسى . مرت شهور طويلة وأنا متمسك بالرفض ؛ لكن الأيام كانت كجهنم

الحمراء يا أبا الحاج ؛ الدار كلها مع الولد ، حتى عمه وزوج عمته الكبرى ؛ كلهم لا يجدون مفرا من مطاوعة الولد على الزواج ثانية فلربما انصلح حاله . لم يعد الولد يترك لى كلمة إلا ردها على ؛ فأنا نفسى - كما قال - تزوجت على أمه فى يوم من الأيام ، صحيح أننى طلقتها لصالح أم العيال إلا أننى تزوجت والسلام.

غصبا عن بوزى مشيت معه إلى دار من اختارها ؛ فإذا هى فتاة جميلة حقاً يا أبا الحاج ، تشبه المغنية فايزة أحمد . أبوها موظف غلبان عنده زرية عيال معظمهم بنات نصف متعلمات ، يسكن وعياله فى قبو فى أعمق أعماق عشش منشية ناصر وحالتهم المعيشية على الحركرك. البنت جميلة ما قلنا فيها شيئا ولكن هل عرفتها جيدا يا ولدى ؟ اتضح أنه يعرفها من زمان ؛ كانت تزوره على فرشنا فى السوق وأنا كالجردل غير دار بشىء .

خطبناها يا أبا الحاج . أم صابر بنت القرطوس أعطت لولدها كل ما حوشته من ورائى . أخواته البنات ساعدنه . أنا الآخر فتحت خزنتى وسلمته بضعة آلاف من لحم الحى . رتبت لرسمية حياتها وحدها فى شقتها لا يقربها أحد ؛ ورتبت له شقة كانت مبنية فى الطابق الثالث فشطبتها بسرعة ليدخل فيها . غير أن ولد القرطوس ذهب من ورائى فاستأجر شقة فى عمارة جديدة فى منشية ناصر دفع فيها الشىء الفلانى ؛ وبمعرفة حماته - أصلها من نواحى المنصورة - إشترى العفش من دمياط من تاجر يمت لزوجها بصلة قربى . رغم حزنى وتحسرى فرحت بمنظر الشقة ؛ إنها فشر شقة أى وكيل وزارة : حاجة اسمها الأنتريه فى المدخل، حاجة اسمها السفرة والنيش ، حاجة اسمها الصالون ؛ غرفة نوم كالتى نراها فى إعلانات التليفزيون ؛ ثلاجة وتليفزيون ملون ومسجل كبير ، آخر نظاكة . من أين أتى بكل هذه الأموال إن لم يكن يسمسر من ورائى ؟ العلم عند الله على كل حال فالولد شاطر ؛ بمجرد ما ننتهى من السبوبة على فرش السمك يتكل على الله إلى سوق الخضار فى روض الفرج يتسوق عربية أوطة عربية بصل عربية أى شىء ويعود ليبيعها بالقفص فى سوق منشية ناصر فيرزق من ورائها بمعرفة ومساعدة عيال عمته قراودة السوق .

أولاد أختى صفية – إخوة رسمية – يشتغلون معنا فى نفس السوق ولكن فى الخضار . هم فى الأصل لا يقبلون صابر ولا صابر يقبلهم ؛ أصلهم طالعين فيها حبتين أما صابر فمخه تغذى جيدا من لبن الحمير . العيال – معهم حق يا أبا الحاج – حين علموا بما حصل جاءوا إلى دارنا وتوبوبوا مع أختهم . وعندما صحونا فى اليوم التالى لم نجدها ؛ عرفنا أنها لَمّتْ هدومها ومصاغها وهربت إلى الصعيد بصحبة واحد من إخوتها . قلنا : بركة يا جامع ، يا دار ما دخلك شر . أخذت بعضى وسافرت إليها لأصالحها . إمتنعت أختى صفية عن الكلام فى الموضوع من أساسه ، صممت على الطلاق ، راضيتها بكل ما أستطيع ؛ وكما دخلنا بالمعروف خرجنا بالمعروف . الغريب أنه لا البنت ولا أمها جابت سيرة الولد صلاح ؛ فلما تكلمت أنا فى الموضوع قالت أختى صفية إن البنت باعت من باعها ولا تريد أثرا يفكرها به حتى ولو كان ابنها من دمها ولحمها . دفعت لها كل مستحقاتها المالية التى قررها إخوتها ؛ سلمتها عفشها بالقائمة قطعة قطعة . كل ذلك وولد الفرطوس لاه مع خطيبته لا شأن له بأى شىء مما يدور .

أصر على إقامة عرس كبير فى ليلة الدخلة . أقمنا السرادق فى ميدان السوق بحى قايتباى . الدار كلها ذهبت إلى دار العروس فلما انتهت الزفة وجلس العريس بجوار عروسه فى الكوشة كان ابنه صلاح ذو الأربعة الأعوام يقف فى مواجهته بين الأقدام ينظر إلى العروسين فى بلاهة وذهول ولا يفهم شيئا بالطبع . حين وقع بصرى عليه رأيته – التعيس – يرقص على نغم المزمار ويصفق بيديه مع الحريم . حبست دموعى يا أبا الحاج وانحنيت لأحمله ؛ صار يصرخ ويفلفص ويضرب الأرض بقدميه وأم صابر تقول لى : «دعه يشارك أباه فرحته يا رجل ولا تكن جامد القلب !!» ؛ شف بنت الفرطوس . الولد لم يسكت إلا بعد أن حزمته بشال عمامتى واستأنف الرقص مع الراقصات ، والجميع ينظر للولد فى إعجاب وحب إلا أبوه . تعب الولد فنام فى مطرحه . حملته ؛ لمت عيالى وقفلنا عائدين إلى دارنا فى حارة العجوز بحى قايتباى .

عربة كارو يشدها حمار تكفلت بحملنا جميعا . البرد القارس يلسعنا . تيمت الولد فى حجرى لمته عليه . صوت المؤذن على مئذنة مسجد قايتباى يؤذن لصلاة الفجر ؛ والولد يتلعبط فى حجرى كالقرموط بفعل قلقلة العربة . وكان يبدو على كأننى خائف أن يقفز الولد من حجرى إلى برك المجارى الضاربة فى الشارع ؛ غير أننى كنت موقنا أنه أصبح مكتوبا على حجرى كالمكتوب على الجبين لابد أن تراه العين مهما طال الزمن .

زغرودة للشهادتين

المكان مقفر ، أشبه بشارع فى مدينة مهجورة أو لعلها بلدة من بلاد الصعيد العتيقة أيام كان الناس قلة قليلة . يظهر أن الأمر هكذا . هناك خمسة رجال صعايدة يتربعون على مصطبة أمام دار عتيقة مبنية بالطوب الأحمر الكالح . نظرت إليهم من بعيد ؛ خيل لى أننى أعرفهم بالشبه وإن كنت لا أتذكر أسماءهم ولا أسماء عائلاتهم . لم أحاول التأكد من ذلك ، لسبب بسيط هو أننى كنت أجرى بالمشوار واضعا ذيل جلبابى فى أسنانى ؛ قلبى يتشال وينحط يحدث فى صدرى زلزلة شديدة . ذلك أن رجلا عملاقا يفصل من أمثالى عشرة رجال على الأقل ، كان يجرى ورائى ممسكا بسكين كبير يريد أن يذبحنى به ، ولايني يصيح كلما أوشك على اللحاق بى :

– «لن أعتقك ! لن تفلت من يدى ! قلت سأذبحك يعنى سأذبحك !» .

ولم أكن أعرف لماذا يريد هذا الرجل أن يذبحنى . المصيبة أن رجالا آخرين ظهروا وراءه مهرولين . كان من الواضح أنهم من أتباعه ومشجعيه ؛ وقد راحوا يحفزونه بصيحات التشجيع من قبيل : إياك أن يفلت منك ! شنكله ! خل بالك ! هذه فرصة لا تعوض ! .. الخ . حاولت استرجاع كل الذنوب التى ارتكبتها فى حياتى وأستحق عليها الذبح فوجدتها كلها لا تستأهل أكثر من علقة بالفلقة على قدمى يوم القيامة فى موقع وسط بين جهنم والجنة . كذلك حاولت معرفة أى شىء عن هذا الرجل الدرفيل ومن يكون هو وأتباعه فلم أستطع أن أتذكر أننى رأيت أحداً منهم قبل الآن فى أى مكان . فكرت فى استرحامه ليعطينى فرصة ولو قصيرة للتفاهم على أساس أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس قبل أن

يعاقبهم أو يكافئهم ؛ لكن صفحة الشر على وجه الرجل كانت سوداء قافلة الملامح لا أمل فى استرضائها قط ؛ فلم أجدا مفرا من الإسراع فى الجرى .

فجأة ظهر لى أن الشارع الذى أجرى فيه مسدود بجدار مرتفع سميك كالقدر لا يمكن اختراقه أو تسلقه . إلا أن الشارع كان فى غاية من الاتساع وكرم المساحة ؛ فخادعت العملاق بأننى قد تعبت وعلى وشك الوقوع . انحنيت كاسرا ظهرى وفى نفس اللحظة كنت قد استدرت بسرعة البرق منحرفا نحو اليمين فى اتساع الشارع عائدا أجرى إلى حيث لا أدرى ..

ارتد العملاق ورائى ناظرا بغيظ لأتباعه الذين فشلوا فى ملاقاتى وصدى . كانت خطواتى أسرع من حصان السباق . ما أن اقتربت من الصعايدة المتربعين على المصطبة أمام الدار العتيقة حتى شعرت فجأة بأنى غير قادر على الجرى – شعرت كأن قلبى قد وقف كأن الكهرباء انسحبت من عروقى فانطفأت كل القوى فى جسدى فوقفت فى مكانى مستسلما لقضاء الله .

لحق بى العملاق ؛ أمسكنى من خناقى ؛ طرحنى على الأرض فوق ظهرى ؛ داس بركبته فوق صدرى ، تماما كما أرى فى برنامج مصارعة المحترفين فى التليفزيون التى يقال إنها تمثيل فى تمثيل . لبرهة سريعة خيل لى أننى ربما أكون قد تحديت هذا الرجل بشكل من الأشكال لست أتذكره – كما يقال فى المصارعة – فصمم على قطع رقبتى لعباً فحسب وسوف يتركنى بمجرد استسلامى .

إلا أنه تلقف من أحد أتباعه فرخ ورق سميك من ورق اللحمة ، لف به رقبتى ؛ ثم أخذ يحك شفرة السكين فى الأرض ليشحذ نصلها بجعله أكثر مضاء . عندئذ ترجيته صارخا :

– «إن الله مع الصابرين ! انتظر قليلا حتى أتشهد على روحى ! لا أطلب منك أكثر من هذا!» .

هتف من بين أسنانه :

– «هيا تشهد كما يحلو لك ! بسرعة !»

– «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمدا رسول الله ! الموت علينا حق !» .

مد السكين ليجز رقبتى . انتفض الصعايدة القاعدون على المصطبة . صاح صائح منهم :

– «عندك ! إرفع السكين ! إياك أن تذبحه ! ألست تعرفه ؟ إنه شاكر ! نعم ! إنه هو شاكر غير أنه متنكر! » .

رفع العملاق حد السكين عن رقبتى ، ثم رفع ركبته عن صدرى . مع ذلك ظللت ممددا فى رقدتى ؛ بطنى يعلو ويهبط ، وفى حلقى غرغرة . كل ما استطعت فعله أن رفعت ذراعى هاتفا من خلل الغرغرة :

– «ماء ! إلحقونى بشربة ماء ! أريد أن أشرب أشـ ..»

– «بسم الله الرحمن الرحيم ! خذ ! إعدل نفسك لتشرب ! إمسك الكوب!» .

اليد التى رفعتنى كانت رحيمة بقدر ما كانت مألوفة لكتفى ؛ تماما كالصوت الذى سمعته . فتحت عينى . كانت أم صابر قد رفعت رأسى عن المخدة وأجلستنى ، ووقفت أمامى ممسكة بكوب ملآن بماء مثلج . رفعتها ودلقت نصفها فى حلقى حتى ارتويت فبدأت أسترد أنفاسى وأعرف حقيقة ما كنت فيه منذ برهة. أخذت أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأمسح عرقى المتصبب على وجهى ورقبتى .

لاحظت أن أم صابر تكتم ابتسامة متمردة . رفعت رأسى لأسألها بغيظ عما يدعوها للإبتسام وأنا فى مثل هذه الحالة . إلا أن صوت الخروف المربوط فى دهاليز الدار صار يجأر بصوته العريض المبحوح : ما .. ا..ء .. ما...ا...ء. هنا انفجرت أم صابر ضاحكة بعمق انزرد منه وجهها واحتبست فيه الدماء – كنت أضحك أنا الآخر لضحكها ؛ لكننى ضبطت وجهى على التكشيرة الغليظة وشخطت فيها :

- «مالك يا وليه ؟ فشتك عائمة؟!»

وصاح الخروف كأنه يدافع عنها :

- «ما..ا..ء ! .. ما..ا..ء!»

حاولت أم صابر أن تتمالك نفسها لتوقف الضحك قائلة بصوت متقطع :

- «كنت - عدم المؤاخذة - ترد على الخروف ! والخروف يرد عليك ! أنت تقول: ميه ! والخروف يقول : ماء ! العيال كلهم يضحكون فى وسط الدار ! فكرنا أنك والخروف تمزحان معا ! ولولا أنك قلت : أشرب ! ما كنت جئتك بالماء !» .

ضحكت رغما عنى ؛ بل تفوقت عليها فى الضحك . تذكرت لحظتها أن غداً هو عيد الأضحى ، حيث نقطم رقبة هذا الخروف المزعج ونوزع ثلاثة أرباعه على أهل الله .

حينما قمت لأصلى العصر جماعة فى جامع قايتباى هتف بى هاتف أننى يجب أن أحذر هذا المنام المفزع ؛ بأن أدعو الله عند الصلاة بأن يفوته على خير وأن يجعل يوم العيد يمر فى سلام .

فى صبيحة اليوم التالى ، يوم العيد ، ظهر الصبح جميلا ، شكله يشبه شكل السماء الصافية . لم يكن يعكر مزاجى سوى شىء واحد فقط ؛ ذلك هو أن الجزار الذى بيت عليه بالأمس لكى يجىء اليوم ليذبح لنا الخروف ، قد تأخر ، ولابد أنه سيضعنا فى نهاية مشواره ؛ وأنا أحب أن يتم الذبح فى موعده المعتاد . ارتفع العكـار فى مزاجى حين تبين لى أننى أخطأت بالاتفاق مع هذا الجزار اللكع .

لكن الله شاء أن يروق مزاجى ؛ إذ تناهى إلى أسماعنا صوت ينادى فى حارة العجوز :

- «جزا ..ر..جزا...ا..ر!»

قلت للعيال :

- «جزار يا ولاد ! نادوا عليه بسرعة!»

قالت أم صابر :

– «جزار سريع لا نعرفه!»

– «سريع سريع ! هل سنناسبه ؟!»

طلع ولدى صابر جريا إلى الحارة فأتى به ..

كان رجلا سمح الوجه بشوشا ، فى حوالى الثلاثين من عمره : طويلا كالنخلة، قويا كالجمل ، يحمل عدة الذبح فى لفة من قماش نظيف ..

سلام عليكم .. عليكم السلام .. كل عام وأنتم بخير ؛ وكشف سكاكينه وراح يسنها بحرفنة واضحة . وحين رأيت السكين الكبيرة فى يده خيل لى أننى رأيتها من قبل ، هى بعينها، بنفس هذا الشكل ، نفس المقبض الملفوف بخيوط من صوف الغنم .

و لدى صابر وولد أختى مختار وأخوه عزت أمسكوا بأرجل الخروف وقيدوه بإحكام .. تقدم الجزار الطويل القوى ، أمسك بلغد الخروف ومد السكين ليذبح .

فى الحال – لا أدرى لم – وقفت صارخا فيه بعصبية :

– «عندك ! ارفع السكين !»

يد الجزار تجمدت فى الهواء ؛ اصفر لونه وأصابه الذهول . الولاد أيضا تجمدوا ؛ حملقوا فى وجهى بكثير من الدهشة والاسترابة ، لمع التوجس فى عيونهم . بخجل وارتباك قال الجزار :

– «فيه إيه يا آبا الحاج ؟!»

قلت كأننى أوبخه :

– «يجب أن تتشهد قبل أن تذبحه ! يعنى تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله !» .

تبسم الجزار وشملنى بنظرة عطوفة وساخرة ؛ بكل أدب قال :

– «كيف تصورت يا آبا الحاج أننى لم أتشهد ؟! هل من الضرورى أن أرفع صوتى ؟! إن الله يسمعنى حتى لو نطقتها فى سرى ! هذه شغلتى ولابد أن أتشهد قبل أن أذبح !»

قلت له فى تأنيب وتحد :

– «لكنك لم تتشهد !»

هتف الرجل فى حرج شديد :

– «تشهدت والله يا آبا الحاج ! أنت لن تعلمنى شغلتى من غير مؤاخذة»

اغتظت منه ؛ لكن ولدى صابر قال لى بانفعال واحتجاج :

– «تشهد فعلا يابوى»

وقال كل من مختار وعزت :

– « تشهد يا خال قبل أن يمد يده ! سمعناه !»

قلت وقد باخ انفعالى :

– «عدم المؤاخذة يا ولدى ! لم أسمعك!»

اتسعت ابتسامة الجزار ؛ تبادل نظرة مرحة مع الولاد ، ثم أومأ نحوى برأسه فى حركة امتثال :

– «أتشهد مرة أخرى يا آبا الحاج ! لن نخسر شيئا ! بالعكس ! الشهادة مكسب كبير!» .

كنت قد اقتربت منه ، ورحت أطبطب على كتفه تطييبا لخاطره . أما هو فقد رفع صوته بقدر ما يستطيع :

– «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله!»

وفيما كان حد السكين يغوص فى رقبة الخروف راح مختار ولد أختى يفرد فرخ ورق سميك من ورق اللحمة الذى اشتريناه لنلف فيه الأنصبة ، فوق رقبة الخروف لتمنع نافورة الدم من الوصول إلى وجوهنا . أما أنا فقد ثبت عينى على رسغ اليد اليسرى للجزار وهو يعيد ترديد الشهادتين عدة مرات ليريحنى ويرضينى ؛ فرأيت رسما دقيقا للصليب باللون الأخضر الغامق مدقوقا فى رسغ الجزار ؛ حينئذ داخلنى شعور فائق بنشوة عظيمة لا أستطيع وصفها على الإطلاق، وقد امتلأ سمعى بما يشبه زغاريد مدوية تجلجل فى سماء الكون بغير انقطاع .

دستة كراسى خيزران

أظنه كان ليلا أو ما يشبه الليل ، وأنا قاعد على الكنبة أدخن الشيشة . كانت ابنتى سناء ، التى بدت لى طفلة ممطوطة القوام ، هى التى وضعت أمامى كوب الشاى . صوتها الطفولى لا يزال يرن فى أذنى بكلمة : الشاى يا أبا . الغريب أننى تذكرت فى الحال أن ابنتى سناء كبيرة ومتزوجة من ولد أختى مختار ولديها منه عرسان وعرايس على وش زواج . الأكثر غرابة أن ذلك لم يدهشنى ؛ قلت لعلها بنت سناء هى التى أتت بالشاى قبل برهة . رشفت منه رشفتين ؛ استطعمته؛ قلت لنفسى إن هذه الشمخة الحريفة فى طبخ الشاى لا تخرج إلا من يد سناء نفسها . تأهبت لكى أناديها لأسألها إن كانت هى التى عملت الشاى أم ابنتها ؛ فإن كانت ابنتها فسأفرح وأعطيها نصف ريال تتشبرق به . ما كدت أفتح فمى إلا وأم صابر داخلة ؛ وكان من الواضح أنها آتية من باب الشارع . قبل أن أسألها أين كانت رأيت ! تقولى لى :

– «جرجس يسأل عنك وينتظرك فى الشارع» .

جرجس ؟! جرجس من يا ترى ذاك الذى ينتظرنى أمام باب الدار ؟! وكيف تتركه أم صابر دون أن تقول : تفضل وادخل ؟! الواضح من نطقها لإسم جرجس أنها تعرفه معرفة جيدة بدليل قولها : جرجس .. وكفى ، على اعتبار أننى أعرفه أنا الآخر وكأننى لا أعرف إلا جرجسا واحدا فقط يغنينى إسمه عن لقبه . عندئذ رأيتنى أهتف قائلا : آ..ه .. جرجس . وتذكرت بلدتنا كوم سعيد مركز صدفا محافظة أسيوط . كان جرجس هو القبطى الوحيد فى بلدتنا . وعلى مبعدة ربع ساعة بالحمار توجد بلدة أبو حجر وكلها أقباط فى أقباط . كل قبطى فى الصعيد كله آنذاك لابد له من بدوى يفرض عليه حمايته نظير إتاوة يأخذها منه بانتظام ؛

يكفى أن يشاع فى البلدان المجاورة أن هذا القبطى أو ذاك بدويه فلان الفلانى لكى يحترمه المسلمون فيكفوا أذاهم عنه ، لا يفكر أحد من الأشقياء – وما أكثرهم – فى خطفه أو سرقة بهائمه . كان أبى هو البدوى الخاص بجرجس كوم سعيد هذا . وأبى آنذاك خفير لإحدى ماكينات المياه ، له فى البلاد هيبة مستمدة من هيبة أعمامى الذين كانوا من الأزهريين الفقهاء . ولم يكن جرجس ليبخل علينا بأى شىء ؛ فى المقابل لم يكن أبى يقصر فى حمايته ، أذكر وأنا طفل أن جرجس كان ماشيا فى البلدة ذات يوم ممسكا بيده خشتا . والخشت عبارة عن سيخ من الحديد يهذبه الحداد فيجعل له طرفا مدببا كالمذراة أو شوكة الأكل ، أما الطرف الآخر فمجوف تبيت فيه عصا صلبة غليظة ، يعنى يشبه الحربة ولكن بشعبتين ، ينشن به الشقى على جسد الضحية من بعيد ثم يقذفه بأقصى ما فيه من قوة فينطلق فى الهواء كالسهم كالرصاصة ينغرز فى الجسد فيقضى عليه فى الحال . مثل هذا الخشت لا يحمله ويمشى عيانا بيانا سوى أشقى الأشقياء الفاجرين . أما أن يحمله قبطى مسالم كجرجس فإن هذا هو العجب العجاب . وذلك ما قد استعجب منه شقى يدعى سالم أبو حسين حينما رآه فى يد جرجس ؛ فبكل هدوء اقترب منه قائلا :

– «قبطى يحمل خشتا ويمشى به فى عز النهار ؟! أنا يا شقى لا أجرؤ على حمله قبل منتصف الليل !» .

ثم نزعه من يده ومشى . اشتكى جرجس لأبى ، فطقطق الغضب عظامه وألهب وجهه ، وقف فى صحن المسجد الجامع بعد انتهاء صلاة الجمعة ، صاح بأعلى صوته فى المصلين ، حكى لهم الحكاية ثم ختمها قائلا :

– «امرأتى طالق بالثلاثة إن جرؤ سالم أبو حسين على الخروج من داره بعد اليوم إذا لم يرسل لى الخشت فورا !» .

لبس المصلون الخير فى أحذيتهم ومشوا به ؛ فما جاء أذان العصر إلا والخشت فى دارنا .

مرت هذه الحكاية بذهنى مرورا سريعا جدا ؛ فقلت لأم صابر فى غيظ :

- «كيف يا ولية تتركين جرجس فى الشارع ؟!»

قالت فى ارتباك وحرج :

- «معه ناس كثار !»

فى الحال لبست هدومى ، جريت ؛ كان الباب مفتوحا ، نظرت فى الحارة ، فإذا بحارة العجوز ملآنة بالخلق يحتاطون بجرجس الذى كان جالسا وسطهم ووجهه كالفطيرة السخنة يبك منه الدم . سلمت عليه بحرارة ، قلت له : عن إذنك، جريت إلى دكانة صغيرة على ناصية حارة العجوز . قلت للولية الواقفة فيه :

- «هاتِ عشر زجاجات حاجة ساقعة»

أتت الولية بزجاجات فارغة ، أمسكت بالكوز ، اتجهت إلى برميل فى ركن المحل ، جعلت تغرف منه بالكوز وتصب فى الزجاجات .. اندهشت ، فهذه أول مرة أرى فيها شيئا كهذا الذى تفعله ، قلت لها بعصبية :

- «لا .. لا .. أريد زجاجات ملآنة ومقفولة بخاتم الشركة ! وإلا فأذهب لأشترى من عبد البقال!»

قالت الولية بثقة :

- «عبد البقال سيعطيك من البرميل أيضا ! فهذا هو النظام الآن!»

تعجبت من هذا الكلام ؛ لكنى تذكرت أن الواحد منا قد أصبح يصحو من النوم فى هذه الأيام فيفاجأ بأن كل شىء تغير بفعل ما يسمى النظام العالمى الجديد الذى أصبحنا نسمع عنه كثيرا ولا نفهمه . المهم أننى حملت الزجاجات فى صندوق على كتفى وعدت إلى الناس الملمومين أمام دارنا فوزعت عليهم التحية وظللت واقفا أحاول معرفة سبب قدوم جرجس وسبب هذه اللمة حوله . لمحت صلاح ولد ولدى صابر يجرى بين الأطفال ، فناديته لأنهيه عن هذا الزئيط الذى يشوشر على الناس . فلما لم يسمعنى مشيت تجاه الأطفال لأهوشهم وأمسك بصلاح . ظن الولاد أننى أنوى ضربهم ، فجروا ، فصرت أهرول خلفهم أنادى بأعلى صوتى :

يا صلاح يا صلاح ! وثمة يد تحاول جذبي من الخلف بخشونة . استدرت مجهزا يدى لضرب هذا الذى يشدنى ، فإذا بالدنيا كلها تختفى من أمامى لبرهة خاطفة ؛ وإذا بأم صابر تهزنى فى رفق قائلة :

- « مالك ؟ عم تنادى على صلاح ! ماله صلاح ؟! »

اعتدلت فى رقدتى ؛ ثم نهضت قاعدا ، وصوت المؤذن يأتى صائحا : الله أكبر . سألت أم صابر :

- « هذا أذان العصر أم أذان الفجر يا ولية ؟»

قالت إنه أذان العصر ، فنزلت عن السرير لأتوضأ لصلاة العصر . قلبى كان منقبضا : ما الذى يا ترى يقصده جرجس بزيارته لى فى المنام الآن رغم أنه مات من سنوات طويلة مضت ؟! إننى فى الواقع أخشى من زيارة الموتى فى المنام ، كما أننى أتوجس من منامات العصر والفجر بالذات . قالت أم صابر ضاحكة وهى تصب الماء على يدى :

- « الولد صلاح ظن أنى شكوته لك فطلع يجرى لما سمعك تناديه وأنت نائم ! »

- « أنا كنت أناديه فى المنام !»

- « هذا ما يجننى ! كنت داخلة عليك أصبحك لتشخط فيه ! ففوجئت بأنك تناديه وأنت نائم ! »

توقفت عن الوضوء منشغلا ؛ سألتها :

- « وماذا يفعل صلاح يا ترى ؟!»

قالت فى شىء من الحرج :

- « يعمل دوشة والناس حزانى ! »

- « ناس من يا وليه ؟!»

- « جيراننا القبط .. المسيحيون !»

- « مالهم يا وليه ؟! »

- « أبوهم مات !»

- « عبد المسيح جارنا .. مات ؟ أقصد : هلك؟! »

- « كل هذا الصوات لم تسمعه ؟!»

- « لاحول ولا قوة إلا بالله ! إناً لله وإنا إليه راجعون ! »

- « صل بسرعة واطلع لتقعد مع الناس ! »

- « طبعا ! جيراننا الحيط فى الحيط ! لابد أن نعمل الواجب وزياده ! »

صليت العصر وخرجت . رأيت نصف حارة العجوز من أمام دارنا ملآنة بالناس من رجال ونساء وأطفال ، كلهم يحوطون بولد عبد المسيح ، ذلك الصبى الصغير الذى انتفخ وجهه من كثرة البكاء فصار كالفطيرة الساخنة . اخترقت الجموع اليه ، سلمت عليه وحضنته فى صدرى ؛ واسيته بقدر ما استطعت ؛ ثم قلت : عن إذنكم خمسة » . توجهت فى التو واللحظة الى محل للفراشة فى شارع السوق يملكه محمد الجبناوى ويتخذ من بيته وسط المقابر مقرا للمحل . قلت للجبناوى :

- « هات دستة كراسى يا جبناوى ! »

قال منزعجا :

- « قلبى عندكم يا عم احمد ! ماذا جرى ؟!»

- « جارنا عبد المسيح تعيش أنت !»

فى تأثر شديد قال :

- « خلف لك طول العمر ! اللهم اغفر له ولنا »

جهز لى عشرة كراسى ؛ نادى صبيه ليحملها الى حارة العجوز . قلت :

- « يا جبناوى هذه عشرة كراسى وأنا أريد دستة ! »

تبسم قائلا :

- « ياعم احمد الدستة عندنا عشرة كراسي فقط ! »

- « كيف ؟! الدستة في كل الدنيا إثنا عشر ! لا تضطرني للذهاب الى غيرك!»

اتسعت ابتسامته وازدادت لطفاً :

- « كل محلات الفراشة في كل البلاد نظامها هكذا : الدستة عشرة كراسي فقط ! »

- « على بركة الله ! شيل يا ولد ! »

سرت أمامه حتى وصلنا الى حارة العجوز . وضعنا الكراسي ودعونا الناس للجلوس . فلما جلسوا رأيت عدداً كبيرا لا يزال واقفا . تلفت حولي أبحث عن صبي الجيناوي لأطلب منه دستة أخرى ، فتبين لي أنه انصرف لتوه . لمحت الولد صلاح يزأط بين الأطفال بعيدا . ناديته ؛ لم يسمعني ؛ كررت النداء عدة مرات ؛ لم يسمعني . مشيت نحو الأطفال ؛ جروا أمامي ؛ هرولت صائحا :

- « يا صلاح ! يا صلاح ! يا صلاح !»

اصطدمت بصبي الجيناوي يمشي على مهل في نهاية حارة العجوز . قال :

« مالك يا عم احمد ؟!»

صحت فيه لاهثا :

- « هات دستة ثانية !»

وعدت مهرولا ؛ فوجدت أم صابر ممسكة ببراد كبير شكله يشبه البرميل ، وابنتي سناء ممسكة بصينية ملآنة بالفناجين ، فيما راحت أم صابر تصب فيها من الكوز قهوة توزعها على كل الحاضرين .

كف العفريت

تدهمنى المنامات حتى وأنا صاح . وبدائما أبدا تختار أصفى اللحظات ؛ حيث يكون دماغى قد اشرأب فوق سور النهار وتخلص من وحل السوق ودوشة الزبائن وزفارة السبوبة وهدوم الشغل . هى لحظة تكلفنى كثيرا يا بو العم ، عدساية الأفيون الذى ارتفع ثمنه فأصبحت العدساية بعشرة جنيهات على الأقل ؛ أكواب الشاى الثقيل المتواصلة ؛ طاقم من حجارة الشيشة المغمسة بتعميرة جيدة . صلاة العصر التى تروّق صدرى وتهدىء اعصابى بعد مراجعتى لكشف اخسارة ذى الوجهين ؛ وجه المكسب والخسارة فى شغل السوق ؛ ووجه المكسب والخسارة فى شغل الذمة والضمير والأمانة . فإذا تأكدت اننى بعت للزبائن سمكا حيا طازجا وراعيت حق الله فى الميزان فإننى أكون قد ربحت ربحا عظيما ولو كان الإيراد يكاد يغطى ثمن البضاعة ومصروفها فحسب . وإذا تبينت أننى نسيت أن أرمى بعض السمكات الميتة التى تتسرب الى البضاعة دائما أثناء عملية المسواق، وأنها لابد قد تسربت الى بعض زبائنى ، فإننى أشعر بخسارة فادحة حتى ولو كان الإيراد ضعف ثمن البضاعة بعد مصاريف نقلها وعمالها ورشوة مفتش التموين المتنطع دائما فى طلب الإتاوة وإلا حرر محضرا يدّعى فيه ما يدعى ، وإكرامية أمين الشرطة بإدارة المرور الذى يعترض طريقنا كل يوم بدون أى سبب. هنا يغيب عنى الصفاء لعدة أيام . ولو كان ذلك ممكنا لاستأجرت سيارة بميكروفون وسرحت فى منشية ناصر وقايتباى ومدينة نصر ، وأروح أزعق على كل من اشترى منى سمكا ووجد به واحدة ميتة أن يجىء ليأخذ منى تعويضا عنها. فالمصيبة هى أننى عند البيع اكاد أغيب عن الوعى من شدة الزئيط والشد والجذب والمساومة ونهى الزبائن عن مد الأيدى والتقليب فى السبوبة . لو كنت وحدى على الفرش أُعبىء السمك فى القراطيس لضمنت كل شىء فى التمام ؛ لكن الولاد الذين يساعدوننى فى البيع لا يأبهون لشىء ولا يستمعون لنصح .

شف كيف تكلفنى لحظة الصفاء مالا يطاق . مع ذلك يا بو العم لا تجىء خالصة أبدا. لابد من شىء يعكرها . فإن لم يحدث شىء فالمنام جاهز ؛ ما يكاد يرانى صافى النفس رائق المزاج حتى يستلبنى من نفسى . وقد بت لا أدرى كيف اسمى هذا . إننا نسمى المنام مناما لأنه يجيئنا أثناء النوم ؛ فبماذا نسميه وهو يجىء فى عز اليقظة والصحو ؟ وهل يحدث ذلك لناس غيرى ؟ أم أنه يختصنى وحدى ؟ الله أعلم لكن من حسن الحظ أن الكثيرين يسمون المنام رؤيا ؛ وهذا أصدق وصف فى نظرى .

كنت قاعدا على الكنبة فى الحجرة الملحقة بحجرة نومى فى الطابق التحتى من دارى؛ الشيشة فى يدى ، كوب الشاى أمامى ؛ ومن حولى ولدى صابر وأخوه محمد وأولاد أختى صفية : مدكور وناجح وأبوهما دياب منازع ابن خالتى الذى لا يزورنى إلا كل حين . التليفزيون كان شغالا مع أن أحدا لا ينظر اليه ولا يستمع لشىء مما يقوله ؛ ربما لأن الجميع يتكلمون فى آن واحد – خصلتنا يا مصريين – وأنا الوحيد الذى من المفترض أنى أنصت لهم فى حين أنتى غير قادر على الإنصات لأى شىء مما يدور حولى.

لو سألتنى عما كان يدور فى مخى لحظتها ، ما وجدت عندى إجابة . فقد كان مخى أشبه بسمكة نشوانة تعوم فوق سطح مياه صافية ؛ تروح وتجىء وتغطس وتقب دون هدف محدد وواضح .

فجأة انتصبت أمام نظراتى الشاردة شاشة عريضة كشاشة السينما ؛ سرعان ما غمرها الضوء ؛ وإذا بسيارة ماركة بيجو سوداء اللون ملآنة بسبعة ركاب يشبهوننا فى الملبس والسحنة ؛ مرقت أمامى بسرعة منطلقة كالريح ؛ ونظراتى تتابعها باهتمام وشغف، وفزع أيضا ؛ ذلك أن السيارة صارت تترنح وترتج . وإن هى إلا برهة حتى رأيت إحدى عجلاتها من الخلف تنفك وتطير فى الهواء كأن السيارة قد بصقتها بقوة . ثم ما لبثت السيارة حتى انقلبت كلاعب العقلة حين يقف على يديه رافعا ساقيه فى الهواء. لبرهة أسرع من لمح بالبصر رأيت السيارة واقفة على بوزها، شنطتها الخلفية مرفوعة فى الهواء، بطنها بارز واقف مسود ملطخ بالطين ، عجلاتها مجرد دوائر صغيرة تفر دائرة حول نفسها

تشبه أطرافا مبتورة، وفى الحال تستلقى على الأرض ينعجن سقفها يتبطط، فبدت كصرصار انقلب على ظهره فصارت أطرافه ترفس الهواء فى حركة هستيرية. ثم أظلمت الشاشة واختفت من ناظرى. صرت أقاوم الانتفاض والرعشة مرددا: يا سابل الستر يا كريم، ومددت يدى فأمسكت كوب الشاى، جرعت منه رشفتين أرطب ريقى الناشف، كل ذلك دون أن يدرى بى أحد ممن يزأطون حولى.

انقبض صدرى فى الحال يا آبا الحاج. جاءنى صداع قوى، شعرت برغبة فى الخروج من هذه الحجرة طلبا للهواء وتجديد المنظر، فكرت فى الذهاب إلى قهوة الغول التى تكون فى أحسن حالاتها فى مثل هذا الوقت، لكن دياب زوج أختى وابن خالتى فاجأنى بقوله:

– «ما بدك تزور ولد خالتك أحمد عثمان فى المعصرة؟» .

تذكرت أن ولد خالتى أحمد عثمان المحامى فى إحدى الشركات والمقيم فى حى المعصرة كان بعافية، وأنه دخل المستشفى، ومن يوم ما جاءنى خبر دخوله المستشفى وأنا أرتب لزيارته لكن الظرف لايواتينى بسبب زحمة العمل وبقاء السبوبة أمامى لبعد العصر أحيانا. وأما وقد جاءنا بالأمس خبر انتقاله إلى بيته صار لزاما علينا زيارته دون تأجيل. شكرت دياب على هذه التفكيرة وقمت فى الحال فلبست ثيابى..

– «يلا بينا يا ولاد»

طلعنا على شارع الأوستراد واستوقفنا سيارة أجرة، ركبناها.. على المعصرة يا أسطى.

دخل بنا السائق فى عدة تخريمات معقدة حتى صار فى شارع صلاح سالم. ما أن خرجت السيارة من تفريعة القلعة واستقامت على الطريق السريع حتى طق فى دماغى حجر مضئ كحجر طق الليل الذى يتولد عنه الشرار لنشعل به السجاير فى بلدتنا قبل اختراع الكبريت. تذكرت الرؤيا التى شاهدتها وحدى منذ دقائق . ففى الحال لاحظت أن السيارة التى نركبها ماركة بيجو سعة سبعة راكب، وسوداء اللون. حينئذ شعرت بأنها تتدلدق مثل كوب ملآن فى يد ترتعش، وكأننا صرنا فجأة على كف عفريت.

كنت بجوار السائق فرفعت ذراعى نحو السماء فى ابتهال أصيح فى فزع واستغاثة:

– «استر يارب.. يارب سترك»

ارتج على السائق، ركبه الفزع، داس فوق الفرملة، فإذا بالسيارة مائلة على جنبها الأيمن. فى لمح بالبصر كانت العجلة التى انفكت من عقالها – وهى اليمنى من الخلف– قد صارت تفر أمامنا كأنها تطفش من وجوهنا.

بقينا فى كراسينا متجمدين لبرهة طويلة نتشهد ونقرأ ما تيسر من سورة يس وآية الكرسى.

نظر السائق لى بامتنان كبير. ثم راح يرمقنى يتفحص هويتى لربما أكون أحد الأقطاب المشهورين، صار يردد:

– «لولا صيحتك يا عم الحاج لاستمرت السيارة على سرعتها ولصرنا الآن فى خبر كان! فالحمد لله أنك بصرختك أفزعتنى ففرملت فى الوقت المناسب!»

ثم أضاف وهو يشعل سيجارة يقدمها لى:

– «عمرى ما وثقت فى أى كلام عن المشايخ المكشوف عنهم الحجاب! الآن أيقنت أن الدنيا فعلا تمتلئ بناس فيهم شئ لله!»

نزلنا كلنا نساعده فى تركيب العجلة، نوصيه بالتقريط على مساميرها، ومسامير بقية العجلات.

حماران

أول ما شفتها عرفتها فى الحال رغم أنى لم أكن أعرف عنها شيئا منذ ما يزيد على ثلاثين عاما يعنى من أيام الطفولة . إنها نعمة بنت شقيق عمدة بلدتنا . ليس غريبا أننى عرفتها، فالإنسان لا ينسى أصدقاء طفولته ولو بعد مائة عام، إنما الغريب أننى رأيتها تطوق رقبتى بذراعها الذى لم أكن أجرؤ من قبل على لمسه. ثم إنها صارت تسحبنى فى الطريق الذى يلف حول بلدتنا. صرنا فى مواجهة بيت حمدان الكبير، تفصلنا عنه بركة غويطة قديمة كنت أطبش فيها وأنا طفل . شعرت بالحرج والخوف، صرت أترجاها:

– «فكى ذراعك عن رقبتى يا نعمة! بيت حمدان يرانا! اعملى معروف ستفضحينا!»

كالمجنونة قالت:

– «يرانا بيت حمدان أو بيت العفاريت ! إذا أحببت أن أتركك يجب أن .. تبوسنى!»

وقدمت لى خدها الوردى الناعم فملت عليه بشفتى فى وجل واختطفت من ورده قبلة سمينة امتلأ بها فمى وخيل لى أن وريقات من ورد خدها التصقت بشفتى وذابت فيهما. فما أن تركتنى ومشت بجوارى حتى رأيتنا معا نقف أمام بيت العمدة شخصيا..

كان خلق كثيرون أمام البيت ما بين واقف وجالس على كرسى. فجأة صرنا فى قلب اللمة. خرجت سيدة سمينة متختخة وجميلة سبحان الصانع، عرفت أنها زوجة العمدة، وتعجبت كيف أنها بقيت كما هى منذ رأيتها فى الطفولة. أشارت نحوى بذراعها البض قائلة:

– «أنت ! تعال لتتوظف عندنا!»

فوقف رجل فوق كرسى كأنه يدير مزادا علنيا، أشار نحوى قائلا لزوجة العمدة.

– «هذا هو ! لن يجعلكم تحتاجون لأى شئ! إنه أنسب واحد لكم فى البلد كلها!»

أنا أتوظف عند زوجة العمدة؟ خدام يعنى؟ ما هذه الورطة المهيبة؟! لو ان امرأة غيرها تلفظت بهذه الكلمة لكان لى معها كلام ناشف يؤلمها كما المتنى . تعجبت كيف أننى مازلت أخشى بأس العمدة رغم أننى كما يلوح لى أصبحت أعيش بعيدا عن الصعيد كله منذ أكثر من ثلاثين عاماً..

عقلى قال لى إن التجمل بالصبر والأدب أحلى من أى رد، وجعلت أدبر للانسحاب من هذه الزحمة التى دخلتها أنا بدون داع. فجأة لمحت أحمد ابن عمتى يظهر فى الزحمة وفى يده عودان من القصب أحدهما رفيع والآخر تخين . تزحزحت شيئا فشيئا حتى صرت لصقه . أعطانى عود القصب الرفيع، فشوحت فى وجهه صائحا:

– «لا يا عم ! هذا عود ناشف ! اعطنى التخين!» فثنى ركبته وقطع العود التخين وأعطانى نصفه، ثم سحبنى ومشينا دون أن ينتبه إلينا أحد. ماكدنا نبتعد عن زحمة بيت العمدة حتى رأيتنى قد صرت وحدى ونبة القصب فى يدى. وإذا بى أمام لمة كبيرة على طريق بين المزارع، حين اقتربت منها رأيت اللمة منقسمة إلى مجموعتين من الرجال كل مجموعة تبرك فوق حمار بالقوة وتذبحه بسكين كبيرة حادة ركبنى الفزع ، صرت أصرخ.

– «لا حول ولا قوة إلا بالله! لا حول ولا قوة إلا بالله! لماذا يذبحون الحمير ؟! هذا كفر!»

وليت وجهى بعيدا حتى لا أرى المنظر المؤلم. وفيما كنت أستدير تعثرت قدمى فوقعت نبة القصب من يدى فانحنيت على الأرض لألتقطها فما أن أمسكت بها حتى رأيتها تحولت إلى عصا، فتأبطتها ومضيت قاصدا دارنا فى وسط البلد..

وفيما أنا مشطوط على دارنا فوجئت بيد من الخلف تقبض على كتفى وتهزه فارتعدت، استترت بصعوبة ، لكن اليد ظلت قابضة على كتفى تهزه ولكن برفق وحنو هذه المرة، وصوت رقيق يدخل فى عروقى ميزت فيه صوت أم صابر يقول:

– «إصحى يا رجل ! ما كل هذا النوم؟!»

صحوت . كان أذان العصر يزعق فى التليفزيون. توضأت بسرعة، جريت إلى مسجد قايتباى للحاق بصلاة الجماعة. خرجت من الصلاة إلى مقهى الغول هربا من الجلوس وحدى حتى لا أفكر فى المنام. ومع هذا حكيته لصديقى الأستاذ مع فنجان القهوة، فطمأننى الأستاذ إلا أننى استرحت بمجرد حكيه.

فى الطريق إلى بيتى تنبهت إلى أن الذبح فى المنام ثمنه غال جدا، فانزعجت . ما أن دخلت الدار حتى أتت أم صابر بورقة قالت إنه تليغراف جاءنا منذ قليل . سابت ركبى يابو العم، إلا أن أم صابر عاجلتنى بقولها إن ولدها صابر فك خط التليغراف وعرف أن أخى حسين أجرى عملية جراحية فى عينيه فى البلد.

لم أقعد: بنفس ثيابى هرعت إلى شقيقتى زوجة دياب ابن خالتى الساكنة فى ملكها بمنشية ناصر . قلت لها إن شقيقها حسين أجرى عملية جراحية فى عينيه فى البلد فإن كانت تحب السفر معى إلى البلد للاطمئنان عليه فلتقم الآن حالا.

ركبنا القطار من محطة الجيزة إلى صدفا ومنها إلى كوم سعيد رأينا حسين واطمأن بالنا عليه. وفى صباح اليوم التالى ركبنا عائدين إلى القاهرة ولكن المغص فى بالى كان شغالا، فعملية الذبح فى المنام– حتى ولو كانت لحمارين – لا تريد الرحيل عن دماغى.

فى تلك اللحظة لفت نظرى ونظر الركاب صوت مشاحنة: كان الكمسارى قد أمسك برجلين شكلهما محترم جدا، اتضح أنهما رجل وابنه، ادعيا أن تذكرتيهما قد سرقتا أو ضاعتا ، وامتنعا عن دفع غرامة التطويق التى وصلت إلى عشرين جنيها فوق ثمن التذكرتين وكان من الواضح أنهما مفلسان تماما، وعرق الحرج يتصبب على وجهيهما بغزارة، والكمسارى مع ذلك مصمم على تسليمهما لشرطة السكة الحديد.

جاءنى خاطر طرق دماغى قائلا: ما رأيك يا بوحميد أنك المقصود بهذه الدوشة؟ لابد أن الله قد وضع هذا المنظر أمامك لكى تسرع أنت بتفسير المنام وينتهى الأمر ؟فإن كان الأمر كذلك فإنها تضحية بسيطة . فى الحال ناديت على الكمسارى :

- «تعال يابو العم ! اترك الرجلين فى حالهما وخد منى حقك الذى تطلبه ! كم تطلب منهما ؟» .

لوى الكمسارى رقبته فى اتجاهى صائحا بعجرفة وصلف كأنه يتحدانى :

- «خمسة وثلاثين جنيها !» .

قالها بنغمة جرحتنى ؛ فكأنه يريد أن يقول لى : هل معك خمسة وثلاثون جنيها يافالح ؟ وإن كان معك فهل تقدر على دفعها ؟ ..

تحديته ؛ سحبت محفظتى وناديته بعجرفة أشد من عجرفته :

- «تعال هنا ! اكتب الاستمارة وأعطها لهما !» .

فكتب استمارة التطويق بعصبية لا لزوم لها ؛ ثم نزعها ورمى بها فى حجر الرجل الكبير ؛ وزحف نحوى ووجهه يقطر عدوانية غريبة ؛ نتش الفلوس من يدى بغلظة . وكنت على وشك أن أنط فى كرشه وألعن سنسفيل الذين خلفوه ولم يحسنوا تربيته ؛ لكننى استخسرت تضييع متعة هذا الاكتشاف الذى طرأ على بالى فجأة وجعلنى أضحك بصوت عال ؛ إذ جاءنى صوت فى دماغى يقول : إبسط ياعم فها قد تفسر المنام على الآخر وهذان الرجلان هما الحماران اللذان تم ذبحهما فى المنام وقدرك الله على افتدائهما .

نزلنا فى محطة الجيزة أنا وأختى . وقفنا فى الشارع نبحث عن سيارة توصلنا . توقفت أمامنا سيارة أجرة فيها رجل يرتدى جلبابا أبيض ويجلس على الكرسى الأمامى المجاور للسائق . وكانت السيارة ماركة بيجو سبعة راكب . مال السائق برأسه نحونا من الشباك :

– «رايح فين ياآبا الحاج ؟»

– «منشية ناصر !»

– «فين منشية ناصر دى ؟!» .

– «سائق تاكسى ولا تعرف منشية ناصر ؟!»

– «المهم أن تعرفها أنت !» .

– «إنها أمام القلعة فى شارع الأوستراد!»

– «إركب !» .

ركبت أنا واختى ؛ عبرنا الكرسيين المطويين فى الوسط إلى الكنبة الغليظة الخلفية . أخذ السائق يلف ويدور فى تلكؤ مريب ؛ لكننى توقعت أنه ربما سيوصل الراكب المجاور له أولا ثم يوصلنا .على أنه فى شارع جانبى تصنع أنه أخطأ الطريق ، فرجع إلى الخلف ليغير طريقه ؛ لكننا فوجئنا بثلاثة أفندية محترمين يطوقون السيارة ؛ ويتقدم أحدهم من السائق :

– «رخصك !» .

مد السائق يده إلى درج بجوار عجلة القيادة فسحب جلدة البطاقة وفتحها ليسحب منها الرخص ، فسقطت مجموعة دولارات على حجره . أطبق الأفندى يده عليها صائحا :

– «مهرب عملة ؟ بس ! وقعت ياحلو ! هات ما معك !»

بصوت مسكين ، ونبرة باكية بدت لى متقنة التمثيل :

– «يا سعادة البيه أنا لا مهرب ولا حاجة ! هذه عربة أخى وأنا أشتغل عليها بدلاً منه اليوم ! وهذه بطاقته هو ورخصه هو !» .

– «إخرس ياابن اللبؤة !»

وزغده بالبوكس فى ذقنه . ثم أدخل رأسه فى السيارة ناظرا فينا شاخطا :

– «كل واحد يطلع الفلوس اللى معاه من سكات !» .

صاح الراكب المجاور للسائق :

– «أنا صنايعى على باب الله وليس معى سوى فلوس مصرية اشتغلت بها من صبحية ربنا !» .

شيع له بوكسا فى كتفه :

– «هاتها ! أشوفها !» .

أخرج الراكب ثلاثين جنيها وعرضها على الأفندى فقبض عليها ، سلمها لرفيقه ، الذى لفها فى فرخ ورق أبيض قائلا للراكب فى شخطة شرطوية خشنة ومرسومة جيداً :

– «إسمك إيه ؟» .

قال الرجل اسمه متلعثما . فكتبه صاحبنا هذا على الورقة . ثم انتقل الأفندى إلى الشباك الخلفى ؛ أدخل فيه رأسه صائحا فينا :

– «طلع الفلوس اللى معاك أنت وهى !» .

كنت قد انتهيت لتوى من قراءة أية الكرسى ؛ وبنفس الطريقة التى كنت أقرأ بها أية الكرسى قلت له :

– «ياعم إعمل معروف لا تعطلنا عملة إيه دى اللى احنا عنهربها ! الله لا يسيئك نحن لا نعرف غير الفلوس المصرية !»

صرخ فى رافعا قبضته قاصدا ضربى بالبوكس ؛ لكنه علقها فى الهواء صارخا :

«إحترم الست التى معك بدلاً من أن أبهدلك أنت وهى !» .

أمسكنى من اليد التى توجعنى ؛ فسحبت فلوسى كلها من جيبى ، حوالى مائتين وخمسين جنيها ؛ أعطيتها له ؛ فسلمها للآخر الذى لفها فى فرخ ورق أبيض صائحا : إسمك إيه ؟ .. ثم كتب اسمى على الورقة . ثم إنه فتح باب السيارة الخلفى ، عدل الكرسيين المطويين ؛ أشار لواحد منهم فجلس بجوارى على الكنبة زنقنى فى أختى ، وركب الأفندى والآخر على الكرسيين الوسطيين . صاح فى السائق آمرا :

– «اطلع على مديرية الأمن !» .

– «حاضر يابيه! »

أخذ السائق يتلكأ ، يدخل فى حارة ليخرج إلى حارة فشارع جانبى ؛ يمشى ببطء شديد . وأخيرا اعتدل الأفندى نحوى قائلا فى همس كأنه يختصنى بسر :

– «يظهر أنك رجل طيب ! وأنا إكراما لهذه الست الطيبة سأعفو عنك ! قف ياأسطى ! خذ ! هذه فلوسك فانزل وتوكل على الله !» .

انحاز السائق لليمين وفرمل . فتح لنا باب السيارة فنزلنا .

لما صرنا فى الشارع نظرت فى اللفة فوجدت اسمى مكتوبا عليها ، فاطمأن بالى قليلا . وحين اختفت السيارة بأسرع من البرق فتحت اللفة لأفاجأ بأنها كانت مبرومة على .. قصاصات من ورق الجرانين .

منظر على الشاشة

سواء كانت لحظة نوم تشوب اليقظة ، أو كانت لحظة يقظة تشوب النوم ، فإن الفرق ليس كبيرا عندى أنا بالذات . المهم أننى فى تلك اللحظة كنت يقظا ، أو لعلنى غفوت أثناء يقظتى مع أننى كنت أجلس على الكنبة أشرب الشاى وأتفرج على التليفزيون ؛ ومن حوالى جميع أولادى وأحفادى يزأطون . كل طلباتنا موجودة، لا ينقصنا أى شىء . وفيما كنت أحدق فى شاشة التليفزيون انفصلت الشاشة عن عينى فجأة ؛ رأيت شاشة أخرى عليها منظر آخر مؤلم ومخيف : دياب منازع ولد خالتى وزوج أختى فى حالة غضب عنيف ؛ يدفع أختى أمامه بالبونيات الثقيلة ضربا على وجهها الذى انتفخ وتورم من جميع نواحيه وانبثقت الدماء منسالة على شفتيها وأنفها وخديها .

الفزع تملكنى ، نفضنى فى مطرحى ، صرت أتقلب فى قعدتى كأننى جالس فوق ركية نار ، تأهبت للقيام لأحجز دياب عن زوجته قبل أن يخلص عليها ؛ لم يمنعنى سوى أن المنظر الذى رأيته قد اختفى وعادت شاشة التليفزيون وعليها امرأة غانية تقترب من عمق بعيد ولا يبدو منها سوى ساقين مبرومتين فى سروال يختفى تحت جلدها ويكور فى الأعلى حبة مانجو كبيرة محشورة بين فكى معصرة؛ فخيل لى أن النواة المختفية فى قلب اللحم السكرى سوف تبظ بعد هنيهة ، فلمسنى طائف من اهتياج طائش مفاجىء لكننى سرعان ما قرفت من نفسى ولفظت شاشة التليفزيون برمتها من عينى . ركبنى القلق ؛ ناديت :

– «ولد ياصابر !» .

– «نعم ياأبا ؟»

– «خذ ربع الجنيه هذا وقم حالاً وكلم عمتك فى التليفون !»

– «خير يابوى ؟ ما الحكاية ؟» .

– «فيه حاجة يابو صابر ؟!» .

هكذا سألتنى أم صابر وقد ظهر عليها القلق أكثر منى . ثم إن الولاد والأحفاد كلهم تحفزوا للاستماع وتعلقت أنظارهم بشفتى. حاولت المراوغة فوجدت أنها أجلب للقلق . لم أجد مفرا من ذكر الحقيقة حتى وإن أضحكتهم وسخروا منها . قلت لهم : لقد رأيت الآن كذا وكذا .

قال صابر فى حيرة :

– «ولكن ماذا أقول فى التليفون ؟!» .

– «عادى ! إزيكم ! أنتم بخير ؟! فإن كان فى الأمر شىء فإنك ستعرف من طريقة ردهم ! أو سيقولون لك !» .

مشى صابر ليفعل ما طلبته منه . بقينا على جمر النار حتى عاد بعد قليل فإذا هو مكفهر الوجه شاحب اللون ..

– «خير ياولدى ؟!» .

– «ماذا وجدت ؟!» .

قال صابر إن زوجة مذكور ولد أختى حدث بينها وبين أختى مشاحنة عادية كالتى تحدث دائما بين الحموات وزوجات أولادهن ، فما كان منها إلا أن تركتها وانصرفت لشأنها غاضبة . كان وابور الجاز مشتعلا تحت حلة الغسيل ؛ بعصبية شديدة راحت تعطيه نفسا أكثر من اللازم ؛ فانفجر ؛ فشبت فيها النار فنقلوها إلى المستشفى فى حالة خطرة منذ دقائق معدودة . وفيما كنا نرتدى ثيابنا للحاق بها فى المستشفى كان جميع الولاد والأحفاد يرمقوننى بنظرات تقطر منها الرهبة والاسترابة .

الفدو

كنت جالسا فيما ظهر لى أنه بيتى . مع ذلك رحت أستغرب هذه الدهاليز غير المسقوفة وهذه الحجرات الواسعة التى لا أعرف ما بداخلها على وجه التحديد . إلا أن شعورا فى داخلى راح يقنعنى أن هذا البيت بيتى . أما لماذا أنا جالس هكذا الآن على قرافيصى كأننى قاعد فى الكنيف ؛ فذلك مالم أعرف له سببا . وفجأة هبط من السماء غراب أسود اللون ضخم الجثة كديك رومى ، لرفيف أجنحته صوت كصوت الزلزال ؛ كما أن دخلته مرعبة كهمِّ الموت ..

هبط الغراب فوق وجهى مباشرة ، ناشبا مخالبه فى خدى ، مرفرفا بجناحيه كأنه يريد أن يرفعنى ليطير بى فى السماء . بقبضة يدى ضربته فى بطنه ؛ فطار وحلق فى فضاء الدهليز دائرا حول نفسه دائخا . ثم غافلنى وهبط مرة أخرى على وجهى ؛ لكننى كنت مستعدا له هذه المرة ؛ إذ ما كاد يقترب من وجهى حتى تلقفته بين يدى كيفما يتلقى أحمد شوبير الكرة من فوق رءوس اللاعبين ثم قبضت على رقبته فلويتها بكل قوتى وغيظى ؛ فلفظ أنفاسه فى لمح البصر ؛ فرميته على الأرض جثة هامدة ..

يظهر أننى صرخت حينما أنشب الغراب مخالبه فى وجهى ؛ وصرخت مرة أخرى حين قبضت عليه ولويت عنقه ؛ لأن أم صابر راحت تصحينى وهى فزعة تقول لى :

- « عم تصرخ ليه يا أحمد كفى الله الشر ؟! »

حكيت المنام لأم صابر .انزعجت منه ، صارت تصفق كفا على كف قائلة :

- « لا حول ولا قوة إلا بالله ! استر يارب ! اللهم اكفنا الشر من هذا المنام ! أحمد ! أنت متأكد أنك قتلته ؟! »

– « لويت عنقه فى يدى ورميته فى الأرض جثة ميتة !»

– « الحمد لله أنك قتلته ! الحمد لله أنك قتلته !»

تركتها وخرجت لصلاة المغرب فى جامع قايتباى . صرت أتحاشى الاحتكاك بأى أحد . خفت من الجلوس على المقهى تجنبا لأى شر قد يجىء من أى واحد من الغرباء الذين يترددون على المقهى والحى كله ؛ وقد وقر فى ذهنى أن الغراب يعنى واحدا غريبا يقصد بى شرا الله فى لله . إلا أننى لما رأيت صديقى الأستاذ جالسا مع صحبة من زملائه إحلوت القعدة فى عينى وحودت فى الحال . طلبت الشاى ورحت أتململ فى قعدتى متوجسا ضجرا .

قال الأستاذ وهو يرمقنى بنظراته التى تقرؤنى بسهولة :

– « مالك ؟! وراءك شىء مهم ؟!»

– « أبدا يا أستاذ ولكننى غير مطمئن ! »

– « من أى جهة ؟!»

– « من حدوث أى مشاجرة معى أو مع ولدى صابر !»

– « ولماذا تحدث المشاجرة اليوم بالذات ؟!»

حكيت له المنام فى كلمات قليلة لم يشعر بها أحد من الجالسين معنا ؛ حيث كانوا مندمجين فى مكلمة غامضة فى حماسة وانفعال حتى لتوشك الأيدى أن تمتد لتتضارب فى عنف .

الأستاذ الذى كان يسمعنى دائما وهو يبتسم ، ويهوّن من خطورة مناماتى التى أقلق منها ؛ ظهر على وجهه الانقباض والتشاؤم ؛ اندمج فى تفكير عميق لبرهة بدا فيها حائرا لا يجد ما يقوله لى ؛ لكنه رفع رأسه قائلا :

– « على كل حال ... »

لم يكمل ؛ إذ ما درينا إلا وحمامة كبيرة سوداء اللون دخلت مندفعة فى فضاء المقهى، ضالة تائهة مذعورة مكسورة الجناح من أثر ضربة طوبة نالتها . رفرفت

قليلا ثم سقطت فوق صدرى ؛ فدفعتها بيدى منزعجا ؛ فوقعت على الأرض تنتفض . انقض عليها أحمد نعناع وحملها خارجا بها ، وصوت الأستاذ ينفجر فى قهقهة مدوية وهو ينظر لى قائلا بطريقة قراءة القرآن الكريم :

- « وفديناه بفرخ حمام مسكين ! »

عندئذ اعتدلت فى قعدتى مستردا هدوئى كأن جبلا انزاح عنى . وضعت ساقا على ساق ، وطلبت الشيشة للجميع .

الطريق المورق

على ناصية من نواصى مقابر المجاورين المحصورة بين شارع صلاح سالم وشارع الأوتوستراد ، وتحت ظل شجرة وارفة لا أعرف إن كانت جميزة أو توتة أو جزورينة ؛ إنما هى عريضة طاغية وأفرعها تظلل دائرة كبيرة من المقابر .. رأيتنى واقفا مع أم صابر كعاشقين عجوزين دبت فيهما روح الشباب فجأة ..

لم نكن نفعل شيئا ، كذا أو كذا ؛ بل كنا كأننا انتهينا لتونا من أداء الصلاة كما نفعل أحيانا فى البيت حيث أؤمها وعيالها للصلاة من حين لآخر . لا أدرى لماذا وقفتنا الآن تحت ظل هذه الشجرة الكبيرة التى لم أرها من قبل وسط هذه المقابر التى أعرفها شبرا شبرا . لم يكن يظهر أننا ننتظر أحدا أو شيئا . أنا حتى لم أسأل نفسى عن سر هذه الوقفة الغريبة . فجأة ظهر لنا رجل بشكله مسكين غلبان ، من أولئك الذين نراهم كثيرا يتسولون فى المقابر أيام الخميس والمواسم والأعياد ، مدّ لى يده قائلا :

– « يدوم علينا وعليك الستر ! »

مددت له يدى فسلمت عليه . وفى الحال رأيتنى وأم صابر نمشى فى طريق ضيق لا يزيد عرضه على مترين ، تحف به أشواك خضراء من الجانبين ؛ إلا أنه طريق ممهد ونظيف ولا يثير فينا اى شعور بالخوف وإن كنا نشعر بكثير من الرهبة . ثم إن الطريق كان صاعدا إلى ما يشبه المزلقان على مرتفع عال جدا . وقد صرنا ندفع جسدينا لأعلى بصعوبة شديدة ؛ نلهث ، نكاد ننقلب على ظهرينا كأن الطريق ينهض واقفا فى مواجهتنا . لكن الله منحنا الصبر والقوة حتى أكملنا الصعود الى المرتفع الشبيه بجسر المزلقان ..

فإذا بالطريق عند هذا الجسر أشبه بفخذين مفتوحين ، طريق إلى اليمين وطريق الى اليسار . الطريقان متساويان فى العرض الذى لا يزيد على مترين ؛ وفى كل طريق منهما شجرة كبيرة وارفة ..

الغريب أننى - لا أدرى كيف - صرت أمشى فى طريق منهما ؛ وتمشى أم صابر فى الطريق الآخر . لكن الطريق الذى مشيت فيه سرعان ما انحنى منكسرا الى اليمين ؛ بحيث أننى صرت أرى الطريق الذى مشت فيه أم صابر . فما أن نظرت فيه حتى رأيت أم صابر - فى لقطة سريعة جدا - وهى تبدأ الصعود فوق تلك الشجرة . ورغم أن اللقطة كانت سريعة جدا فإننى شعرت أن أم صابر قد رأتنى عينا لعين ، على ضوء من وهج قرص الشمس الذى بدا كأنه نزل ليستظل من نفسه بين أفرع الشجرة التى بدت عالية جدا - جعلت أشير لأم صابر بذراعى لكى تأتى ؛ لكنها سرعان ما اختفت تماما كأن الشجرة ابتلعتها .

حين صحوت وحدى فى الفجر لأصلى وأتوكل على الله إلى سوق غمرة كنت قد نسيت هذا المنام كأنى لم أره . إنه المنام الوحيد الذى اختفى من ذاكرتى تماما ، سقط فى هوة النسيان التى تبتلع الكثير من الأيام والليالى الحالكة . وفى الواقع فإننى لست أعرف إذا ما كنت قد نسيته بمزاجى عامدا متعمدا حتى لا يقلقنى وينغص بالى من جهة العلاقة بينى وبين أم صابر وما قد يعتريها من مشاكل يشير اليها المنام المشئوم حيث وضع كلا منا فى طريق ، أم أن المنام نفسه قد أشفق علىّ من نذيره القاسى فأخذ نفسه وابتعد ؟ .

الله وكيل . إن الأيام التى جاءت بعد ذلك كانت كلها حلوة على أحسن ما يكون : زوجت البنتين الكبيرتين سناء وآمال ؛ اشتريت بيتا فى حارة العجوز أعدت بناءه من طابقين وأسكنت فيه البنتين معى ؛ ثم زوجت ولدى صابر مرتين ؛ وبعده زوجت ابنتى الثالثة هدى ؛ وتوفرت معى فلوس كثيرة على وش ابنتى راوية آخر العنقود فاشتريت خزنة ضخمة ثبتها فى الحائط كالأثرياء الذين طالما سمعت عنهم فى السوق فبات رزقها يجىء كل يوم بعد كل مصاريفنا ؛ واشتريت سيارة نصف نقل ماركة شيفروليه لأنقل عليها السمك من سوق غمرة الى مزلقان منشية ناصر ومن حسن الحظ اننى اشتريت السيارة من هنا وقامت المعركة من هنا بين

محافظ القاهرة عمر عبد الآخر وبين جميع التجار الكبار فى سوقى روض الفرج وغمرة حيث انتصر عليهم وتم نقلهم جميعا بالقوة الى السوق الجديد فى مدينة العبور على طريق مصر - الإسماعيلية الصحراوى فكأن الله كان يدبر ليجنبنى الهوان فى نقل السمك الذى كان لابد أنه يموت قبل وصولى به الى الفرش لو بقيت تحت رحمة سيارات الأجرة التى يجب أن تنقلنى من قايتباى الى مدينة العبور وتعود بى من سوق العبور إلى مزلقان منشية ناصر . وهيأ الله لباعة المزلقان - لأول وآخر مرة - رئيس حى محترما طيب القلب رأى أن المساحة الفارغة بين شارع الأوستراد وجسر سكة حديد القطار واسعة جدا ، فقرر بناء صفين متقابلين من دكاكين أشبه بالعشش تأوى هؤلاء الباعة ؛ فحجزت باسمى نمرة ، ونمرة باسم ولدى صابر ، وثالثة باسم ولدى محمد ، ورابعة باسم مختار ولد أختى وزوج سناء ، وخامسة باسم أخيه عزت زوج آمال ، ولمحمد زوج ابنتى هدى نمرة يجعلها بوفيها يبيع الشاى والشيشة لأهل السوق وزواره . وصحيح أن الدكاكين بلا مياه ولا صرف صحى ، والمر بينها ضيق لا يتسع لمرور أكثر من شخصين ، ووصول السبوبة إلى الدكان يتم بطلوع الروح نقلا على الأكتاف ؛ إلا أن الأمور كانت طيبة ، والأشيا معدن .

لم يبق إذن سوى تأدية الفريضة العظمى : الحج الى بيت الله مع أم صابر التى كافحت معى طول العمر وشربت المر فى سكنى المقابر ومطاردة البلدوزر لنا. حلفت بالله ليكونن حجا سياحيا كالناس الذوات .

تقدمت الى شركة دلنى عليها لواء شرطة على المعاش من زبائنى الدائمين . دفعت تسعة آلاف جنيه لى ومثلها لأم صابر مقابل السفر والمسكن . فصلنا ثياب الإحرام ، توكلنا على الله فى سفرة مريحة بالطائرة ؛ نزلنا فى مسكن محترم وسط مجموعة منتقاة من علية القوم المحترمين : اللواء والصحفى والمهندس والمدرس والشيخ الأزهرى والتاجر الميسور . صرنا كعائلة واحدة ؛ نساؤنا يجتمعن على الطبخ والغسل والودودة النسائية الحميمة ؛ ونجتمع نحن الرجال على الأكل والسمر وقراءة القرآن والصلاة وتبادل النصائح ونبش الذكريات .

يوم الصعود الى عرفات كان الزحام شديدا كيوم الحشر ؛ الطريق طويل

وصاعد إلى مرتفعات تبدو بلا نهاية ، بين شعاب كثيرة . الأجساد تتدافع ، تختلط بعضها ككتل من اللحم تدفعها قوة إلهية جبارة . ناس تتساقط تحت الأقدام فلا يظهر لها أثر ناس تختفي لتظهر بعد قليل ..

فجأة حدث زلزال بشرى شقق الكتل فوسع الشروخ بينها وحدثت دوامة استمرت لمدة طويلة ؛ فإذا بلفيف من النساء وحدهن فى جانب ، والرجال وحدهم فى جانب ؛ ولا أدرى كيف أفلتت منى أم صابر وصارت بين النساء المتشابهات . صار منظر الناس عجيبا وغريبا ، مخيفا ومبهجا معا ؛ صفوف فى الأعلى وأخرى فى المنخفض ..

فوق تل مرتفع تحاضنت مجموعة من النساء كان منظرهن أشبه بشجرة كبيرة وارفة تتحرك ببطء شديد . من مكانى فى المنخفض رحت أرقب التل المرتفع قلقا على أم صابر ؛ فإذا بى ألمحها على بُعد ، فى لقطة سريعة جدا ، وقد حملها بعضهن لإقالتها من عثرة كادت تودى بها تحت الأقدام ، ثم أنزلنها على الأرض لتختفى تماما عن ناظرى ..

حينئذ فحسب ، تذكرت أننى شاهدت شيئا قريبا من هذا المشهد ذات يوم . إنه منظر يسكنني منذ بضع سنوات . وفيما كان ذلك المنام البعيد يستيقظ فى ذاكرتى كنت أثبت انتباهى على مجموعة النساء اللاتى يخفين أم صابر بينهن ، وقد داخلنى الاطمئنان بأننا جميعا صائرون إلى التلاقى فى مرتفع كان يقترب منا ونقترب منه فى بطء جميل .

القبة

كنت ماشيا فى عز الليل فى طريق أشبه بطريق يسمى الأوستراد المعمول حديثًا فى نواحى منشية ناصر . كان من الوضح أننى فى حالة مزاجية منبسطة . مع ذلك أشعر بأننى أشبه بالخائف ، أغلب الظن أننى خائف أن تضيع منى هذه الحالة ؛ إننى أتمنى أن أظل هكذا إلى الأبد لا يغضبنى شىء ولا يعكر مزاجى أو يحرق دمى شىء مهما كانت قيمته . لقد ظللت طوال عمرى الفائت أعمل بكل الطرق والوسائل لكى أصل إلى هذه الحالة المزاجية الرائقة الفائقة الصفاء ؛ فأنا كما أعلم عن نفسى سريع الغضب ، ومصيبتى أن غضبى يتصاعد بسرعة البرق فلا أكاد أدركه قبل أن يجدف فى حق الله سبحانه تعالى . ترى هل وضعنى الله الآن فى هذه الحالة ليشير لى أننى يجب أن أكون هكذا على الدوام لكى أنجو من غضبه وعقابه ؟ أم لعله قد هدانى ومنحنى هذه الحالة إلى الأبد فأوقفنى بذلك عند حدى وجنبنى فلتات اللسان الزفر الغشيم ؟! .. أنا الآن واثق أنه لن يعمل عقله بعقلى هو العزيز المنتقم الجبار ، وأنا الهلفوت الذى لا فى العير ولا فى النفير ؛ إنما الأدب واجب وإلا زاطت الأمور وتطربقت النواميس على رءوس بنى البشر .. سبحانك اللهم لماذا لا تجعلنى هكذا دائما لا أنفعل ولا أتزربن ولا أستخدم السباب ..

فوجئت بيد تتأبط ذراعى الأيمن . تلفت منزعجا . قال الذى تأبطنى فى غبطة :

– «أرأيت الصيوان الذى أقمناه لك ؟!»

– «صيوان ؟! أقمتموه لى أنا ؟! كيف يا بو العم ؟! من أكون حتى تقيموا لى الصيوان ! ومن أنتم عدم المؤاخذة ؟! ولماذا تقيمونه لى أصلا ؟! أنا لم أمت بعد حتى يقام لى صيوان للعزاء !!»

ظهر – على حنكه المفشوخ بابتسامة عجوز – أنه يريد أن يقول لى : ما لهذا المعنى قصدت بالصيوان ؛ ثم شوح بذراعه نافياً هذا المعنى ، وأضاف :

– «تعال أفرجك !»

بينى وبين نفسى كنت أشبه بالفرحان لأن يقام لى صيوان لأى سبب من الأسباب . فلما نفى المتأيطنى فكرة الموت عن تصورى فقد فهمت أن الصيوانات أنواع ، متعددة غير النوع الذى فى ذهنى ..

مشيت معه مسلوب الإرادة . تخطينا الشارع الذى اتضح أنه الأوستراد فعلا ؛ تجاوزنا مقابر قايتباى ؛ صرنا فى طريق صلاح سالم ، عبرناه إلى الضفة المقابلة . وجدنا تحت أقدامنا سلما من الحجر واضح أنه جديد لم تدس عليه أقدام من قبل . صرنا نهبط الدرج فى منحدر متعرج قليلا ؛ صار طريق صلاح سالم يمر من فوق أكتافنا والسيارات تخترقنا دون أن نشعر بها ..

فوجئت بمنظر بديع فى مواجهتى أصابنى بالروع حتى كدت أقع من طولى : عبارة عن قبة متوسطة الحجم ، محندقة ، مطلية بالذهب البندقى الأحمر ، وسيخ من الذهب منكوت فيها طالع من أعلى القبة فى اتجاه السماء حيث يستقر فوقه هلال من الفضة المصقولة ..

وقفت أمامها مبهوتا من شدة الورع الذى شملنى ، كل شعرة فى جسمى صارت ترتعش من الرهبة من عدم فهمى لمعنى أن تكون هذه القبة لى ، أعدت خصيصا لى . رحت أتأملها ، فيها شغل كبير معجز ، نقوش ورسوم للحروف الأبجدية بين براويز وأفاريز وإيوانات ؛ هى لاشك آيات قرآنية إلا أن قراءتها على النحو الصحيح تحتاج لتعليم وفطنة ..

الدنيا من حولنا كانت ظلاما دامسا ؛ أما القبة فكانت كرة كبيرة جدا من اللهب المضىء . على وهجها رحت أتهجى الحروف محاولاً قراءة كلمات متكاملة . لكن الرعب زلزلنى حيث شعرت بمن يطبق على كتفى ويشدنى إلى الخلف بعيدا عن القبة . حاولت الفلفصة ضاربا بكوعى إلى الخلف بقوة ، فشعرت بألم شديد .

مددت يدى الأخرى لأمسك بكوعى المتألم فإذا بى أتبين أننى صرت قادرا على الحركة ؛ لكن القبة الجميلة اختفت تماما فحل الظلام الحالك لبرهة قصيرة ؛ وإذ فتحت عينى وجدت أم صابر واقفة تصحينى وبيدها كوب ملآن بالماء :

- « كنت عمتخطب على المنبر ؟! مالك يا رجل ؟ ما كل هذا الكلام مع نفسك؟!»

- « اسكتى يا أم صابر ! الله رضى عنى يا أم صابر ! الحمد لله نجحت فى الامتحان هذا العام ! اليوم كم فى شهر رمضان !»

- « الليلة سبعة وعشرين رمضان كل سنة وأنت طيب !»

- « الحمد لله ! فات الشهر الكريم دون أن تفلت أعصابى ويضيع صيامى ! لم أغلط فى حق الله ! حفظت أدبى طوال الشهر ! تصورى يا أم صابر أننى لم أنجح فى هذا الاختبار السنوى منذ خمسة وعشرين عاما مضت ؟!»

- «تقول لى ؟! أعرف ! تظل طول العام تصلى وتصوم وتزكى وتراعى ربنا فى كل شىء ! كل الناس تذاكر لتنجح فى امتحان آخر العام وأنت تذاكر لتسقط فى امتحان شهر رمضان !!»

- «الحمد لله ! الحمد لله ! لقد شفت ضريحى ! شفت آخرتى ! إنما إيه يا أم صابر ! آخر أبهة ! يارب ! أكمل جميلك معى واحفظ لى أدبى معك طوال اليومين الباقيين من صيام رمضان !!»

أحلى مغرب صليته فى حياتى كان مغرب ذلك اليوم والله العظيم يا بو العم . صليته يعنى صليته . كنت كأننى غطست فى بئر الطهارة وخرجت شخصا جديدا لا يعرف أحمد القديم وإن كان اسمه نفس الاسم أحمد محمد احمد حماد ..

من غريب الصدف أن يلتقينى عند باب مسجد قايتباى وقهوة إبراهيم الغول مجموعة من ذوى المزاج الحاد الثقيل فى الهزار ، دأبوا على نحل وبر الصعايدة وتهزيئهم فى شخصى بنكت سمجة خايبة لكنها مع ذلك تضحك الفارغين

المستعدين للضحك دون زغزغة . لو كنا في يوم آخر غير ذلك اليوم لانقلب ميدان السوق عن آخره وامتلأ بتبابيت الصعايدة من ولادنا الذين تنشق عنهم الأرض بمجرد سماعهم لصوتي يتخانق في أي مكان .. إلا أنني صرت أول الضاحكين على نكاتهم بصفاء ، بل اكتشفت - وياللغرابة - أن النكات مضحكة بالفعل ولكن من قائليها .

قبل ارتفاع الأذان بدقائق رأيت صديقي الأستاذ قد خرج من القهوة وانعطف يشتري أكياس الطرشي من حليمة غفيرة المبولة ؛ ثم اتجه إلى سيارته ليركب وليلحق بالإفطار في بيته في ضواحي المقطم . كنت لحظتها أتأهب لمغادرة سلم الجامع كي ألحق به وأصمم على إبقائه لنفطر معا رغم أن طبيخنا يومئذ لم يكن نكتة . إلا أن الأستاذ ما إن رآني من بعيد حتى ناداني :

- « ياعم احمد ! »

وأشار لي بالاقتراب فيما يميل رأسه داخل سيارته ليتناول شيئا من على الكرسي المجاور لكرسي السائق . ثم اعتدل واقفا وسلمني اللفة المبهجة الشكل وهو يبتسم في غبطة ..

- «إيه دا يا أستاذ؟! شكلاطه ؟!»

- «دا مصحف كبير من مصاحف الملك خالد ! حاجة فخمة جدا ! الملك خالد بعت لمصر كمية هدايا.. ربنا رزقني بمصحفين أخذت واحدا لي وحجزت هذا لك!»

المصحف كان تحفة ، أشبه بعلبة حلي ثمينة من تلك العلب التي نراها في الأفلام موضوعة استمرار على طقاطيق صالونات الباشوات . فرحتي به فرحة لا أستطيع وصفها ، لففته في شالي الكشمير حتى أبعده عن نظرات وأيدي الفضوليين التي ستصر على فتحه والعبث بصفحاته مما قد يبهدله . أمسكت ذراع الأستاذ لكي يبقى للإفطار معي ؛ لكنه شد نفسه بنعومة وجلس على كرسيه . بسرعة أدار المحرك شاكرا طلبي ؛ وفي لمح بالبصر كانت السيارة قد رجعت إلى الخلف قليلا ثم دخلت بظهرها حارة سيد النجار ثم اعتدلت فتوكلت على الله

زاحفة كأوزة بيضاء تتبختر متباعدة ثم تبتلعها البوابة الأثرية المفتوحة كحنك التمساح .

وضعت المصحف ملفوفا بالشال أمامى على سجادة الصلاة حيث يلامسه جبينى عند الركوع . ما أن انتهينا من صلاة المغرب حتى أضاءت مشكاوات المسجد كلها دفعة واحدة فغرق صحن المسجد فى بحر من الأضواء الملونة . لم أطق صبرا ، مددت يدى فسحبت المصحف التحفة ودرت حواليه بنظرة عرفت منها كيف يفتح . نزعته من علبته الثمينة ؛ أزحت الغلاف السميك ثم اللسان المضموم على الصحائف . رفعت أول ورقة ؛ فدارت بى الأرض يا بو العم كأننى صرت فراشة صغيرة ابتلعتها دوامة الهواء المتقابل من كل ناحية ..

فى أول صفحة طالعتنى القبة ، نفس القبة التى شفتها قبل صلاة المغرب بأقل من ساعة زمن ؛ القبة مطلية باللون الأحمر ، فبدت ككرة من اللهب المضىء خفتت فى وهج أضواء المشكاوات ؛ ينكت القبة سيخ طالع من قلبها كالحربة المسنونة يستقر فوقه هلال فضى ، الحروف الأبجدية من تحت القبة تتمدد وتتكور وتتقرفص وتستقيم على حيلها داخل براويز وأفاريز ونقوش ..

تلقفت رأسى بين يدى غائبا عن كل ما حولى لبرهة طويلة لم أشعر خلالها بانصراف كل المصلين ؛ وكان صوت مجهول يشيعنى إلى عتبة المسجد هامسا فى أذنى : لا يحق لك القلق بعد الآن فقد حصلت على شهادة النجاح بتفوق ؛ فإن كنت رجلا بحق وإبن قلبك بحق فاحذر أن تغفو عن الذى لا يغفو مطلقا فإن مثل هذه القبة إذا ضاعت هيهات أن تعود .

العدد القادم من روايات الهلال :

ويأتى القطار

بقلم
محمد البساطى

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٩

رقم الايداع : ١٩٩٩/٥٦٧٢
I. S. B. N
977 - 07 -0654- X

هـذه الروايـة

● تجربة بعد تجربة يزداد الروائى خيرى شلبى انفتاحا على الواقع المصرى فى قاعه البعيد جدا . وإضافة إلى هذا فإن هذه الرواية تقتحم العالم الخفى لإحدى الشخصيات الشعبية ، عالم المنام الذى يرى الكاتب أنه أكثر دقة وتعبيراً عن الواقع من الواقع نفسه . وتتجلى فى هذه الرواية قدرة الكاتب على النفاذ إلى ما وراء المظهر الواقعى ، والقدرة على الحكى من الداخل بلسان الشخصية الفنية مهما كان مستواها الثقافى .

وربما كانت هذه التجربة جديدة تماما على الرواية العربية ، حيث نعيش تفاصيل عالم كامل ، وحياة أسرة كاملة من خلال هذه المنامات التى نجح الكاتب فى تحويلها إلى شكل روائى ، وزاوية للرؤية تتيح كشفا ونفاذا تعجز عنهما الأشكال التقليدية .



خيرى شلبى .

● ستون عاماً .
● سبعون كتاباً .
● جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨١ .
● وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .
● من رواياته : (الوتد)، (وكالة عطيه) ، (الشطار) ، (السنيورة) ، (موال البيات والنوم) ، (ثلاثية الأمالى) ، (لحس العتب) ، (بغلة العرش) ، (موت عباءة) ، (بطن البقرة) ، (فرعان من الصبار) ، (العراوى) ، وغيرها .
● من مجموعاته القصصية : (أسباب الكى بالنار) ، (صاحب السعادة اللص) ، (المنحنى الخطر) ، (سارق الفرح) ، (الدساس)، وغيرها .
● يكتب النقد والدراسة الأدبية .
● قدمت له السينما : (الشطار) و(سارق الفرح) .
● قدم له التليفزيون مسلسل (الوتد) .
● يكتب عن الأحياء الشعبية والمناطق العشوائية والمهمشين ، كما يعتبر من أهم كتاب القرية المصرية .

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٠٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢